مخلب القرد الأحمر
رواية
عارف فكري

مخلب القرد الأحمر

رواية

عارف فكري

مقدمة

عاد أبي بوجه غير الذي ذهب به. أعرف تفاصيل ذلك الوجه جيدًا، محفورٌ في تلافيف ذاكرتي؛ فأنا أراه كل صباح، يجلس بصمت القبور، يقلب صفحات الجريدة بعينين زجاجتين، ويده تمسك بفنجان القهوة.

يده ترتعش لسبب مجهول، لكنه يصرُّ على أن يرتشف بضع رشفات من القهوة الساخنة، وكأنما يتشبث بتلابيب العادة، ووجهه الجامد لا يعبر عن أي شيء.

شقيقتي الكبرى ليلى تتناول طعامها-كالعادة-وهي تثرثر، تتحدث عن آخر اكتشاف علمي لمدينة أثرية، أو مخطوطة قديمة وجِدتْ في منزل مهجور، أو عن أطروحتها التي لا تجعلها تنام جيدًا، وبرغم التفاصيل التي تدلُّ على إرهاقها؛ فقد كانت مستمتعة.

أعرف ذلك من عينيها اللامعتين، الناضحتين ببريق الحماس والجنون!

على الخلاف منها فإن أحمد يملك وجهًا هادئًا، يليق برجل عمره مائة عام، حاز الحكمة، واستوطنها في قلبه، يتناول طعامه بتؤدة، يمسك ملعقته بيده اليمنى، يقلّبْ الطعام ببطء، كأنما يبحث بين ثناياه عن قطع صغيرة من الذهب، بينما يده اليسرى تعطي إجابة وافية

عن ذلك السلوك الغريب؛ فقد كان جهاز الآيباد على فخذيه، شاشته اللامعة لا تنثر ضوءه بعيدًا، أشكُّ حتى أن أبي سيري المنظر من برجه العاجي الذي يجلس على قمته؛ فهو وإن كان يبعد مترين على الأكثر، إلا أنه-حقيقة-يبعد آلاف الأميال!

والدتي لا تكفّ عن وضع الطعام، عيناها على الأطباق، فور أن يفرغ واحد تملأ الآخر. الحقيقة أن هذا لا يحدث في الإفطار، ومن ثمة فهي تأكل بتوتر، كأنما تتمني أن تحدث تلك المعجزة الصباحية؛ فتغيّر مزاجها، وكأن هذا كفيل بجعلها تصدق أن حتى المعجزات تحدث أيضًا!

أتذكر ملامح وجه أبي جيدًا؛ لأنها -على مدار سنوات-لم تتغير؛ يطوي جريدته، يبتسم ابتسامة باردة، يومئ برأسه، ثم ينهض لعمله.

لكنه عاد في ذلك اليوم، وقد حدث شيء مغايرٌ لسير الطبيعة المعتاد!

كنت في حجرتي، أتأمل وجهي الذي يوحي بأني فتاة قد أكملتُ ربع قرن على هذه الأرض، لكنني في الواقع كنتُ أصغر من ذلك!

في آخر عيد ميلاد لي ضجّت الشقة بالصخب، وامتلأت بالهدايا، التي شعرتُ ببرودتها، برغم نفاستها!

أتأمل-بفخر-وجهي الجميل، أتحسس-بنشوة-ملامحي الدقيقة المتناسقة، عندما سمعت أمي تهتف بدهشة:

"ما الأمر؟ عدت مبكرًا من عملك على غير عادتك!"

"هل أحدٌ من الأولاد هنا؟"

"سلمى فقط، وهي تتأهب للخروج".

هنا لم أسمع إلا وشوشات إستاتيكية غامضة، أيقظتْ فيّ شيطان الفضول؛ فاقتربتُ من الباب، أفتحه ببطء، أنظر عبر فرجته، لكني لم أصطدم إلا بالفراغ!

تناولتُ حقيبتي الوردية، وغادرت حجرتي، مارَّة بالصالة حيث يجلس والديَّ في ركن منعزل نسبيًا، وكأنما يقطعان الطريق عليّ! هنا لاحظتُ أن وجهه مُحْمِّرٌ، طبقة رقيقة من التراب تكسو جلده، وهو أمر أدهشني؛ فأبي رجل أنيق، لا يقبل أن تعلق ذرة غبار واحدة بثيابه!

ما الأمر الذي جعله يدفع بتلك الأساسيات في حياته للهامش؟ لابد أنه أمر جلل. كعادتي لم اسأل. رسمتُ ابتسامة باردة على وجهي، تعلمتها من أبي نفسه، أقابله بها كلما ذهب، وكلما عاد!

والدي يومئ برأسه. أتجه للباب، وأغيب عن ناظريهما. الأمر شغل ذهني، حتى وأنا أجلس مع صديقتي المقرَّبة جيهان. أشعر بأن ثمة عاصفة رمادية قادمة في الطريق.

شيء ما سيقلب ترتيب الحياة التي أعرفها وآلفها، برغم مقتي للملل، وحبي للتجديد، لكن هذا يكون في إطار صورة معينة أرسمها لنفسي، ولا أسمح لأحدٍ من أفراد عائلتي أن يقتحمها!

"مالك؟!"

سألتني جيهان، وهي ترشف رشفة من كأس العصير أمامها.

تمتمتُ:

"أبي!"

ابتسمتْ جيهان، وكأنها وجدت مفارقة ظريفة فيما ستقوله:

"ماله؟"

هززتُ رأسي:

"لا أعلم. شيء ما قد حدث، ولا علم لي به!"

قالت صديقتي بحكمة:

"ما سيبدو غامضًا الآن، سيتضح لكِ سرّه فيما بعد!"

و"فيما بعد" هذه لم تأخذ ساعات في الواقع؛ فقد وصلتني رسالة من والدتي على هاتفي المحمول تطلب مني العودة فورًا. لم يحدث هذا من قبل؛ لذا فقد تركتُ صديقتي، وهرولتُ مسرعة، وأنا أتوقع سوءًا.

هبطتُ من الحافلة؛ لأجد سيارة نقل كبيرة-من تلك التي تستخدم في نقل الأثاث-تقبع تحت العمارة.

نبض قلبي يتسارع، راح يهرول دون نظام في صدري.
ظهرتْ ليلى، وهي تحمل صندوقًا، تضمه لصدرها في حنو بالغ، وهي تضعه في مكان بعيدٍ عن متناول الأيدي، وهي تبدو متحمسة بشكل أثار استغرابي!

"سوف ننتقل!"

قالتها ببساطة، فور أن رأتني، وقد تراقص السؤال على صفحة وجهي.

"ننتقل؟"

قالت مفسرة ببساطة، وكأن الأمر يحدث يوميًا بشكل اعتيادي:

"لقد واجهتْ والدنا بضع مشاكل مالية، واحتاج لسيولة عاجلة، ولم يكن من سبيل أمامه إلا أن يبيع شقتنا هذه بشكل عاجل!"

زلزلني الخبر، واقتلعني من جذوري، التي توشك على الاقتلاع فعلًا من هنا! وجهي الأبيض يغدو قطعة من الجحيم؛ مفاعل نووي يتحرك بعصبية تحت جلدي، تبدو نواته غير مستقرة، تنذر بلهيب سيحيل الكون لحُطام من الشظايا!

"وأين سنذهب؟"

صفقت الحمقاء كالأطفال:

"هذه هي المفاجأة!"

وأغمضتْ عينيها حالمةً، وقالت وهي تضمُّ يديها في افتتان:

"منزل قديم بالمقطم؛ في أعلي نقطة فيه! هل رأيتِ روعة مثل هذه؟"

تضاعف غضبي، لكن شقيقتي المتحمسة لم تلاحظ. ظهر أبي في تلك اللحظة، وهو يساعد عُمَّال النقل، معطيًا إياهم إرشاداته في عصبية؛ حتى لا يكسروا شيئًا. كان منفعلًا كقوس مشدود عن آخره؛ مما جعلني أتراجع في غيظ، أكتم النار بداخلي بقدر ما أستطيع!

رآني؛ فأشار إليّ؛ فاقتربت منه، وأنا أطمح في إجابة سؤال لا أريد إلقاءه، لكنه صبَّ عليّ ماء مثلج، وهو يتمتم:

"لم أدع أحدًا يدخل إلى حجرتك!".

كان من المفترض أن أهزُّ رأسي ممتنة، أو أقول كلمة شكر واحدة، لكني لم أفعل. فقط قذفته بنظرة مضطرمة كاللهب، ثم أسرعتُ إلى الشقة، محاذرة أن أصطدم بأحدهم وهو يحمل مقعدًا، أو أريكة.

أجمع حاجياتي الثمينة، وأضعها برفق حذر في صناديق أُعدَّتْ لذلك الغرض. طوفان من الأفكار والمشاعر راح يطيح بكياني؛ فبأي حق يقوم والدي بتغيير حياتي التي اعتدتُ عليها منذ ولدت؟

بأي حق يقلب عالمي، ويقتلعني هكذا، ويرميني في منزل بعيد؟ كنتُ أعلم بأنني لن أغفر له هذا أبدًا. في قلبي رصيد من السواد يسمح بتحقيق ذلك! في عقلي رصيد من الذكريات يسمح بذلك!

***

طوال الطريق كانت ليلى تثرثر بلا انقطاع عن جبل المقطم، وأنه يشبه المثلث، وكيف أنه ينتهي عند ما يسمي بالجبل الأحمر عند العباسية. الحقّ أن صداعًا أصابني من كلامها المزعج.

وأخيرًا توقفت سيارة والدي أمام المنزل الذي يقع بأعلى الجبل بالفعل، في منطقة خالية، وبدا غريبًا، تحيط به بعض الخرائب، التي تشبه الأطلال التي تنعق فوقها البوم!

من قبل حتى أن أنظر لوجه ليلى؛ لأشاهد ردة فعلها، كنت أتوقع ما رأيته: وجه ممتعض، مفزوع، يتجسد عليه تعبير الاستياء الغاضب، الممزوج بـ"قرف" لا حدود له؛ بسبب تلك الخرائب الكريهة المحيطة بالبيت القديم، والذي كان يتسربل بغلالة سميكة من الكآبة جعلت قلبي ينقبض رغمًا عني.

كأنما هو نذير شؤم يتحرك في تموجات الأثير، يدفعني للهروب سريعًا منه، لكن السادة المحيطين به لا يأبهون أصلًا بما أشعر به!

وما أحسُّ به ليس هينًا. المكان بدا لي أشبه بسجن كالح الجدران، وذلك السور الأحمر الكئيب، بالرغم من الحديقة البائسة التي تحيط به، والتي تتغذي أشجارها من القمامة والعفن المحيط بها على مدي البصر!

تُري: من صاحب الذوق الفظيع الذي كان يسكن هنا من قبل؟!

سرَّني أن أري نظرة استنكار واشمئزاز مزدوجة على وجه أمي، لكنها لم تفعل أكثر من ذلك، ولم تتجاوز الخط الذي وضِع لها منذ زمن بعيد! خطّ يسمح لها بأن تمارس نفس السياسة المقيتة؛ فهي لا تقف مع أحد منا ضد سلطة أبي، لكنها لا تقف في صفه أيضًا! إن مهمتها المقدسة-كما تعتقد-هي خلق حالة من التوازن! ليست هنا، أو هناك! حالة شبحية لعينة!

مرحلة البين بين هذه تصيبني بالجنون؛ فلا أعرف معني أن يقف أحدهم مترددًا بين عالمين/ شيئين/ شخصين دون حراك! لا أعترف إلا بالأبيض أو الأسود، وما عداه فهو هراء!

وكان أبي ممتعضًا أيضًا، كأنه لم يتوقع المنظر!

لم أكن أعرف أي مصيرٍ تعسٍ ينتظرني، وأنا أقف مع أخوتي قبالة المنزل المنتصب ككابوس! للأمور دلائلها وبشائرها ونذرها

أيضًا فلم إذن لم أفهم ذلك الجاثم أمامي بصمت، والذي يعدني بمصير بشع؟!

لو أطلقتُ لخيالي العنان؛ فسأتخيل ساعة رقمية دقيقة على جدران المنزل الخارجية، وكأنه يخبرني-بفظاظة-عما هو آت!

في وقفتي هذه أرمق أختي الكبرى: ليلى، وهي تتأمل البيت المكون من طابقين في انبهار حقيقي. لم أندهش؛ فقد حصلتْ على مجموع عالٍ يؤهلها لدخول إحدى كليات القمة، لكنها لم تفعل. فقط أصرّت على تحقيق حلمها ودخول كلية الآداب قسم آثار.

كانت حجرتي تمتلئ بملصقات لمطربين عرب وأجانب، وأجهزة حديثة من كل ماركة؛ أرهقتْ أسعارها الغالية والدي، وجعلته يكاد يُجنّ على الرغم من حالتنا المتيسرة!

بينما كانت حجرتي هكذا؛ فقد كانت حجرة ليلى مقتطعة من العصور الغابرة؛ بما فيها من تحف وتماثيل وأنتيكات وخرائط قديمة، ومخطوطات مهترئة.

لقد تحقق حلمها إذن!

أنظر لوجهها في إحباط. لم ترتع من خطورة الانتقال إلى هنا. أنتقل بعينيِّ إلى أخي أحمد. إنه نموذج فذ للتجاهل؛ فلو أُلقي في القطب الشمالي وسط الذئاب المفترسة فلن يرمش له جفن!

لديه مشكلة حقيقية مع الخوف، لدرجة أن أمي ألحَّتْ على أبي لكي يذهب به لطبيب نفسي لكنه رفض؛ وحجته أنه لن يُدمِّر مستقبل ابنه بسبب امتلاكه لقلب ميِّت!

كانت ليلى تردد ساخرة بغموض المثقفين المستفز: ***" الشاب الذي ارتحل ليتعلم معني الخوف!"*** .

أرمقها بضيق مكتوم، مُغلّف باللامبالاة والتجاهل. إنه سلاح ناجع يؤتي أثره؛ فسرعان ما كانت ليلى تتمتم بكلمات مبهمة! لكل شيخ طريقة كما يقولون، وهذه طريقتي فلم لا تعجبها؟

"المكان يحتاج لتنظيف!"

همستْ بها أمي، في بادرة منها تكسر السكون الذي غلّف وجودنا هناك، والشمس تجنح للغروب!

***

كان المنزل الكبير يحتاج لكثير من الأيدي. حاولتُ التنصل لكن دون جدوى. قيلت كلمات من نوعية" فتاة مدللة"،" غير متحملة للمسئولية"،" أنانية لا تري إلا نفسها". الخ.

كدتُ أجنّ من هذا السيل المفاجئ؛ مما جعل أذنيِّ تحمران غضبًا!

هنا انطلقت الضحكات الشامتة المجلجلة. فخّ أُعدّ لي بإحكام، وهويتُ فيه كالحمقاء!

كان المنزل يمتلئ بالأشياء القديمة، ممن كانوا يسكنون قبلنا، وكنتُ أنظر في تأفف إلى كمية التراب المهولة التي توجد فيه.
اندهشتُ لأن أبي لم يستقدم أحدًا لينظف المنزل بدلًا منا!

كانت ليلى مبهورة، وكانت تؤكد علينا بأن نعطيها أي شيء غريب نجده؛ مثل الكتب ذات الأوراق الصفراء، والصناديق الأثرية، وقد أخبرتنا-بلهجة متحمسة-أن المنزل، يخبئ تحته العديد من الأسرار، وهنا تبادلتُ نظرة ساخرة مع أحمد، استقبلها ذلك الأخير ببرود غير آبهٍ.

ولكي أبعد عن عقلي تلك الخواطر الكئيبة، كنتُ أبحثُ عن أي شيء، يُسليني، من محتويات البيت، ممن تركها الأقدمون، لكن ليلى، كانت تختطف أي شيء أجده، كما لو كنا أطفالًا نتشاجر على ألعابنا!
شعرتُ بالغيظ من موقفها هذا، وكدتُ أنفجر فيها غاضبةً.

ربتت أمي على كتفي مهدئة، وابتسامة ترفّ على شفتيها. كدتُ أسألها عن سرّ تلكم الابتسامة المستفزة، ثم تذكرتُ أن والدي يُجري مكالمة غاضبة؛ فالتزمتُ الصمتُ، وأبي يقول:

"المنزل قذر جدًا يا عم نجيب! كنت أتصور أنك ستقوم بتنظيفه قبل قدومنا!"

هكذا إذن! لقد ظلمتُ أبي بسوء ظني! فليكن، لكنه ما زال ملومًا لإحضارنا إلى هنا!

ما زال أبي يتحدث:

"أخبرتك أنها خرافات أيها الرجل الطيب! المفترض أننا أتينا من طرف الدكتور فوزي؛ فوجب أن تعتني بنظافة البيت، فهناك كمية تراب كافية لقتلنا!"

صدقت يا أبي، في موضوع قتلنا هذا، لكن بطريقة مختلفة تمامًا!

كان أبي غاضبًا بحق، ووجهه الأحمر يشي بحجم الانفعالات التي يشعر بها.

كنتُ أشعر بخوف منه في تلك الأيام. إنه ليس الرجل الذي أعرفه عندما كنتُ طفلة يأخذني للحدائق أنا وأخوتي، أم أن هناك وجوهًا غامضة في ذلك الرجل لم أرها! لقد تغيّر هو أيضًا، ولم يعد ذلك الأب الذي تعودنا عليه!

كانت أمي تخبرنا بأن ضغوط العمل تراكمت عليه.

كان عليّ أن أواصل تنظيف المكان معهم مجبرة. ابتسامة حانقة مكتومة تتأرجح على شفتيّ في قنوط؛ معبرة بخفوت عما يعتمل في داخلي من انفعالات!

لو كان للمشاعر السلبية أن تتجسد في طاقة ما، لتحوّل هذا المنزل لُحطام مثير للرثاء!

ثم قمنا بنقل محتويات الشقة والتي كانت بالخارج مُكدّسة، إلى المنزل القديم. من الجميل-أو السيئ! لا أدري-أن المنزل يقبع في منطقة منعزلة نسبيًا.

***

الآن صار البيت نظيفًا بخلاف المشهد الجاثم بالخارج؛ كجثة ميتة متفسخة الأوصال؛ فقد تحول إلى شعلة من الضوء تعجُّ بالمصابيح الفسفورية، وثمة معطر جوّ تمّ رشّه، وأثاث جديد تمت إضافته. أشياء كهذه جعلت أمي مسرورة!

"بيت جميل. كيف لمكان كهذا يكون بثمن رخيص كالذي أخبرتني به؟!"

كان السؤال موجهًا لأبي؛ فلم يجبه، فقط اكتفي بابتسامة غامضة على شفتيه الجافتين، ولم يعقب. أما ليلى فراحت تتحسس الجدران كالمخبولة، بينما طقطقات الآيباد الخفيفة الخاص بأحمد يخترق مسامعها، لكن ليلى كانت في شغل في اكتشاف السحر الماثل أمامها وحولها، يتضوع بعبق القِدم الغابر، ويداعب مخيلتها الطفولية بأصابع فنان!

"أنا أعيش مع عائلة من المعاتيه!"

هكذا قلتُ لنفسي، وأنا أمسح الصالة ببصري. توقفت عيناي عند القبو. قبو ذو جدار كالح تشبَّع بالرطوبة، وثمة رائحة كريهة خانقة زكمت أنفي-برغم معطِّر الجوّ-عندما اقتربتُ منه!

قلت فيما معناه أن قواعد البيت ستهوي علينا في أي لحظة؛ فرمقني أبي بنظرة ضيق، بينما تحفزت أمي-كعادتها-لإطفاء النيران التي قد تشتعل في أي لحظة، بينما كانت ليلى تتحسس الجدران في افتتان؛ جعلني أكاد أنفجر في وجهها، لكن وجه أحمد المسطح البليد جعلني أهدأ قليلًا!

باب موارب مغلق بقفل قديم ضخم، تتجمع عليه طبقة من الصدأ يوحي بالزمن الكبير الذي ظلّ في مكانه يحمي مكانًا لا يستحق الحماية أصلًا! لابد أنه مليء بكراكيب وبقايا العهود الغابرة!

منزل هكذا لابد أنه بني منذ مائة عام على الأقل. قوالب الصخور الضخمة، القرميد، أشياء كهذه يشعر بها المرء، ولا يعرف لها تفسيرًا، وكأن بقايا من عاشوا هنا تعلق ذراتهم الروحانية في الهواء نفسه!

داعبت القفل بيدي؛ فسمعتُ صوت أبي الصارم:

"ابتعدي عن القبو ولا تقتربي منه!"

في الواقع كنتُ أنوي أن أفعل ذلك بالفعل؛ فلستُ على استعداد أن أوسِّخْ ثيابي في مكان كهذا؛ لابد أنه يمتلئ بالفئران والحشرات، وأنا أمقت الفئران مقتي للشيطان ذاته!

لكن بعد تحذيره؛ فقد أضحى لديّ سببٌ كافٍ لكي أدخله!

الآن أعرف مغزى تلك القصة التي كانت تحكيها ليلى لتعبر عن قوة الفضول؛ عن الأميرة التي يُسمح لها بأن تدخل تسعًا وتسعين حجرة في القصر الفخم إلا واحدة!

حجرة واحدة فقط محرم عليها دخولها؛ ومن ثم فقد تساقطت أهمية بقية الحجرات كأوراق الخريف الجافة، وصارت الغرفة المائة هي الأهم وسط ذلك النعيم الذي تراه وتعيش فيه!

***

بعد أن دقَّتْ الساعة معلنة منتصف الليل غادرت غرفتي. خطر لي بأن البيت كله نائم، وما دمتُ أتلبس روح الأميرة التي تسير وراء فضولها؛ فلا بأس أن أضمَّ إليها حكاية سندريلا أيضًا؛ الفرق الوحيد أن فصلًا في حياة تلك الأخيرة ينتهي بتعاسة، بخلافي أنا؛ فقصتي تبدأ الآن، وسأعرف ما الذي يخفيه القبو!

حاذرت أن أحدثَ صوتًا. اتجهت للقبو، وألقيتُ نظرة متحمسة على القفل الضخم. الحماس يلهث في عروقي. عتلة قوية ستقوم بحلّ

المشكلة، أو ربما-بمزيد من الضغط-يمكن أن ينهار تحت جبروت فضولي!

كل هذا تبدد في الهواء؛ عندما رأيتُ المفتاح معلقًا بالجدار. الحقيقة أن طريقة تدليه كادت تختفي وسط الجدار المائل للون البني المحروق، وهو ما يناسب لونه نوعًا!

دسست المفتاح في الثقب. تحذيرات والدي تضيع في الفراغ. على الأقل سأجد شيئًا أحرق دمه به! ولجت للداخل، وأنا أصوِّب مصباح هاتفي المحمول. نوره الصغير ينير لي جزءًا من موقع خطواتي، أما البقية فتغرق في العتمة.

أغلقت الباب خلفي بحذر، هبطت درجات السلم ببطء؛ فأنا لا أريد أن ينتهي بي الأمر محطمة العنق جرّاء فضولي!

بحثت بأصابعي-بمعاونة المصباح-عن مفاتيح الإنارة. العلبة الكهربائية كانت محطمة في أغلبها، تبرز أحشاءها بشكل مقزز! قرَّبتُ عينيَّ؛ لئلا تلامس سلكًا عاريًا يُعجِّل بنهايتي. ضغطته بحذر؛ فانساب ضوء شاحب في المكان.

أضع هاتفي المحمول في جيبي، وأشرع في استكشاف المكان.

الحقيقة أن القبو كان أبشع مما تخيلته: أكوام من الخشب الأسود العطن، صناديق من الكرتون التي تغطي جدران القبو، وكل هذا في كفة وتلك الرائحة المقيتة مجهولة المصدر في كفة أخرى! رحتُ

أسعل، ووجدت أنني لو ظللتُ هناك أكثر فسوف ألقي حتفي بسبب مغاير لما تخيلته!

القبو/ السرداب أشبه بمقبرة مكتومة، وثمة روائح عضوية مقيتة؛ فلو اكتشفتُ أن ثمة أناس مدفونين هنا منذ سنوات؛ فلن أندهش كثيرًا!

لكن البئر القديمة كانت هناك، تنتظرني، ترمقني بصمت خبيث مراوغ، ترسل إليَّ رسائل مشفرة، تعبث في أذنيِّ، تتسلل بخبث إلى أعمق أعماقي، توقظ شيطان الفضول من جديد، وتدفع-بحماس-الدم ليصحو من رقاده؛ ليواصل ركضه المجنون!

أقترب من البئر بحذر، وأنا أشعر بدهشة؛ بئر في قعر البيت؟! ما أن ألقيتُ بنظرة لأسفل حتى استقبلتني الرائحة المقيتة إياها بعنف؛ مما جعلني أعرف مصدرها أخيرًا، لكن كانت هناك رائحة أخرى، عطرية نوعًا، هجمت على شعيرات أنفي، وربض بعضها هناك، بينما واصلتْ بقيتها الدخول للأعماق!

رفعتُ عينيَّ للسقف، وشعرت بأن العالم يدور بي، أو أنا من أدور معه في رقصة سرمدية، أرتدي فيها عباءة المريدين، وأغمضُ عينيَّ، لعلني أجد ما أبحثُ عنه، لكن ما الذي أبحثُ عنه حقيقة؟!

غرق عقلي في تساؤلات فلسفية حائرة، بينما جسدي ينزلق لأسفل، وقد فقدت التحكم به نهائيًا!

في محاولة يائسة مددتُ يديَّ لكي أمنع السقوط، لكن يداي خانتاني، وارتعشت أصابعي في رقصة أخيرة، قبل أن يبدأ جسدي في السقوط لأعماق البئر!

***

الفصل الأول

للحظة انطفأ وعيي ثم اشتعل؛ كشمعة توقد في عتمة مخيفة، مزلزلة للأعصاب! نقطتان لم أفهمهما بعد سقوطي في البئر:

الأول: كيف يوجد مكان هكذا بأسفل؟

الثاني: كيف وصلت للأرض دون أن أفقد الوعي، أو تتحطم ضلوعي علي أقل تقدير، بغضِّ النظر عن تلك اللحظة التي فقدتُ فيها إحساسي بالزمن؟!

الظلام دامس. أنا راقدة على الأرض غير المريحة. واضح أن البئر جافة، لكن حبّات الحصى الغليظة تخترق ظهري، وتبعث فيه آلامًا لا تُطاق! كأنما هذا هو عقابي على سقوطي سالمةً! الرائحة المقيتة موجودة بكثافة، تكاد تجعلني أتقيأ من فرط الاشمئزاز! لكنني تمالكتُ أعصابي، وأنا أردد:

"لن أفعلها! لن أفعلها!"

لكن هل أنا بخير بالفعل، أم أن العقل يُمارس ألاعيبه كعادته، ويفرز مادة مسكنة للآلام، ويتركني حتى أهدأ، ثم يُطلق الألم العظيم من عقاله ليجوس في أنحاء جسدي، وكأنما الألم المزدوج كافٍ لقتلي؟!

بشكل ما شعرتُ بالإثارة!

المرء لا يسقط في بئر قديمة كل يوم. الأدرينالين يتدفق في عروقي. خطر لي أن المسافة بين أعلي والقاع ليست كبيرة؛ فلم أستغرق وقتًا في الوصول إلى هذا الأخير.

نهضتُ من رقدتي بحذر. أحاول اختراق حُجب الظلام المتراكمة دون جدوى. أتذكر أنني أحمل هاتفي المحمول. رفيقي العتيد الذي طالما أنقذني من مواقف مشابهة من قبل، لكن لم تكن مطابقة لحادثة البئر لو شئنا الدقة. أرفع رأسي، في ذات اللحظة التي أمدّ يديّ فيها إلى جيبي، لكن لا يوجد جيب أصلًا؟!

أتحسس ثيابي، فأجدها خشنة نوعًا!

المشكلة أنه لا يوجد ضوء هنا، وإلا عرفتُ ما يحدث على الفور. أتحرك بحذر شديد في المكان، وأنا أشعر بآلام عظامي تتصاعد كرنين مزعج بين جدران جمجمتي! بعد عدة أمتار ألمحُ شعاع ضوء يأتي من بعيد، يتسلل بين الشقوق، يرمي إليّ حبل نجاة، أو ربما هي تخيلّات يديرها عقلي؛ من أجل ألا أشعر بالذعر!

أعرف أن المنزل فوق تلك التلة العالية بجبل المقطم، وربما تلك الأضواء قادمة من بعيد!

المكان متسع بشكل مرعب. أشبه بقاعة مربعة نوعًا. الجدران كالحة. ثمة سواد كأنما شبّ حريق في قديم الأزل أحرق الصخور، وطبعها بسمته الرمادي الكئيب. هل هذا بئر، أم أن القيعان تبدو هكذا؟ لأول مرة أشعر بالخوف. الأمر ليس هزلًا.

هل هو الموت؟!

لكنني أعرفُ أنني كنتُ مخطئة دون شكّ؛ فيداي تجوسان في الجدران بلهفة الباحث عن أي فرصة للنجاة. يتبدى لي مصيري المفزع، وطوفان الإثارة الذي كان يتدفق في دمائي؛ تعبيرًا عن فرحته لوجود مغامرة تكسر ملل الحياة اليومية؛ قد تباطأ، وتخثر، ثم انزوي بعيدًا، تاركًا إياي أرتجف من الخوف، وركبتاي ترتعشان رعشة المحموم، الذي وجد نفسه في بركة من الماء المُثلَّج!

هذه الأشياء لا تحدث لنا بالصورة التي نتخيلها دومًا في أحلامنا؛ فنحن أبطال، خارقون، نتسم بالذكاء الشديد، والعبقرية الخلاقة، وكل الظروف تعضدنا في أشدّ المواقف ظلمة وقسوة، ودائمًا يوجد هناك مخرج. بالنسبة لي الآن-وعلى أرض القاع شبه المظلم- يمكنني أن أدرك أن أحلام اليقظة مبهجة، مهما بلغت كمية الرعب فيها، ومهما اقترب الموت منا يفغر فاه!

سيبحثون عن تلك الحمقاء المدللة، وستجدها ليلى فرصة لتؤكد طيشي، وأن كل تكهناتها بخصوصي صارت حقيقة، بينما سيمطّ أحمد شفتيه في لا مبالاة، وستولول أمي منهارة، بينما يحاول أبي البحث عني بالطرق التقليدية، دون أن يخطر بباله أن هيكل ابنته العظمي موجود بأسفل البئر!

فلتسعد يا أبي؛ فسوف ألقي حتفي بسبب هذا المنزل الملعون؛ الذي أصررت أنت أن ننتقل جميعًا إليه!

تتوارد الخواطر إلى ذهني متدفقة، جامحة، قاسية، وكأنها تتجسد في هيئة امرأة لعوب تبتسم بسخرية، دون أن أقدر على كبح جماحها، أو حتى إلغاءها من ذهني. كنتُ-للأسف-في أضعف حالاتي، وأنفاسي تتباطأ. هل السبب يعود لنقص الأكسجين؟ أممكن هذا؟!

قاعة واسعة، لكن يبدو أنها ذات كمية محدودة من الهواء! لو كنتُ الآن فأرًا صغيرًا-لو صحّ هذا التفسير-، لضمنتُ لنفسي عدة أيام على قيد الحياة أعبّ الهواء الخانق في شراهة، ولو كنت كذلك لما صارت مشكلة أصلًا؛ فيمكنني أن أتسلق الجدران! أعتقد أنها تفعل ذلك!

لكني لم أكن من القوارض؛ فقط فتاة مذعورة تلعن فضولها الذي سيوردها-فيما يبدو-موارد التهلكة!

ما زالت يداي تبحثان في شقوق الجدار عن ثقب إبرة لو جاز التعبير. الزمن يمارس هوايته السخيفة، ويتوقف. كل شيء يتضخم.

ينمو كسرطان أخطبوطي بداخلي، ومن حولي. أمارس اليوم تجربة فريدة من نوعها مع الرعب. يتكون مذاقه المرير على طرف لساني. الخوف اللعين، راح يُكرّس نفسه بإخلاص كعدو لي في تلكم اللحظات الحرجة!

كم استمر بحثي عن مخرج؟

هل يهمّ معرفة الوقت حقًا، وهو ينزلق من بين كفيّ دونما حرج، تاركًا إياي أمارس محاولات النجاة؟ أنقر على الجدران. تبحث أصابعي عن شيء ما. تزدحم الذكريات مرة أخرى في ذهني. لمن أعود؟ لعائلتي التي لا أشعر بالانتماء إليها أصلًا؟

هنا توقفتُ وقلبي يخفق مجددًا بنبض النشوة والفخر؛ فقد غاصت يدي في فراغ بالجدار. ركزتُ عينيَّ أكثر لأري ما أمامي. ثمة صوت غريب يطرق مسامعي، يشبه الأنين، ينبعث من رقدته. يتمطى. ينثر الرماد من على جسده الفارع!

في ذات اللحظة التي راحت الخواطر ترمح في عقلي دونما نظام كعادتها منذ سقطتُ هنا؛ امتدت يدّ عظمية قوية وهي تقبض على رقبتي النحيلة!

***

خطر لي-والهواء ينسحب من جسدي -أنني سأموت بفقد الأوكسجين حقًا، حتى لو كانت الصورة القاتمة قد دخلتها فجأة تلكم اليد العظمية، والتي تغطيها طبقة رقيقة جافة من الجلد الأزرق!

يد خشنة، ذات ملمس مقزز على جلدي، جعل عاصفة باردة تجتاح جسدي بغتة، وكأنما انتقلتُ من مكان خانق إلى القطب الشمالي فجأة! كردّ فعل متوقع مني فإني قد تراجعتُ للخلف؛ لترتطم قدمي اليسرى بصخرة بارزة لعينة، تنتظر حظها السعيد معي، وكدتُ أسقطُ بالفعل، لولا أن اليد العنيدة كانت ملتفة حول رقبتي بقوة، لتقيني شرّ السقوط!

لو قُدر لي أن أعيش فسيكون هذا يوم السقوط دون شكّ، ولو كنتُ رومانسية الطابع لاحتفلتُ به كل عام بدلًا من عيد ميلادي أو عيد الفلانتين، ولو قُدر لشقيقتي ليلى أن تكون مكاني فلابد أنها ستُغرق نفسها في متاهة ميتافيزيقية فلسفية عن المفارقة العجيبة التي تجعل اليد العظمية: حامية وقاتلة في ذات الوقت!

لو!

لم أكن في مزاج رائق وقتها لأتبادل حديثًا مجنونًا مع ذاتي. كان عليّ الفكاك سريعًا من موت سريع؛ قد يكون رحيمًا على الرغم من إرعابه، إلى موت بطيء مثير للخيالات العقلية والاحتمالات الفظيعة الكفيلة بقتلي بالسكتة!

مرة أخرى يتدفق الأدرينالين في دمي. أرجو ألا تنتهي حصتي منه قبل أن أكتفي منه! أجاهد في الخلاص من تلكم اليد القابضة بإلحاح على رقبتي النحيلة. أنازعها بقوة. أجذب رقبتي للخلف. أثبّت قدميّ في الأرض الصخرية. كان النجاح حليفي في النهاية. انتزعتُ الذراع بالكامل من الجدار، مع دويٍّ هائل، وجزء من الجدار يتهدم بالفعل.

أسقط على ظهري. للمرة الثانية تنغرس الحصى الصغيرة في ظهري. نشوة النصر تجعلني لا أكترث. أُلقي باليد الملتفة حول رقبتي، بعد أن نزعتها بشقّ الأنفس، وكأنما الحياة قد دبّت في صاحبها!

الحياة تدبُّ في صاحبها؟!

ثمة احتمال آخر مخيف يجعلني أبتلع ريقي برهبة. كيف ليد كهذه أن تتحرك هكذا؟ قسوة المفاجأة جعلتني أهتم بالأولويات. أما وقد نجوتُ الآن من خطرها، فعليّ أن أجهز نفسي لاحتمال أخطر.

احتمال جعلني أغالب الألم المتراقص على جلد ظهري، وأنهض.

أنحني بحثًا بيديّ عن الهاتف الذي أتذكر جيدًا أنني وضعته في جيبي قبل السقوط. بحثتُ عنه مرة أخرى بأصابع مرتجفة؛ فلم أجده!

أرجوك. ليس الآن. أنا في أشدّ الحاجة إليك! عيناي على خيط الضوء القادم من بعيد، وأنا أنوي أن أتتبعه لعليّ أخرج من تلك العتمة المخيفة!

أسير مع الضوء، وأنا ألهث، وهنا لمحتُ ذلك الباب الذي ينتظر بصمت في ركن الممر الطويل. اقتربتُ منه في حذر، ثم ولجتُ إلى الداخل، حيث كانت تنتظر قاعة أخرى، أقل رحابة، وأكثر كآبة!

***

ثمة سؤال خطر لي، وأنا أتحرك ببطء في القاعة الثانية:

كيف تسني لأشخاص نحت تلك القاعات الصخرية بأسفل؟

كانت الجدران المربعة تنفي أن يكون هذا من فعل الطبيعة!

تحت الأرض؟ غريبة! جوّ السراديب، والأنفاق السرية مناسب أكثر للجوّ الغربي. ربما لو كانت ليلى معي الآن لأفادتني في هذا الموضوع بعلمها الغزير. لم أكن أتصور أنني سأجد لها فائدة حقيقية ذات يوم!

لفت نظري ذلك الصندوق. صندوق أسود مصنوع من خشب عتيق كما يبدو، وقد أحسستُ بأهميته فعلًا.

صوت غريب آخر ينبعث خلفي، أشبه بلهاث غاضب متألم!

هنا؟!

أكاد أشعر بوجوده خلفي، وهو يتحرك ببطء، محدقًّا بعينيه الحارقتين إلى ظهري. لو لديه قدرة حرقي بنيرانه لفعل! لكن من قال إن المصير الذي يعدني به هو أقل بشاعة؟!

أستدير ببطء، وكأني أمنح عقلي فرصة العثور على حلّ وسط ذلك التيه اللعين، وهناك رأيته يترنح، بذراع واحدة، بينما الدم يتدفق من مكان الذراع الأخرى التي جذبتها منذ دقائق!

يقول بصوت مرعب، متهدج، متقطع:

"اهربي!"

ثم انزلق كل شيء في هوّة عميقة، ولم يتبق إلا شيء واحد فقط؛ الخواء التام!

***

الفصل الثاني

أحدِّق إلى الوجه المحترق، والعينين البارزتين في جنون، وبعض الذباب يدور حول جروحه المتعفنة بإصرار! وكأنه لم يشعر بكل هذا، بل راح يجرُّ قدميه للأمام، وهو يمدّ ذراعه الأخرى المتبقية.

يكرّر:

"اهربي!"

أردد:

"أهرب إلى أين؟"

بدت في عينيه نظرة مخبول، وهو يتمتم:

"هذا المكان هو الجحيم! هذا المكان...."

يتوقف عن الحديث، وملامح وجهه المحترق تتقلص بألم!

أتراجع للخلف برهبة، وقد شلّني الرعب، والحيرة، والذهول. خليط من المشاعر انبثق فجأة بداخلي، وراح ينمو بسرعة عجيبة، فلو واصل تقدمه إليِّ، وقبض على عنقي مرة أخرى؛ فلن أنجو هذه المرة! أعرف هذا جيدًا.

لابد أن شخص ظلَّ هنا لفترة طويلة؛ ففقد عقله بطبيعة الحال! لو كنتُ مكانه لحدث لي نفس الشيء. هل هو صاحب تلك الرائحة المنبعثة بأعلى؟

في تلك اللحظة سقط على الأرض؛ فلم أتحرك من مكاني شبرًا واحدًا للأمام! مدّ ذراعه؛ هل يريد قتلي أم يريد أن أساعده؟ كان الموقف مخيفًا بالنسبة لي! أتعرض له لأول مرة في حياتي؛ لذا فقد آثرتُ السلامة. راح يلهث بقوة، وهو ينظر للسقف، وقلبي يخفق بقوة أكثر من سرعة تنفسه ذاتها، ثم راحت أنفاسه تبطيء، ثم تجمدت عيناه في نظرته المحدِّقة إلي أعلي!

ماذا سمع، وماذا رأي؟

أواجه الموت لأول مرة، ولم تكن مواجهة جيدة. ذلك السرّ الغامض الذي يحمله كل واحد منا لحظة مولده، يقبع في منطقة خفية مظلمة مع ساعة دقيقة جدًا، وعندما يحين الوقت يتحرك لأداء مهمته!

***

لساعتين كاملتين جلستُ مستندة للجدار أبكي بُحرقة. ألمّ حارق يشتعل بجنبيِّ، وقد بدأت آلام عجيبة تنبعث بجسدي، وكأن السقطة من أعلي بدأت تظهر آثارها أخيرًا!

لا يوجد تفسير منطقي يُفسّر ما حدث أمامي. أجدني أغرق ببطء في مستنقع طيني مُخادع. بدا لي الموت للحظة كرغبة مشتهاة لن أنالها!

أضع احتمالات مرعبة معقدة، كعادة العقل البشري في التهويل والتخويف!

نهضتُ متحاملةً على نفسي، ونفضتُ التراب-الذي لا أراه أساسًا، وإن كنت متأكدة من وجوده! - عن ثيابي في حركة عفوية لفتاة تعودت على الأناقة، ثم ابتسمتُ لنفسي ساخرة منها.

ما الذي أفعله؟

هنا أردتُ العودة لمكان سقوطي؛ فلم أفلح. إنه أشبه بتيه فعلًا. رفعتُ عقيرتي بالصياح:

"أبي! أبي! أبي!"

هل هي خطوة تأخرت كثيرًا؟!

رحتُ أصرخ بأسمائهم واحدًا واحدًا، لكن لا مجيب!

صوتي مبحوح، متعب، غريب النبرة، وكأنه ليس صوتي!

في القاعة الصغيرة أمكنني أن أري-لفرحتي وخوفي الغامض في ذات الوقت-بابًا حجريًا صغيرًا. غريبة!

رحتُ أدفع الباب بكلتا يديَّ بقوة، حتى انزاح ببطء، مُصدرًا صريرًا، مع ذات الرائحة التي شممتها منذ البداية، ولأني لم أشمُّ رائحة جثث من قبل، فلم يخطر ببالي ما سوف أراه.

الآن فقط، عرفت مصدر الرائحة الكريهة التي تزكم أنفي منذ أن سقطتُ هنا.

فأمام عينيّ غير المصدقتين-أنا التي كففتُ أن أندهش-تراصَّت أكوام من الجثث بشكل منتظم على الجدران. أجساد خلت من اللحم، وإن تبقت طبقة متغضنة على العظام من ثيابهم المهترئة عليها!

تقلصّت معدتي على الرغم مني، ووجدتُ نفسي أنتحي جانبًا، وأُفرغ ما في جوفي، ربما لأول مرة في حياتي. ودون أن أدري انخرطتُ في نوبة هستيرية أخرى من البكاء. لا أعرف السبب تحديدًا؛ هل هو منظر الجثث المؤسف والوحشيّ، أم هو خوف عارم من النهاية السوداء التي تنتظرني في مكان كهذا؟!

وهنا، سمعتُ تلك الخطوات البطيئة الواثقة!

***

في البداية لم أر إلا ظلّا. مجرد ظلّ ينسحب على الحائط، مقترنًا بالخطوات الثقيلة التي تسير براحتها لو جاز التعبير. قلبي يعود لخفقانه من جديد. هناك شخص آخر هنا. شخص يعيش بطريقة ما، ويقضي وقت فراغه في صفّ الجثث، والقضاء على تعيسي الحظّ-مثلي-، وجذبهم لغرفة كئيبة كالحة، والتي هي عبارة عن مقبرة هائلة!

هل كان ذو الوجه المحترق أحد ضحاياه؟ هل كان يقصد أن أهرب من ذلك الشخص الغامض؟

لم أعرف إلى أين أذهب، أو كيف أختبئ. نظرتُ حولي بيأس وقنوط، وسألتُ نفسي:

" مما أهرب؟"

لعلّ الموت أهون مما أنا فيه. أجلس على الأرض، أنتظر قدومه. ولم يدعني أنتظر كثيرًا؛ فالشكر له إذن!

ضخم الجثة. يحمل مشعلًا، راحت نيرانه تتراقص، مما أكدّ بأن ثمة تيار هواء هنا. المخيف هنا ليس ضخامته، أو مشعله، أو المكان المجهول الذي قدم منه أسفل البئر، أو حتى كيف يعيش!

المخيف ذلكم القناع القاني الكالح الذي يضعه على وجهه؛ فلا يبرز منه إلا عينيه الواسعتين الداكنتين تحت ظلال نار المشعل، وفمه الذي تبرز منه أسنان حادة متسخة. كان يخرج لسانًا أحمر مُشعرًا، وهو يحركه بطريقة دائرية مقززة، ثم....

كيف يعيش حقًا في مكان مُغلق هكذا؟

وثبت صورة الجثث المترّاصة بعناية على الجدران، بشكل ما يُشبه الإجابة.

الإجابة التي جعلت الدم يتجمّد في عروقي، وشعر رأسي ينتصب مرة أخرى. أنظر بطرف عيني، فأجد ذلك الباب المنزوي الذي لم أنتبه له. باب يناديني بصمت: انهضي يا حمقاء. انهضي!

الأبواب كثيرة، يقود كل منها لخيار مختلف، واحتمالية مختلفة!

أقف بسرعة، أنزلق ناحية اليسار، قبل أن يطُبق السفاح بيديه عليَّ. لم أعرف من أين أتت تلك القوة التي جعلت الباب ينفتح دون مقاومة!

أجري في نفق طويل ضيّق، بدا كما لو أنه بدون نهاية. أجري بدون هدي، والخواطر المفزعة تزدحم-كأزيز النحل-في عقلي!

آكل لحوم البشر! يا لي من محظوظة! الآن فهمت كيف كان يعيش. تُعساء الحظّ من أوقعهم مصيرهم الأسود بين يديه لم تُتح لهم فرصة الدهشة أو الحيرة أو التفاعل الإيجابي.

فقط البلاهة التامة التي جعلت موتهم سهلًا!

كيف نجا ذلك التعس صاحب الوجه المحترق من قبضته إذن؟ ربما هو مثله!

أبي العزيز: أي مكان ملعون قدمت بنا إليه؟

لهذا كان البيت "لُقطة" بثمنه الرخيص، ووالدي-كالغرّ-وقع في الفخّ!

بيت بهذه السمعة السيئة، لابد أن يُباع لأول أحمق! للأسف كان والدي!

النفق لا يريد أن ينتهي. لا يريد أن يفاجئني بالنجاة في آخره. لكن هناك مفاجأة أخرى تنتظرني؛ فمن ممر جانبي برز السفّاح، وهو يزوم!

يرفع ذراعيه مقتربًا مني.

هنا أطلقتُ صرخة عالية، أُحطِّم بها خوفي المتزايد، وأركله من بين ساقيه. هكذا كنتُ أري الفتيات تفعل في الأفلام الأجنبية! لم يصرخ، ولم يبدُ أن قد تأثر أصلًا!

طبعًا، وحش هكذا، يقضي أوقات فراغه في نزع اللحم البشري عن العظام، لابد أن حركة كهذه أشبه بالـ "زغزغة" بالنسبة له!

أدفعه بيدي فلا يتزحزح قدر أنملة. أرمقه بيأس، ولا أجد سوي تصرف واحد مُجدٍ: مواصلة الهروب!

لكن إلى أين؟

الوغد يسدّ الطريق أمامي، وكأنه يُجبرني على أن أعود من حيث أتيت. مضطرة-للأسف-أن أستدير عائدة بالفعل، وأنا أرمقه بنظرة نارية، لكن لماذا يريد عودتي؟ من أجل أن يأكل وجبته بمزاج طبعًا!

أعود وفي نيتي المقاومة. لن أكون فريسة سهلة. ليس بعد الأهوال التي عاينتها وعانيتُ بسببها سأترك نفسي لقمةً سائغةً له!

في القاعة فوجئتُ بمشعلين يُحيلان المكان لنهار، وهنا عرفتُ مصدر الضوء القادم من بعيد! يبدو أنه يعدّ العدة لولائمه بشكل جيد! أمسكتُ بواحد منهما. كان ثقيلًا لدرجة أن ذراعي قد أنَّ تحت وطأته. أسمع وقع خطواته من بعيد. أتراجع ملتصقة بالجدار.

أنتظر، متجاهلة ذلك الشيء الصغير الذي يعبث بظهري ناحية الجدار. مكان هكذا متوقع أن يكون فيه هوامّ. لكن الأمر زاد إلى حد مزعج. أسلّط المشعل على الجدار؛ لأصعق مما رأيت!

في البداية كانت نملة. نملة ضخمة ذات لون أحمر. كانت المرة الأولي التي أري فيها نملًا أحمر، وبأمانة لم أكن أعرف أنه يوجد في الأصل. ولو عرفتُ لألقيتُ نفسي تحت قدميّ آكل لحوم البشر هذا ورجوته بضراعة أن يقتلني، وليأكلني هنيئًا مريئًا!

الجهل نعمة فعلًا!

النملة الحمراء تبعتها أختها، ثم بدأن ينزلقن من شقوق الجدران. أعداد هائلة. جحافل مرعبة أثارت القُشعريرة في جسدي، وجعلتني أحاول السيطرة على اشمئزازي. أتراجع للخلف بحذر، لأجد نفسي بين يدين قويتين تحتوياني بغلظة.

إنه هو!

لم أجد أمامي سوي أن أدفن المشعل في وجهه المُقنّع ورقبته. راح يزمجر ويصرخ بشكل مكتوم، وهو يتركني أسقط أرضاً، بينما

يضع يديه على وجهه، ليطمئن على قناعه فيما يبدو، ثم شرع في تدليك جلد عنقه الثخين!

هنا وجدتها فرصة لكي أواصل هجومي غير الرحيم. نهضتُ بسرعة، ودفعتُ بالمشعل-الذي لا يريد أن ينطفئ لحسن حظي-في ذراعيه، فصرخ أكثر، وراح يتخبط في جُدران القاعة ذات النتوءات الحادة، ثم هوي أرضًا، وسكن جسده للحظات!

هنا أقدمت جحافل النمل على فعل غريب غير متوقع بالمرة:

لقد أحاطت بجثة صاحب الذراع المقطوعة، والذي يرقد في سكون، وأحاطتْ به بشكل كامل، ثم راحت تلتهم لحمه! أبعدتُ وجهي، وقد عرفتُ من الذي أكل لحم الجثث، وأبقي فقط على هياكلهم العظمية نظيفة برَّاقة!

انقبضت معدتي بقوة، وأدركتُ أنني لن أقدر على الصمود للحظة واحدة هنا. لابد من الخروج الفوري.

اتجهتُ للباب الذي هربتُ منه منذ قليل، قبل أن يجبرني العملاق الغامض على العودة، وعبرتُ الباب بسرعة، كأني أهرب من ميتة شنيعة تنتظرني، ثم بدأ صوت-يشبه أزيز النحل-يقتحم مركز السمع عندي بشكل مباغت!

وهنا-وفي لحظة واحدة-وجدتُ نفسي راقدة علي سور البئر؛ نصفي العلوي يتدلى لداخل البئر، بينما نصفي السفلي يتشبث بأرض

القبو، وقدماي تضغطان بقوة على جدار البئر، وكأنهما تقاومان؛ بقصد أن تمنعاني من السقوط!

ألهث بقوة! لم يكن هذا هو المرعب في الأمر حقًا؛ بل كان ضوء القبو الشاحب الذي كان يصلني من المصباح المعلق بالسقف، والذي أمكنني رؤيته من خلال بصري الزائغ المتراقص! أحاول النهوض مستندة لسور البئر، وكنتُ أعرف أن ثمة تعبير فظيع بالغباء يرتسم على وجهي في تلك اللحظة!

أنظر حولي باحثة عما كان يثير رعبي منذ لحظات؛ فلم أجد شيئًا! كل شيء طبيعي ومتناسق مع العالم الواقعي المألوف الذي أعرفه!

أضع يديِّ في جيبيَّ بحركة تلقائية؛ فأري وألمس القماش الناعم، وهاتفي المحمول يرقد في القاع بصمت!

لا نمل أحمر، لا جثث متراصة بهياكلها العظمية، لا عملاق غاضب يطاردني بإصرار عجيب، ولا توجد ممرات حلزونية متشابكة تقود للمجهول!

لا شيء من هذا كله؛ فقط أنا، وجنوني!

***

الفصل الثالث

كما هو متوقع لم أنم في تلك الليلة؛ فقد وضعتُ كرسيًا أمام المرآة العتيقة، ورحتُ أتأمل ملامح وجهي. هل هذه ملامح فتاة توشك على أن تفقد عقلها؟! غاضت النضارة من وجهي، وبدأت تغزوه هالات رمادية أذهبتْ جمالي! طبعًا كان من السخف أني أحكي لهم ما حدث. سيبرز لي وجه أبي الغاضب، وعروق وجهه تكاد تنفجر بالدم:

"أخبرتكِ ألا تذهبي للقبو! لقد فعلتها، وخالفتِ أوامري!"

ستقول أمي وهي تمصمص شفتيها متصعبة:

"هذه الفتاة تريد أن تلقي حتفها بتهورها!"

ستُصفِّر ليلى بانبهار:

"لم أكن أعلم أنكِ تملكين خيالًا رائعًا!"

أما أحمد فسيستمع لما يُقال، ويكون ردّه مجرد هزّة من كتفيه النحيلين؛ بمعني أن ما يسمعه هو الهراء بعينه!

برغم أن المشهد حدث في عقلي فقط؛ إلا أن الغيظ ركبني، وأدلي قدميه على كتفيَّ، وأنا أسبّهم وأشتمهم على تراخيهم وعدم تصديقهم لي!

لكن بعد مرور ساعة تقريبًا راح الدم يهدأ، وبدأ العقل يرتدي قلنسوة الحكمة؛ فإذا كنتُ لا أصدِّق نفسي فكيف أطالب أهلي أن يفعلوا المثل؟!

***

في اليوم التالي، وتحت ضوء النهار الساطع بدأت تفاصيل الليلة السابقة تذوب كقالب من الزبد! بدت لي تفاصيل النمل الأحمر، والعملاق الغاضب، وصاحب الذراع المقطوعة أشبه بتفاصيل ضبابية، قادمة من مدينة أسطورية غامضة لا توجد إلا في الظلمة، راحت تتلاشي تحت سطوة الواقع المعاش!

خطر لي أن البيت يحتوي على هواء فاسد عظيم الفعالية يتفوق على أي مخدر هلوسة معروف؛ لذا فقد كان من الطبيعي أن أري ما رأيته، أو ما تخيلت أني رأيته!

أجلس وأنا أدير ملعقتي في الطبق بصمت، بينما ليلى لا تكفّ عن ثرثرتها كالمعتاد، وكلها رضا عن العالم الذي تعيش فيه! خطر لي لو أنها تعرضتْ لما رأيته فربما خرست قليلًا، أو ربما زاد جنونها وانطلاقها! هذا الأمر بالنسبة لها سيشكل لها معينًا لا ينضب من المتعة!

أعرف هذا جيدًا.

"مالك؟"

سألتني أمي، وهي تقدم لي قدح القهوة التركية التي أحبها.

أغمغم:

"مالي؟"

جلستْ بجواري:

"كنتُ أتوقع أن تبدي تأففًا من المكان كعادتك!"

قلت بشرود، وأنا أرمق ضوء النهار الذي حوَّل خيالاتي لشيء سخيف لا يجوز حكيه:

"المكان صار نظيفًا الآن"

أشارتْ إلى أنفها:

"ما عدا هذه الرائحة!"

بدأتُ أنتبه، وأنا أدير عينيَّ إليها:

"أي رائحة؟"

يبدو أن ردّ فعلي قد سرَّها؛ فقالت بحماس:

"هذه الرائحة الكريهة! ألا تشمينها؟"

قلتُ بحذر، حتى لا أنزلق في فخّ ستصنعه حماقاتي:

"المفروض أن معطِّر الجو قد قضي على أي رائحة مقيتة هنا! أليس كذلك؟"

وجهَّتْ بصرها للقبو، الماثل أمامنا كشبح غامض مسربل بالغموض:

"لا أعرف! شيء ما في قلبي يحذرني من هذا المكان!"

قلت لها بضيق:

"تقولين هذا الآن! لقد كنتِ تتغزلين فيه بقصائد شعر!"

لوحَّتْ بكفيها، وقالت وهي تنهض متجهة إلى المطبخ:

"إني أخبرك بشعوري فقط! ألا يجوز للمرء أن يفضفض معكِ؟!"

كدتُ أطلق" لا" صريحة، لكني لم أفعل، والتزمتُ الصمت.

أجلس في مكاني دون أن أتحرك. إلى أين؟ المكان بالخارج لا يشجِّع على الخروج، وأصدقائي لم يعرف أحدهم بشيء مما حدث، ولستُ على استعداد لأن أتحدث في الأساس. أرقب ما حولي، وأشعة الشمس تنسحب، والوقت المراوغ يتحرك بسرعة غريبة، ويبدو أن زخْم الأفكار في ذهني جعلني أغرق حرفيًا فيها؛ فلم أنتبه إلا وليلى قادمة نحوي.

كانت منتعشة كعادتها، وإن بدا وجهها مشرقًا أكثر. من أي نبع فيَّاض تغترف تلك المحظوظة؟

"خيرًا!"

" لم تتحركي من مكانك!"

"إلى أين أذهب؟"

قالت بحماس:

"هل تمزحين؟ المكان ساحر بالفعل!"

قلتُ وأنا أقاوم رغبة عميقة في لكمها في وجهها الوضَّاء:

"المكان جميل بالخارج فعلًا. أنتِ لم تمريّ بمقلب القمامة الضخم أثناء خروجك ودخولك؟"

هزَّتْ رأسها:

"يقول الشاعر: كن جميلًا تري الوجود جميلًا. المسألة نسبية يا شقيقتي العزيزة!"

أنظر من النافذة، وكان من العبث أن أتحدث عنه.

عن قدوم الليل!

وما تخافه يأتي بسرعة، مرتديًا عباءته، يستغل خوفك والعتمة، ويهمس بكلماته المرعبة في أذنك؛ تحاول الهروب بلا جدوى، تدرك أنك واقع في قبضته!

ومع الليل يتولد الفضول من جديد، يُبعث-كعنقاء-من الرماد، وتبدأ تفاصيل الأمس الغابر في التشكل والعودة بقوة، تتخذ ألوانها الساطعة كما كانت، ينجلي الضباب عنها؛ فيبرز كينونتها التي تتحدي الوهم!

في فراشي لم يزرني النوم في تلك الليلة، وجميلٌ لو فعل، لكنه لم يفعل! أنهض. فيما بعد قرأتُ عن الندَّاهة التي تنادي ضحاياها. تصبُّ السحر المذاب في آذانهم، يتركون أهاليهم وعوالمهم من أجل نداء واحد فقط!

بشكل أو بآخر فعلتها البئر في تلك الليلة. أحرص ألا يراني أحد. سندريلا من جديد، لكنها تمتاز بالمعرفة تلك المرة!

أنظر للبئر برهبة. أتجاهل ظلي المنبسط على الأرض؛ فأمامي ما هو مخيف كفاية.

لكن ظلًا آخر بدأتُ ألمحُ وجوده بجواري!

***

الفصل الرابع

التفتُّ بسرعة؛ لأجد نفسي أحدِّق إلي وجه أمي بغباء!

"كنتُ أعرف أنكِ ستتجاهلين أوامر والدك!"

حاولتُ النطق. ازدردتُ كلمة أو اثنتين في حلقي دون قدرة حقيقية على إخراجها إلى حيز الوجود. في الدقائق التالية كنتُ في حجرتي الجديدة، نظرات أبي المضطرمة بالغيظ تكاد تجبرني أن أحفر لنفسي قبرًا، وأدفن نفسي حية! من حسن الحظ أن المكان مناسب جدًا لتحقيق ذلك!

نظرتُ لأمي في عتاب صامت؛ إذ أنها لم تنتظر حتى الصباح لتخبرهم بالأمر!

"هذا المكان ملعون؛ فلنتركه!"

أرددها، وأنا أكاد أبكي حسرة بأعماقي؛ فلا أجد كلمات تسعفني على وصف ما رأيته! سأشعر بالخجل من نفسي؛ سأنظر إليها من الخارج، وأنا أسمع ما أقوله! لن أكون مقنعة أبدًا؛ إذ أنني لستُ مقتنعة أصلًا إذا كان ما رأيته حقًا، أم أنها تهويمات متخيلة بالفعل!

أحمد يرتدي منامته، وبدا عجيبًا وهو يعبث بجهاز الآيباد، ويبدو أنها عادته الأبدية التي لن يحرمه منها إلا الموت!

ليلى تجلس، وهي تدعك عينيها متثاءبة! لو أمكن لها أن تأتي معي؛ فسوف تُجنّ فرحًا!

أبي يقف على الباب، ينظر في ساعته، ولسان حاله يقول بأن ليس لديه وقت لمثل هذه الترهات؛ فأنا لم أردد سوي تلك الجملة العجيبة دون أوضِّح! كميتا غبار وبرودة موحشة موجودتين في ذلك المكان اللعين! فهل تشعر بذلك يا أبي؟!

إنه يعتبرني فتاة مدللة، وهو ليس مستعدًا لقضاء وقت زائد في هذا الجحيم!

ثم لابد أنه يشعر بانتشاء، وهو يقول لنفسه" الحمقاء! لقد حذرتها ولم تسمع الكلام؛ فلتدفع الثمن إذن!"

صدق حدسي؛ فقد انصرف بعد أن هزّ رأسه، فرددتها بواحدة أخرى باردة، وكأني أعاقبه بطريقتي على جلبنا لهذا المكان!

طبعًا لن ينفع بأي حال من الأحوال أن أتحدث عما حدث، وإلا صفة مجنونة ستكون جاهزة لُتلصق بشخصي. لأكن حذرة. ثمة شيء غير طبيعي يحدث، ولابد أن أفهمه. كنت هناك، بأسفل البئر اللعينة، أصارع أشكال الموت، متمثلة في: ذلك الرجل ذي الوجه المحترق، النمل الأحمر، آكل لحوم البشر؛ ذي القناع القاني، والعينين الداكنتين!

انتشلتُ نفسي من مستنقع التفكير، وأغمضتُ عينيَّ لكي أنام.

شيئًا فشيئًا-لحسن حظي-راح الجميع ينسّل واحدًا بعد الآخر. فقط ظلّت أمي بجواري، تكاد تغفو على المقعد بجوار فراشي، وهي تحدِّق إلى وجهي لحظات، قبل أن ينغلق جفناها ببطء. لولا بقية من حياء لطلبتُ منها أن تغادر، وكأني أعاقبها هي الأخرى على وشايتها بي! بعد قليل قامت وهي تتثاءب.

بعد ساعة تقريبًا، من نومي المتقطع، وبعد كوابيس عديدة رأيتها في منامي، بشأن ما رأيته، أو ما ظننتُ أنني قد رأيته، بدأت أشعر بنوع من الذبذبة والحيرة. كنتُ أعبث بهاتفي المحمول، والخواطر تهاجمني بشراسة تفوق شراسة النمل الأحمر ذاته!

هل يمكن أن يكون كل ما رأيته مجرد هلوسة؟!

في لحظة كنت هنا، وفي لحظة أخرى كنتُ هناك، ثم عدتُ مُحملّة بحمل ثقيل من التفاصيل، لكنني-برغم طيشي الذي أقرّ به-لستُ مدمنة لأي نوع من المخدرات!

حتى الأسبرين لا آخذه!

هل يكون البيت-مثلًا-مُعبّقًا بمركب ما ينتشر في الهواء، ويسبب تلك الهلوسة؟!

لماذا إذن كنتُ الوحيدة التي أصيبت به؟

من المفترض أن أجذب الغطاء، وأنزلق في هوة النوم، وإن لم يحدث؛ فسأدفع نفسي دفعًا على حافته، لكني لم أفعل. أثب على الأرضية حافية تلك المرة، وأنا أجرى نحو النافذة، وقد كان غيظي وضيقي من الغموض المحيط بما يحدث لي سببًا في إزاحة أي مشاعر أخرى متعلقة بالخوف والرهبة! أفتح النافذة بتهوّر، وكأني أريد لشيء ما أن يحدث. أن يشعرني بأن عقلي على ما يرام!

لا شيء. السكون، مع موجة هواء باردة حرّكتْ خصلات شعري. أخذتُ نفسًا عميقًا، ولم يكن الهواء نقيًا جدًا للأسف. أغلق النافذة، وبدلًا من أتجه لفراشي، غيرّتُ طريقي للصالة.

كان الوقت يقترب من الفجر. سكون تام. لو كان لشيء أن يحدث فليحدث الآن؛ فكل الظروف مهيأة لحدوثه!

ابتسمتُ في سخرية من نفسي؛ ما الذي أفعله بالضبط؟

في تلك اللحظة سمعتُ نهنهة!

نهنهة تشبه البكاء المكتوم، وكأن صاحبها يصارع الموت، ولا يريد الذهاب معه! أنظر حولي بتوتر، وقد انتصبت أذناي، وبدأ الأدرينالين إياه يضخّ نفسه ببطء. حاولتُ تحديد المصدر؛ فوجدتها تأتي من حجرة أبي.

غريبة!

رحتُ أصارع نفسي أنا الأخرى؛ إن كان من المفترض أن أقترب وأعرف، أم أبتعد وأنعم بنعمة الجهل! في ظرف آخر كنت سأتجاهل الأمر، وأستمتع بنوم عميق، لكن بما أن النوم جافاني، فلا بأس من استقصاء الأمر. اتجهتُ بخطوات حذرة كقطّ مشدود متوتر للحجرة، ووضعتُ أذنيَّ على الباب، وهنا سمعتُ بوضوح أبي وهو يقول بصوت مكتوم متضرع:

"لم أر في الظلام! لم أر في الظلام!"

عم يتحدث أبي بالضبط؟ أنظر من ثقب الباب؛ لأجد أبي نائم على ظهره، والعرق يتصبب على وجهه، وأمي تضع منشفة مبللة بالماء على وجهه، وهي تقول بصوت مفزوع منخفض:

"كمال! استيقظ يا كمال!"

بدا للحظات أنه لن يفيق. الأمر فوق طاقة جسمه على الاستجابة. لكنه فعلها أخيرًا بعد دقيقة أو دقيقتين. فتح عينيه، وتأمل وجه أمي بذعر، ثم بدأتْ أنفاسه تهدأ وتنتظم.

"ماذا حدث؟"

سألها بصوت مرتجف، وكأنه يخشى إجابة معينة، أتت فورًا كرصاصة مسددة في رأسه:

"لقد عدت تهذي من جديد يا كمال!"

بدت نظرة ذعر جليّة على وجهه. أرجع رأسه للخلف. أغمض عينيه. ما السرّ الذي تخفيه يا أبي؟

***

في اليوم التالي كنتُ قد اتخذتُ قراري. استيقظتُ من نومي متأخرة بطبيعة الحال، وصداع كاسح يكاد يدمرني من الداخل. ارتديتُ ملابس الخروج، ولم أخبر أحدًا عن وجهتي. كان اليوم حارًّا. ذرات الهواء المختنقة بالدخان والتراب تتسلل إلى أنفي. سبب آخر يجعلني أعجّل بالهروب من ذلك المكان.

رمقتُ السائق الذي يتمخّط في منديله الورقي، والعرق يتصبب على جلد وجهه الأسمر، ويبدو أن الاشمئزاز كان باديًا عليّ بوضوح، فقال بضيق:

"هل هناك شيء يا أستاذة؟"

سارعتُ باستجلاب ابتسامة مهذبة، وألصقتها على شفتيّ، وقلت بسرعة من تتمني أن ينتهي هذا المشوار فورًا:

" سلامتك يا أسطى، سلامتك"

نظر لي بتشككٍ من لم يقتنع، فأوليتُ وجهي للنافذة، أنظر للمارّة. شيئًا فشيئاً بدأنا نخرج من الزحام، وندخل منطقة راقية؛ تلك التي توجد فيها شركة أبي.

فتحتُ زجاج النافذة، وأخذتُ نفسًا عميقًا. السائق يواصل نظراته المتشككة، كمن يُقّل مجنونة في سيارته، لكني لم أكترث. أتوق لمنزلنا في الدقي، وللقوارب الصغيرة، وهي تتنقل على صفحة النيل.

قلبي ينقبض لمجرد التفكير في منزلنا الجديد. برغم الإضاءة الجيدة فيه، إلا أنني أشعر بوجود مناطق مظلمة، تثير المشاعر، وتدفع المرء لأن يفكر في أشياء مخيفة!

دقائق، وكنتُ أرتقي الدرج، متجاهلة المصعد على غير عادتي، لكن ما حدث في البئر جعلني أكره الأماكن المغلقة، أو ما لم يحدث! نظر لي السكرتير بتساؤل. كانت هذه هي المرة الأولي في حياتي التي أزور فيها والدي في عمله.

بالنسبة لنا كان هو وعمله وشركته كالمجهول سواء بسواء!

لكن الحقيقة أنني لم أكن مهتمة بالمعرفة!

أوضحتُ عن هُويتي للسكرتير؛ فبدا عليه الاهتمام. نهض من خلف مكتبه وغاب للحظات، ثم عاد ليدعوني للدخول بابتسامة مرحِّبة، وقبل أن أدخل كان باب المكتب ينفتح ويظهر على عتبته أبي، والقلق ينهش وجهه.

"هل أمك وأخوتك بخير؟"

قالها بفزع؛ مما جعلني أستجلب الابتسامة إياها:

"إنهم بخير يا أبي. بخير. لا تقلق"

هدأ قليلًا. جلس خلف مكتبه، ودعاني للجلوس بإشارة من يده. طلب لنا كوبين من عصير الليمون المُثلّج، ثم قال:

"إنها المرة الأولي التي تزوريني فيها هنا!"

فركتُ يديّ، وقلتُ:

"لابد أن توجد مرة أولي لكل شيء"

هناك نظرة غير مريحة في عينيه، كمن يتوجس مني شرًّا؛ مما جعلني أحسم ترددي:

"لابد أن نغادر هذا المنزل الملعون فورًا!"

بدوتُ كمن سكت دهرًا، ونطق كفرًا! النظرة إياها تحولت إلى طبقة خفيفة حمراء راحت تتكون في مقلتيه.

أكره هذا الرجل الذي يتحول إليه. أشعر بأن ثمة فراغًا موحشًا خلف تلك الشخصية التي نأكل ونشرب وننام معها تحت سقف واحد!

نعم هو أبي. لكنني أخافه. أخافه بشدة!

كنتُ أتوقع توبيخًا، لكنه لم ينطق بحرف. قال بلهجة هادئة على غير المتوقع:

"وما الذي لا يعجبك في المنزل؟"

قلت بسرعة:

"وما الذي يعجبني أصلًا؟"

تمتم:

"إنه القبو! أليس كذلك؟ أليس هذا ما كنت تهذين به بالأمس؟"

كدتُ أخبره أنه هو من كان يهذي، لكني أمسكتُ لساني، وأنا أبعد ذهني عن الحديث معه في تلك النقطة تحديدًا، وبدلًا من هذا قلتُ بتلقائية:

"أنت لم تر ما رأيته!"

كانت زلَّة لسان مني. عضضتُ لساني بقوة، وأنا أتمنى أن أعود بالزمن للوراء لثانية فقط، حتى لا أرتكب هذه الغلطة. ابتسم، وقبل أن يتكلم، طُرق الباب، ودخل الساعي يحمل العصير. وضع واحدًا أمامه، والآخر أمامي.

ارتشف أبي رشفات بطيئة، كمن يملك الوقت كله، بينما أنا أغلي من التوتر والقلق. الوضع معكوس هنا. أعترف بهذا. ثم أتي السؤال الذي كنت أتوقعه بعد تهوري:

"وما الذي رأيته يا سلمى؟ احكي لي"

ترددتُ، لكنه كان مهتمًا حقيقة بما لديَّ، أو هذا ما بدا لي؛ مما جعلني أتكلم. استغرقتْ حكايتي عشر دقائق تقريبًا، أنصت لي فيها بكل كيانه. توقعتُ أنه سيقفز موافقًا على رأيي في مغادرة المنزل، والبحث عن آخر. لكنه لم يفعل. كل ما قاله:

"لم تشربي العصير!"

نظرتُ إليه بدهشة. تحت إلحاح نظراته رحتُ أرتشف الليمون بشرود. في ظروف أخرى كنت سأشيد بمذاقه الرائع، لكن في تلك اللحظة كان طعم المرارة هو الوحيد!

ثم قال ما ضاعف ذلك المذاق المؤلم:

"تخيلات!"

هذا ما فُتح به عليه. كلمة واحدة جعلتني أضع الكوب الزجاجي على سطح المكتب في غيظ:

"تخيلات! تقول تخيلات؟!"

"أعرف أنك كارهة لفكرة الانتقال؛ لأنها ستحرمك من المستوي الاجتماعي الرفيع الذي كنا فيه"

قلت باستنكار:

"هل سأختلق كل هذا لمجرد الخروج من هذا المنزل؟"

هزّ رأسه:

"لا أستبعد هذا!"

فكرتُ في ردّ قوي، جارح. لكني لم أجد واحدًا. كدتُ أنزلق في هاوية غضبي، وأتحدث عما جري بالأمس؛ من هذيانه العجيب، وذلك السرّ الذي يحمله بين ضلوعه، لكني وجدتُ أن اعترافًا واحدًا يكفي لكل مرة! رفعتُ رأسي عندما قال بصوت هادئ:

"لا يوجد إلا حلّ واحد من أجل أن تغادر تلك الصراصير عقلك!"

***

دخل أحمد القبو، فوجدنا جميعًا، نقف بالقرب من رجلين يثبتان قائمًا معدنيًا في الأرض. بدا أن الأمر قد لفت انتباهه على غير العادة. وقف بجوار أبي ينظر ماذا يحدث. ألقي أبي نظرة ضيق عليه، وهمّ أن يسأله-كعادته-أين ذهب، لكنه وجد أن الظرف لا يحتمل هذا الآن.

عليه أن يثبت أنني مجنونة، ثم يلتفت لسفاسف الأمور!

انتهي الرجلان من تثبيت القائم المعدني في الأرض الصخرية، وصنعا سُلّمًا من الحبال، وأدلياه، ثم هبطا.

وضعتُ يدي على قلبي. ساعة الحقيقة كما يقولون. لكن ساعة الحقيقة لم تستغرق دقيقة في الواقع. فسرعان ما تعالي صوت أحد الرجلين:

"لقد وصلنا القاع؛ إنه يبعد ثلاثة أمتار تقريبًا! إنه جاف كما هو متوقع"

ابتسامة شامتة على وجه أبي. لستُ عدوتك يا والدي العزيز. قليلٌ من التعاطف لن يضرّ. قليلٌ من التعاطف من فضلك. وكأنما يريد تأكيد جنوني؛ فمال نحو البئر، وهتف:

"هل أنتما واثقان؟"

"يمكنك أن تنزل يا أستاذ كمال حتى تتأكد بنفسك، وإن كنا لا ننصحك بهذا. صحيح أن قاع البئر جافة، لكنها ضيّقة؛ بشكل قد يجعل ملابسك تتسخ، بالإضافة إلى الرائحة الكريهة!"

"ألا توجد قاعات، أو جثث، أو ممرات حلزونية؟!"

إنه مصر على إحراجي، وإلصاق تهمة الجنون بي!

شقيقي أحمد يبتسم، فصرختُ في وجهه:

"لمَ تبتسم يا أحمق؟"

كان توتري يروق لأبي، فقد قال بصوتٍ عالٍ:

"شكرًا يا رجال. يمكنكما الخروج. لكن اتركا السّلم. هناك من سيرغب بالهبوط والتأكد من سلامة عقله!"

***

بعد مغادرة الجميع، أمارس عادة جديدة: البكاء!

يزيد مقتي لهذه العائلة، التي لا تواسيني أو تشعر بأحزاني، أو حتى تقف بجواري ولو من وراء قلوبهم!

أبكي بُحرقة، لكن الدموع لا تنزل بسهولة. يبدو أن الأمر يحتاج لتمرينات متعددة حتى يؤتي ثماره. صديقتي جيهان دمعتها قريبة كما يقولون. يكفي موقف واحد بسيط ومؤثر لكي تنفجر ينابيع عينيها!

إنها قدرة مدهشة في الواقع. قدرة تُثير حسد الحاسدين! ألعن البئر في سرّي، وألعن غبائي الذي جعلني أذهب لأبي. نظرتُ بغيظ للبئر. شعرتُ برغبة عارمة أن أخالف تصوّر أبي بأني سأنزل للقاع من أجل أن أتأكد من أوهامي وتخيّلاتي.

حاولتُ فعلًا، لكن الأمر كان أكبر من قدرتي على التحمّل. وضعتُ يديَّ على سور البئر القصير، ونزلتُ بحذر. كان القاع فعلًا قريبًا. ضيّق كقبر. وقفتُ، وأنا حائرة، وبدأتُ أقتنع جديًّا بأن عقلي اللامع بدأت تتسرب إليه خيالات الجنون!

لكني أتذكر ما حدث جيدًا. تفاصيل دقيقة؛ لها طعم ولون ورائحة، وثقل كابوسيٍّ، ما زال يجثم على أنفاسي حتى الآن.

مددتُ يديَّ بيأس إلى السلم استعدادًا للصعود. هذا جيد. البيت ليس ملعونًا إذن، لكن على الجانب الآخر فهذه بوادر هوس! لا أعرف بأيّ الأمرين أفرح أكثر، أو تزداد كآبتي؟

ما كادت يداي تلمسان السُلَّم، المصنوع من الحبال، حتى دارت بي الدنيا، ووجدتُ نفسي أهوي، وأزيز النحل المعتاد يعلو هذه المرة!

وعندما استيقظتُ وجدتُ جسدي راقدًا على أرض القاع، وأمامي القاعة الصغرى، بينما صوت العملاق يخفت في ألم!

***

الفصل الخامس

عظيم! لقد عدت!

أيّ شيء كان متوقعًا، إلا أن أحدِّق حولي ببلاهة ثم أنفجر ضاحكة!

مرة أخرى لعبة الاحتمالات تبرز بقرنيها: فإما أنني أتخيّل ما أراه أمامي؛ وهذا يعني أنني في مرحلة متقدمة من الجنون، أو أنني بطريقة ما قد انتقلتُ إلى ذلك المكان الغامض!

كان عليَّ أن أتجاوز مرحلة: حقيقة ما يحدث، ولماذا يحدث، وكيف يحدث، ولماذا أنا بالذات؟

كلها أسئلة تتسمّ بالترف الشديد في ظلّ الظروف العصيبة التي أتعرض لها. على الفور، قررتُ أن أغادر المكان. أمسك بالمشعل، قبل أن أنطلق عبر الباب الحجري، نظرتُ إلى أعلي؛ إلى قمة البئر؛ فلم ألمح شيئًا. واضح جدًا أن القاع الذي أقف عليه الآن مختلف تمامًا عن القاع الذي كنتُ أقف عليه منذ لحظات. لكن هل هي لحظات فعلًا؟

الزمن المخادع يراوغني. اندفعتُ في الممر، راكضَة، من جنوني وهلاوسي ومخاوفي. أعدو دون توقف. تنقطع أنفاسي. المشعل تتموج ناره أمام وجهي فتكاد تحرقني!

ثم وجدتُ نفسي في نهاية الممر الـ... المغلق!

أتوقف مبهورة، مصدومة، وقد جثوتُ على ركبتيَّ من التعب. شهيقي وزفيري يتسارعان؛ بركضي المتواصل دون توقف. هل تكون هذه نهاية قصتي؟ نهاية سخيفة غير متوقعة. ممّر مُغلق فحسب!

ثم سمعتُ خطوات قادمة من بعيد. خطوات مترنحة، متهالكة، يجرُّ صاحبها قدميه بصعوبة.

إنه هو! من أول الممرّ ألمح ظلّه الضخم، الذي لا يبتعد كثيرًا عن حجم صاحبه الفعلي.

يوجد شيئان جديدان هنا:

الأول: أن جزءًا من قناعه كان مسوّدًا بفعل المشعل الذي دفنته في وجهه، وأمكنني أن ألمح في العينين الداكنتين غضبًا هائلًا يكفي لحرقي وأنا واقفة الآن!

الثاني: أنه يحمل سيفًا طويًلا مخيفًا؛ ككّل شيء فيه، وهو يرفعه أمام وجهه!

أبتلع ريقي، الذي لا أدري لماذا لم يجفّ للأبد من الأهوال التي رأيتها! أنظر حولي في يأس. بإحباط. لو كنت أحلم في تلك اللحظة، فإن ذلك الكابوس كفيل بقتلي دون شكّ!

هنا، لمحتُ تلك الشبكة المعدنية بأعلى. فجوة دائرية، وثمة ضوء خفيف يلمع من نقطة ما. كانت مفاجأة حقيقية تُضاف بجدارة لسلسلة المفاجآت التي أتعرض لها منذ بدأ ذلك الأمر. هل معني هذا أنني كنتُ أعدو بشكل مُطرد إلى أعلي دون أشعر، لأصل لمستوي الأرض؟!

ثم إنني أتذكر جيدًا، أن الوقت كان قبل المغرب بقليل عندما هبطتُ للبئر، فهل أخذتُ وقتًا طويلًا، في غيبوبتي الغامضة هذه قبل أن أجد نفسي مُلقاة على القاع؟

أسئلة كثيرة، تحتاج لصبر وتأمل لا أملكهما للأسف في الوقت الحالي. مهمتي الوحيدة الآن أن أنجو!

العدوّ من ورائي، والحائط من أمامي، ولا يوجد طريق للهرب إلا من خلال تلك الفجوة!

بشكل ما صارت حركتي أخفّ؛ بسبب المران، وكثرة الهروب، والتوتر الذي جعل أعصابي مشدودة، والأدرينالين الذي راح يتدفق كثيرًا، وكأني أعوِّض سنوات طوال من الخمول!

وثبتُ إلى الجدار المائل، وتعلقتُ بصخرة مائلة، ومددتُ يدي إلى الشبكة التي كانت ذات قضبان خفيفة. أسمع زمجرة الضخم؛ فلا أنظر.

نظرة واحدة مني، قد تجعلني أسقط من الجدار، الذي أتشبث بصخوره. تتحرك الشبكة قليلًا. الضخم يعدو أكثر. يتضح هذا من وقع خطواته. الشبكة تتحرك أكثر. أصابعي الرفيعة تستطيع إزاحتها أخيرًا. أمدّ يديّ إلى أطراف الفجوة، وتنقبض عضلات ذراعيَّ بقوة.

أشعر بألم هائل في كتفيَّ؛ فأسبُّ فضولي ومللي والقبو، ثم أرفع جسدي إلى أعلي، لكن الضخم كان قد ظهر، ومدّ يده الهائلة الشبيهة

بالمطرقة، وأمسك بقدمي، بينما الأخرى تمسك بالمشعل، وقد وضع السيف جانبًا.

هنا قمتُ بفعل جريء، أُحسد عليه؛ قمت بركله في وجهه بقدمي، فزمجر بغضب مكتوم بسبب القناع الموضوع على وجهه لسبب لا أعلمه في الواقع!

يبدو أن الضربة كانت قوية جدًا، بسبب قوتي أو بسبب ضعفه الشديد؛ فقد سقط على الأرض، وارتطم بالسيف، لينغرس نصله في الحاد في جزء من ذراعه. تجاهلتُ صراخه، وعبرتُ الفجوة، ووضعتُ الشبكة كما كانت، وأنا أعلم أن مُطاردي-بسبب ضخامة جسده، وجرحه الجديد والقديم-سوف يستغرق وقتًا، حتى يلحق بطريدته: أنا!

لكن الطريدة كانت في أسوأ حالاتها الآن؛ فكلما تخرج من مشكلة معقدة يتبين لها، أن الآتي أكثر صعوبة وتعقيدًا!

هذا، دون أن أدرك أنني ما زلت في بداية رحلة غريبة؛ ستُغيِّر حياتي، وحياة من حولي للأبد!

***

الآن أستكشف العالم الخارجي الذي خرجتُ إليه.

واضح أن الأمر يتجاوز نطاق فهمي العادي، وأن ثمة ظاهرة غريبة تحدث. لماذا تحدث لي أنا تحديدًا، وما هو الغرض منها، وكيف تنتهي؟!

تلك أسئلة كان من التبجّح أن أعكف على حلّها في تلك اللحظة. أنا في ظلام تام بدون بصيص ضوء واحد. أقف في العراء. أرمق الغابة المترامية، كثيفة الأشجار، التي تتثاءب في أفق، وترمقني من بعيد كما ترمق ذبابة تحوم حول أنفها!

غابة عظيمة بحق، تذكرني بالصور الملّونة التي كنتُ أراها في قصص الأطفال المصورة. القمر بأعلى ينثر ضوءه الفضّي على ذلك العالم. من حسن الحظ أنه يوجد شيءٌ مألوف في ذلك المكان!

لكن أيّ عالم بالضبط؟

كدتُ أسترسل في تساؤلاتي الحائرة، عندما قطعها صوت مزمجر بأسفل. أنظر فأجده هو؛ بطوله الفارع، وغضبه المشتعل في عينيه الداكنتين، وهو يدفع الشبكة المعدنية بأصابعه الغليظة، الشبيهة بأصابع السجّق! في ظروف أخرى كنتُ سأُعجب به حتمًا لإصراره هذا!

ثم حدث كل شيء بسرعة غير متوقعة؛ في البداية سقطت ندفة ثلج رقيقة على كفّي. أنظر إليها مندهشة. ثم تتابع سقوط مثيلاتها، وفي ثوانٍ وجدتُ الثلوج تنهمر! لم أنتبه لجلد كفيَّ، ورحتُ أتابع تلك

المعجزة الثلجية التي تحدث أمامي، وأنا أقفز هنا وهناك، كطفلة صغيرة!

الثلج يتساقط، لكن ليس بكميات كبيرة؛ فقط يهبط برقة ونعومة، تذكرني بأعياد الميلاد كما كنتُ أراها في الأفلام. لم أر ثلجًا حقيقيًا في حياتي، ولا أظن أنه توجد فتاة لا يفتنها منظره؛ سواء في الواقع، أو على الشاشة!

حطَّم تلك الفتنة سقوط كتلة من الجليد بشكل مدوٍ بجواري!

أنظر إلى الكتلة الجليدية ببلاهة، ثم تحركتُ من مكاني للخلف بمقدار خطوة؛ لأجد أن كتلة أخرى سقطت من خلفي بنصف متر؛ أي أنني لو أسرعتُ في تراجعي للخلف أكثر، لصرتُ عبارة عن جسد مسحوق بعظمه ولحمه! يتحول المنظر الجميل لكابوس! ألا يوجد شيء يسرّ العين والقلب ويستمر هكذا؟!

الكتلة الثالثة أسعدني سقوطها؛ فقد وقعت بقوة على الشبكة المعدنية، في نفس اللحظة التي كان فيها العملاق يهمّ بالخروج. أحسب أنها هشّمت يده، وأحسب-أيضًا-أن غضبه قد تضاعف!

لابد من الهروب؛ الهروب من العملاق، من جلاميد الثلج، من الخوف الذي بدأ يتكون، في هيئة مخلوق غير مرئي يطاردني بوقاحة، وتكاد أنفاسه اللاهثة الثقيلة تصل لمؤخرة عنقي!

لم أجد أمامي سوي مكان واحد أحتمي به: الغابة! أغذُّ السير إليها، تغوص قدماي في الثلج المنهمر. أضمُّ ثيابي، وأنا القادمة من عالم صيفي مبهج أحيانًا، وخانق أحيانًا أخرى. ألهثُ بقوة، يتصاعد الألم بداخلي، وكأن العمر قد تقدّم بي فجأة؛ فصرتُ لا أقوي على الحركة!

كنتُ في تلك المرحلة التي يتوقف فيها عقلي عن ملاحظة الأشياء حوله؛ برغم أنها ظاهرة أمامي، لكن العقل يحجب الحقيقة؛ بسبب الخوف، الحيرة، ولكي يحمي صاحبه من السقوط من فوق حافة الجنون!

كلما اقتربتُ من الغابة أزداد بعدًا؛ كمتسلق لجبل شاهق، يظن أنه قارب على بلوغ هدفه، ثم يدرك أنه واهم!

أحلم بالنجاة، لكني سعيدة بعض الشيء؛ فقد خرجتُ من مشاكل عديدة منذ بدأ ذلك الأمر، فهل معني هذا أن القدر يحابيني، ويحنو عليَّ، هامسًا؛ بأني سأنجو؟!

أدلف للغابة بحذر، لن أسعد بظهور أسد مفترس، لتأتي النهاية غير السعيدة بين أسنانه! ثم بدأ أزيز النحل يصكّ مسامعي، دفقة من الظلمة، ثم لا شيء!

***

الفصل السادس

يبدو أن جسدي بدأ يتعود على التغييرات الجديدة، وإن كانت عظامي تأن وتصرخ من الألم. كنتُ في حالة سيئة؛ ثيابي متسخة، رائحة العطن تفوح منها، وكنتُ أترنح وأنا أصعد السلم ببطء.

جيد أنني أُعطي فرصة لالتقاط أنفاسي في عالمي المألوف، الذي بدا يتحول لجنة موعودة من فرط ما أراه من أهوال وغرائب!

غادرتُ القبو، وأنا أحاذر أن يراني أحد. الحقيقة أن الأمر لم يعد مهمًا؛ فتهمة مجنونة ألصقتْ بي رسميًا!

وممن؟ من أقرب الناس إليّ؛ أهلي!

انزلقتُ في فراشي، وأغمضتُ عينيَّ، ومنظر الثلوج المنهمرة يقتحم ذهني، ويبدو أن لهذا مفعول السحر؛ فقد نمتُ فورًا، وبدون أحلام!

***

"سلمى! سلمى!"

أنظر فأجد أمي تناديني؛ فتنتزعني من خواطري التي غدتْ قاتمة في الأيام الأخيرة! كنتُ أجلس إلى مائدة الطعام. أحمد يرمقني باهتمام غريب. والدي يتناول طعامه بصمت كعادته. بينما ليلى تتحدث في هاتفها المحمول:

"حقًا! لم أكن أدرك هذا!"

والدي يخرج من صمته، ويوجّه كلامه لشقيقتي. في الحقيقة كان عتابه دومًا لها يحمل صبغة لينة لا قسوة فيها. لعلّها المرة الأولي التي يفعلها بغلظة هكذا! كان يقول:

"ألم أقل إنه ممنوع التحدث في الهاتف على الطعام؟!"

قالت بحرج:

" لقد كانت مكالمة من صديقتي بخصوص موقف حدث لها في الكلية؛ مدّرس المادة أصرّ أن...."

ثم توقفت عن إكمال قصتها التي لا تهم أحدًا غيرها في الواقع؛ مما جعلها تدفن وجهها في طبق الحساء، تتناوله في صمت مُحرج. كنتُ أعلم أنه لولا بقية من خجل لحملت طبقها، واتجهت إلى حجرتها.

أما أنت فكنت أفكر؛ بأن الظلام بدأ يتكاثف. اللغز يزداد سخافة! للأسف تجربتي مع والدي أثبتت أن عائلتي خارج الحسابات. لن يقف أحدٌ بجواري. عليَّ أن أعتمد على نفسي. إذا كنت أتعامل مع شئوني في العالم الآخر، ألن أقدر على فعلها هنا؟

استغللتُ فرصة أن أبي نهض من أجل الردِّ على مكالمة هاتفية. كنتُ أرغب في تعكير مزاجه، وإخباره بأنه خرق القاعدة التي وضعها، ثم وجدتُ أنني لا أملك البال الرائق للشجار!

أمامي مهمة أخطر: التأكد من عدم جنوني!

فتحتُ اللاب توب الخاص بي. بعد دقائق تأكدتُ من وجود ما يُسمّي بالنمل الأحمر. خطوة تأخرت كثيرًا، لكني لن أحتفظ بعقلي-بافتراض أني لم أفقده أصلًا! - بعد مروري بتلك التجربة. لابد من الكثير من البلبلة، والحيرة، والأفكار المصبوغة بالسواد! وجدتني أنهمك في قراءة الموضوع على ويكبيديا. يبدو أن الأمر كان مدهشًا؛ ليس لي فحسب، بل لأختي ليلى، التي وجدتني أقبع كقطة أمام الشاشة المضيئة.

رمقتني بدهشة كمن تستغرب من فتحي للموسوعة الشهيرة لأول مرة في حياتي تقريبًا؛ فتجاهلتها كعادتي، ثم وجدتُ أنه من الممكن استغلالها في شيء مفيد. قلت لها بلهجة هادئة، لا تعكس المشاعر المضطرمة-كبركان-بداخلي:

"ألا تشعرين بالفضول من أجل معرفة تاريخ البيت؟"

قالت، وهي تقضم تفاحة:

"أي بيت؟"

قلتُ بغيظ:

"هذا البيت يا حمقاء!"

طقطقت بلسانها محذرة:

"عيب أن تقولي هذا لأختك الكبرى!"

أغلقتُ شاشة اللاب، وقلتُ بلهجة مُغرية:

"ومع هذا لم تفكري في تاريخ البيت! إنه قديم، وفي منطقة أثرية، وثمة بئر جافة! هل رأيتِ بيتًا من قبل، به بئر جافة كهذه؟!"

قالت بحذر، وهي تلوك التفاحة:

"لماذا أشعر أنك تنصبين لي فخًا؟!"

هززتُ كتفي:

"وما الضرر الذي سيعود عليكِ لو بحثتِ قليلًا؟"

تواصل نظراتها المتشككة لي، ثم ترفع رأسها ضاحكة:

" آه! لقد حكت لي أمي ما حدث! البئر؛ كله متعلق بالبئر! أليس كذلك؟"

ألا يوجد من يكتم السرّ في هذا البيت؟

طويتُ شاشة اللاب، وغادرتُ الحجرة حانقة، بينما تتردد ضحكتها خلفي!

فليكن يا ليلى! الأيام بيننا! لكني كنتُ أدرك أن فضولها وشغفها سيسيطران عليها في النهاية!

***

وهكذا؛ فهذا ما حدث:

طرقتْ ليلى باب المكتب. الحقيقة أنه لم يكن مكتبًا منذ فترة قصيرة. مجرد حجرة واسعة، ذات جدران كالحة، إلا أن أبي قد أصرّ أنها صالحة لحجرة مكتب محترمة. بطريقة ما استطاع تحويلها إلى نسخة طبق الأصل من مكتبه بشقة الدقي. الاختلاف الوحيد أن هذا المكتب-الذي كانت ليلى تقف على بابه، منتظرة أن يُؤذن لها بالدخول- أكثر اتساعًا وبرودة في ذات الوقت!

"ادخلي يا ليلى"

كان صوت أبي، يأتي من الداخل. كانت لشقيقتي طريقة طَرْق معينة؛ دقتان، ثم دقة. كانت تدخل عليه كثيرًا، وكان يتحمل ثرثرتها بمعجزة ما، لا زالت غير مفهومة لي حتى الآن!

لماذا الأمور تسير معي من سيء إلى أسوأ؟ ألانني آخر العنقود؟

ربما!

فأنا-بعد دقيقتين من الحديث معه-يصيبنا الخرس! حسنًا، ما أن رآها حتى أشرق وجهه:

" ليلى! غريب أن تطرقي المكتب في تلك الساعة!"

تنحنحت الحمقاء على غير العادة، مما جعل والدي-المتشكك أصلًا-ينظر لها بتركيز زاد من اضطرابها.

"أبي كنت أريد رأيك في موضوع ما."

ما زالت ابتسامته ملتصقة بشفتيه. كان قلبي يخفق عندما وصلتْ لتلك النقطة، وليلى تحكي. سيحدث شيء ما يعكّر الأمور ويبلبلها. قالت بهدوء لأبي:

"لقد أصابني القلق مما قالته سلمى بخصوص البيت، وأنه نحس!"

زفر بضيق:

"حتى أنتِ يا ليلى! لقد وصلتْ إليكِ وعبثتْ بعقلك!"

رفعت ليلى يديها نافية:

"لا؛ فكل ما في الأمر أن هذه الحمقاء..."

عند هذه النقطة رمقتها بغيظ، وكدتُ اضربها بالوسادة!

".. تتحدث كثيرًا بخصوص هذا الأمر! لقد أخبرتها أننا لن نغادر هذا المنزل، لكنها لن تقتنع إلا لو عرفت أصله وفصله"

"تريد معرفة قصة هذا البيت؟"

تمتم كالمأخوذ بالجملة؛ مما لفت انتباهها. بعد دقيقة من الصمت الرهيب، قال قنبلته التي رفعتْ ضغط دمي:

"في الحقيقة أنا لا أعرف أي شيء عن تاريخه السابق، أو من كان يسكن فيه بالتحديد من قبل! كل ما أعرفه أنه لم يؤجر لسمعة سيئة لحقت به!"

***

قلتُ بسرعة، وأنا أقفز من السرير:

"سمعة سيئة! سمعة سيئة! لقد كنت أعرف هذا!"

ثم أمسكتُ بيدها في حماس:

" ها! وماذا أخبرك؟

قالت:

"أخبرني بأن......."

هنا، لمحتُ شفتيها تتحركان دونما صوت. أزيز النحل إياه يهجم على رأسي. لا. ليس الآن. ليس الآن! وفي أقل من ثانية كنت... هناك!

***

الفصل السابع

شعرتُ بتلك الأيدي الصغيرة، الطرّية الرقيقة، والباردة أيضًا، وهي تسحبني. المرئيات أمامي مشّوشة، غير واضحة، تتراوح ما بين الأبيض والأسود.

القمر؛ القرص الأبيض الممتلئ شبعًا، مُعلقٌ بصفحة السماء باسترخاء يتبعني أينما يُذهب بي، وكأنه يُشاهد مسرحية مسلية مشوّقة تساعده على النوم!

ما زلتُ مُرهقة لسبب مجهول. ألقيتُ نظرة على من يحملوني، فلم أميز إلا تلكم الأجساد الصغيرة التي ترتدي ثيابًا رمادية خشنة لا تناسب لون الثلوج المتراكمة بشكل يفوق الوصف، وكأن هذا موسمها، لكنه يناسب منظر الأشجار المنتصبة كرماح غليظة في عمق الأفق!

كنا نتجه نحو الغابة. عقلي يصفو. أنا راقدة على ظهري على محفة خشبية، وبعض الأطفال يقومون بحملي!

على غير العادة بدأ نور عجيب نقي ينتشر على مدي البصر، وأمكنني رؤية آلاف الكريات المضيئة، وهي تنتقل في وداعة هنا

وهناك، ناثرة حبّات الضوء وراءها. كان المنظر خرافيًا، مبهجًا، جعل فرحة غامرة، وغامضة تتسلل لقلبي؛ فيخفق لها طربًا!

أتمتم بانبهار:

"ما هذا؟"

كان صوتي غريبًا، متحشرجًا للمرة الثانية. لم يتوقف الموكب عن المسير: سمعتُ صوتًا يقول:

"إنها آثار الفراشات!"

"هل توجد فراشات تترك وراءها ضوءًا كهذا؟"

تبادل نظرة مع بقية الصبية، وكأنه يبدي دهشته من جهلي المطبق! ثم قال بأريحية مفسرًا:

"نعم، توجد. إنها مشهورة هنا في ذلك الجزء من الأرض المنسية!"

الأرض المنسية؟! لا. لن اسأله عنها؛ فلأعرف إجابة السؤال الأول أولًا. قلت بإصرار:

"لكنني لا أراها!"

قال، وهو يهزُّ كتفيه، ويشير بيده للبقية:

"لم يعد لها وجود! لقد أدتْ مهمتها، وتركتْ خلفها النور نسير علي هداه!"

بدت لي جملة غريبة؛ ككل شيء غريب! وفي تلك اللحظة تذكرتُ أنني نسيتُ السؤال الأهم:

"من أنتم، وأين أنا؟"

لم يجبني أحد. فقط أكملوا مسيرهم. على الأقل أنا أعرف أنني في الأرض المنسية! أي أرض منسية بالضبط؟ لا أعرف!

ثم اكتمل افتتاني عندما رحتُ أرمق الأشجار السامقة في السماء. أشجار حقيقية جديرة بعصور ما قبل التاريخ. الوحشية والضخامة والجمال، ورائحة بكر!

هل هي رائحة الخلق الأولي؟

كانوا أربعة أطفال رائعي الجمال-ككل شيء في ذلك العالم-لهم صفاء الثلج، وأقوياء أيضًا، وإلا كيف استطاعوا حملي بسهولة؟!

لاحظ أحدهم أنني بدأت أفيق من نومي؛ فابتسم، لأميز ملامحه بوضوح أكثر:

عينان زرقاوان. وجه أبيض مستدير. كانوا كلهم كذلك، وكأنهم خلقوا في ذات اللحظة؛ كانوا أطفال الثلج، وأخوة القمر!

انتهي بنا المطاف لكوخٍ من الخشب، بابه مفتوح وقفتْ على عتبته صبية جميلة، تتشارك مع الأطفال في بشرتها الصافية، وعينيها الزرقاوين، وابتسامتها المبهجة. كل شيء رائع. كل شيء سيكون على ما يرام. أشعر بهذا. لماذا أنظر لنصف الكوب الخالي؟ لقد ظللتُ على قيد الحياة حتى هذه اللحظة، ألا يعني هذا شيئًا؟

توقف الموكب أمام الكوخ. وضعوا المحفّة الخشبية على الأرض. نظروا إليَّ في صمت بليغ؛ جعلني أنزل. أشعر بخدر في ساقيَّ؛ بسبب المكوث الطويل، وانهمار الثلوج المتواصل، لكن قمم الأشجار المتشابكة تحملتْ العبء الأكبر.

أتخيل لو أتيحت لي فرصة النظر من أعلي؛ فسأجد منظرًا لا يُفَوّت!

أهبط. ما زالوا صامتين، لكن أعينهم المرحبة تقول الكثير. باب الكوخ المفتوح، يفتح لي ذراعيه. خطر لي أنهم لا يتحدثون كثيرًا. قلت بأن هذا لا يهم. في عالم تتساقط فيه الثلوج، يغدو الكلام نوعًا من الترف! ثم تذكرتُ أن أحدهم قد أجاب عن سؤالٍ لي من قبل!

ولجتُ للداخل وخلفي الأطفال. أغلقوا الباب، ربما لكي يمنعوا موجة البرد القارص من الدخول معنا. فور دخولي شعرتُ بقيمة الدفء. كانت هناك مدفأة عتيقة، تشتعل فيها أكوام الخشب، تشبه إلى حد كبير الصورة التقليدية التي كانت توجد في كتب الحكايات القديمة.

جلستُ على مقعدٍ خشبي بالقرب من الفتاة الصغيرة التي كانت تقف بسكون.

لفت انتباهي الأقواس والسهام المعلقة على الجدران. أقواس من أنواع مختلفة. قال أحدهم، وقد لاحظ نظراتي:

"نحن نتدرب؛ من أجل اللحظة الموعودة!"

"أي لحظة موعودة؟!"

لم يجب. بينما الفتاة تقترب مني وهي تبتسم بعذوبة. تقدم لي كأسًا من الزجاج، ملآن بسائل لونه أحمر رائق، كأنه عصير طماطم أو فراولة. بدا أنني سأرفض لجهلي بما فيه، لكني وجدتُ أنني سأُتهم بقلة الذوق، وعدم تقبل ضيافتهم! ابتسمتُ لها، أو رددتُ لها الابتسامة بمعني أدقّ، وأنا أتذوقه.

كان مذاقه حلوًا، مع مرارة خفيفة علقت بطرف لساني. لكنه ترك أثرًا منعشًا بجوفي، جعلني أُقدم، وأشرب بقيته.

ناولتها الكوب الفارغ، شاكرة؛ فنظرت لأخوتها نظرة لم أفهم معناها في البداية، لكن عندما تخدَّرتْ ذراعاي، وثقل لساني، وشعرتُ برأسي يميل لأسفل، عرفت بأن هذا الودّ الطفولي يُخفي وراءه ما وراءه، وهكذا سقطتُ أرضًا، وبدأ الوعي ينسحب مني ببطء!

كان آخر مشهد أراه: الأطفال يتجمعون عند رأسي، وهم يبتسمون، وحينئذ أمكنني أن أري أسنانهم المدببة القاطعة، ووثبت فكرة مرعبة لذهني، قبل أن يغيب كل شيء خلف غلالة بيضاء!

***

"أكلة لحوم بشر؛ لكن أطفال؟! يا لي من حمقاء! كان لابد أن أفهم هذا".

رحتُ أردد هذه الجملة بوهن مجنون، ووجدتُ أصابع نحيلة باردة تتلمس وجهي؛ فمددتُ يدي بسرعة ممسكة بها؛ لتصدر آهّة ألم!

أتاني صوت ليلى الحانق:

"هل جننتِ؟"

أنظر فأجدها ترمقني بغضب بعينيها العسليتين. كنتُ راقدة على الأرض، وهي تحدِّق إلى وجهي. نهضتُ ببطء، وأنا أقول:

"ماذا حدث؟"

قالت وهي تعاونني على الوقوف:

"لقد فقدتِ الوعي!"

"منذ متي؟"

"دقيقة تقريبًا!"

"حقًا؟"

قلتها بدهشة. كل الإثارة والثلوج والأطفال الأوغاد، ولم تمض إلا ثوانٍ فحسب! ما أن خطر ببالي هؤلاء المخادعين الصغار، حتى تقطَّب جبيني في حركة تلقائية تنمُّ عن استيائي. من العبث أن أحكي ما حدث. لن تفهم! لن تفهم! وأطلقت ضحكة قصيرة! إذا كنتُ أنا لا أفهم!

نظرت ليلى إليّ بتوجس، وكأنها تتساءل: مم تضحكين؟ لكنها لم تسأل. فقط اكتفتْ بالنظرة الخائفة المتوجسة. وهو أمر راق لي كثيرًا. لستُ في مزاجٍ لشرح ما حدث، أو ما لم يحدث في الأصل!

جلستُ على طرف الفراش، ولملمتُ شعري المبعثر، وسألتها:

"ماذا كنا نقول؟"

جلستْ بجواري، وقالت:

"كنت أحدثكِ عن السمعة السيئة الخاصة بهذا البيت"

التفتُّ إليها باهتمام. ربما لأول مرة في حياتي أبدي اهتمامًا بشيء تقوله ليلى، على الأقل ظاهريًا. ويبدو أن لهذا مفعول السحر؛ فقد لمعت عيناها ببريق الحماس. هذا البريق أعرفه، ويبدو أنني بدأتُ أحبه.

" موضوع المشاكل المالية التي كانت تواجه أبي منذ فترة، لكنه أخذ وقتًا حتى وجد مكانًا مناسبًا مثل البيت!"

قلت بغيظ:

"ويا له من مكان مناسب!"

"السمسار أخبر أبي أن المنزل له تاريخ مرعب وأسود؛ فبعض السكَّان السابقين قالوا بأنه مليء بالعفاريت!، والبعض قال بأن فيه رائحة مقيتة لا تزول، والبعض الآخر قال بأنه بارد، لا تطيق النفس السكني فيه! كل مستأجرٍ كان لا يقيم إلا بضعة شهور، ثم يتركه!"

"وهل أخبر السمسار أبي بكل هذه الحقائق من أول مرة؟"

هزّت ليلى كتفيها:

"أنت تعرفين والدي. لقد قام بسؤال من يسكنون هنا عن المنزل وسمعته؛ فنصحوه بألا يشتريه! قالوا بأنه منزل ملعون لا يأتي من وراءه أي خير!"

"وبدلًا من أن يتخلى عن هذه الفكرة الحمقاء، أو يستأجره فقط؛ اشتراه! اليس كذلك؟"

قال ليلى وهي تبتسم:

"لقد وجدها فرصة لا تعوض؛ أن يشتري بيتًا بثمن بخس!"

في تلك اللحظة خطر لي سؤال مهم جدًا؛ لا أدري كيف غاب عن ذهني:

"أخبريني من هو صاحب المنزل الذي اشتراه والدي منه؟"

"ألم أخبرك؟ إنه نجيب السمسار نفسه!"

***

الفصل الثامن

بعد ربع ساعة توقفت سيارة الأجرة في حي راق. يبدو أن السمسرة مربحة حقًا. غادرنا إلى عمارة متوسطة الحجم. وفي الطابق الثالث توقفنا أمام الباب المطلّي بلون أحمر فاقع. اللون الأحمر! اللون الأحمر! إنني أقابله كثيرًا هذه الأيام! ضغطتْ ليلى زرّ الجرس. ثم تراجعت خطوتين للخلف، كأنها تضعني أمام المدفع!

كدتُ أنعتها بالجبانة، لولا أن الباب قد فُتح، وأطلّ من وراءه وجه أسمر نحيل، بعينين بارزتين لامعتين، وشفتين احترقتا بالتبغ، مع رائحة كريهة، كان من الممكن أن تجعلني أفرغ ما في جوفي في الظروف العادية، لكن بما أني عائدة من بئر قديمة تعجّ بجثث الموتى، فقد بدا الأمر لي أشبه برائحة نعناع خفيفة!

نظر إلينا بتساؤل صامت؛ فقالت ليلى على الفور:

" نحن ابنتا الأستاذ كمال يا عم نجيب"

عيناه تحملان ذات ردّ الفعل الذي كان من ثوان. سمسار مثله لابد أن يقابل نفس الاسم عدة مرات في الشهر. الأمر يحتاج لتفاصيل أكثر.

"الرجل الذي اشتري منك منزلك القديم بالمقطم! منزل الزهراوي!"

ظهر ردُّ فعل في العينين اللامعتين. سحابة خوف ظللتهما. بيت الزهراوي؟! كانت هذه هي المرة الأولي التي أعرف تسمية البيت الحقيقية. بيت الزهراوي؟ هل هو اسم عائلة نجيب السمسار؟ قال الرجل، وهو يزن كلماته جيدًا، عن طريق نطق المقاطع ببطء:

"ماذا عنه؟ هل هناك مشكلة؟"

ابتسمتْ ليلى:

"فقط نحتاج إلى معرفة تاريخ المنزل"

قال بتردد:

"تاريخ المنزل!"

قلتُ بلهفة:

"لن نأخذ من وقتك الكثير يا عم نجيب!"

بدا الحرج على وجهه، ثم قال:

"تفضلا"

دلفنا للداخل، وقادنا الرجل لحجرة الجلوس.

"ما الذي تريدان معرفته؟"

"ما حكاية ذلك البيت بالضبط؟"

قال بسرعة:

"منذ مائة عام أو أقل قليلًا كان ذلك الجزء في منطقة المقطم خاليًا من الحياة، وكان جدِّي قادمًا الصعيد، وقرر الاستقرار في القاهرة، وبحث عن مكان مناسب؛ وراق له جبل المقطم؛ فقرر أن يستقر فيه، وشرع في شراء بعض الأراضي"

سألته بلهفة، وأنا أمني نفسي بأن اللغز الغامض يوشك أن ينكشف:

"ثم؟!"

قال:

"ذات يوم جاء رجل غريب لجدّي هذا، وطلب منه أن يشتري منه قطعة أرض معينة في أملاكه. رفض جدّي في البداية، ومع رؤيته لصرّة الذهب وافق على أن يؤجرها له فقط. وافق الغريب

بشرط أن يكون الإيجار مدي الحياة، وبعدها تعود قطعة الأرض تلقائياً لأملاك جدّي، ولأحفاده من بعده"

سألته ليلى، وهي تميل للأمام:

"وما هو اسم هذا الغريب؟"

لوّح نجيب بكفه:

"ليس من المهم معرفة اسمه"

"أكمل يا عم نجيب"

أزيز النحل يطنّ فجأة، مما جعلني أهتف:

"ليس الآن! ليس الآن!"

نظرت لي ليلى بضيق، بينما عينا نجيب تضيقان.

في اللحظة التالية كنت مقيدة إلى طاولة خشبية خشنة، والأطفال الصغار يعدّون لي شيئًا مبهجًا أعجبني عندما دخلتُ إليهم. نظر أحدهم للآخر، وأشار إلى كمية الحطب الكافية لجعل الفرن قطعة من الجحيم، فأشار الآخر بأصابعه؛ مما جعلني أخمن: كمية الحطب كافية لأن أُشوي حيّة!

***

كانوا فرحين، يستعدون لطهوي بسرور، وأختهم تحرك الحطب بمحراك حديدي ينتهي بمقبض جلدي كالح، وهي تغني!

كان غناءها عذبًا، وفي ظروف أخرى كانت عيناي ستدمعان تأثرًا، لكن في هذه الظروف كنت أحرك يديَّ المقيدتين ببطء، لعل القيد يرتخي قليلًا.

لكنه لم يفعل.

أطفال صحيح، لكنهم أذكياء! كانوا يهيئون المائدة بضمير، وكأنهم يريدون تحطيم أعصابي. بل هم يفعلون هذا فعلًا، وقد تأكدتُ من هذه النقطة عندما وجدتُ أحدهم يبتسم بشماتة، لكن الآخر نهره بشدة، وكأنه يعترض!

يا لكم من رقيقي القلوب!

هنا حدث ما لم أتوقعه البتة. التفت إلى كبيرهم-لو جاز إطلاق هذا على مجموعة من الأطفال! - وهو يبتسم بمكر، كمن يعرض عليّ فرصة للنجاة. كان طويلًا بمقدار بوصات قليلة، مع شعر أسود طويل نوعًا يتدلى على كتفيه، وبدا كزعيم يترأس مجموعة من السفاحين الصغار!

اقترب مني، مواصلًا ابتسامته المستفزة هذه، وجلس بجواري، وبنظرة سريعة مفاجئة استطاع أن يلاحظ محاولاتي البائسة من أجل إرخاء القيد!

قال بصوت لم يخلُ من شقاوة الطفولة:

"هذه قيود مصنوعة من جلد متين، ولن تستطيعي إرخاءه أو قطعه. أنتِ تبددين جهدك فيما لا يفيد!"

"هل تريد أن أترك نفسي لكم طواعية بدون مقاومة؟"

"يمكنك النجاة من المصير المرعب الذي نجهزه لكِ، لكن شريطة أن تجتازي الاختبار الذي نعدّه. لو اجتزته فستُكتب لكِ حياة جديدة، وإن لم تفعلي فأنتِ بالخيار؛ أن نتركِكِ لموت سريع وحادّ، أو آخر بطيء ومؤلم! يمكنك التخمين أن الموت بالخارج وسط الثلج ليس محببًا. لا تغترّي بمنظر الثلوج الآن. انتظري حتى غد، فالجليد الصلب كالحجارة آت. الشتاء قادم، وليست لكِ قدرة على تحمله. صدقيني!"

" أنت تسعدني بكلامك هذا! لكن أجب عن سؤالي أولًا: من أنتم، وأين نحن؟"

قال بتشكك:

"ألا تعرفين؟"

"وهل من المفترض أن أكون كذلك؟

قطع حوارنا العقيم، مشهد لم ولن أنساه: اقتربت الطفلة من الفرن، ومدت يدين رقيقتين، تحسدها كل الفتيات على امتلاكها لهما.

يدان رقيقتان هشتان كالثلج، صافيتان كالبلور، وانتفض قلبي في قفصي الصدري. هناك رائحة جنون غريبة هنا تنتشر هنا. صرختُ:

"احذري من النار!"

لم يكترث زعيمهم، أو أخوته، أو الطفلة لصياحي، وكأني أنفخ في الرماد. الرماد الذي ستتحول إليه المسكينة فور أن تشبّ النار في أصابعها، متسلقة لذراعيها وثيابها، قبل أن تنتقل لبقية جسدها. لكن لم يحدث شيء!

تبادل الأخوة نظرة دهشة من تصرفي الانفعالي هذا، وركزوا على وجهي المذعور، الذي يركز بدوره على الطفلة، التي تركز بدورها في النار، وكأنما تؤدي مهمة في غاية الخطورة. بعد ثوان من غياب يديها في النار أخرجتهما!

لم يكن المدهش أنها أخرجتهما سليمتين من غير سوء فحسب؛ بل المدهش أكثر ذلك الحيوان الشبيه بالثعبان، والذي كان يتلوى في يديها، ووهج النار ينعكس على جلده، ثم أدركتُ-عندما ابتعدت الطفلة عن الفرن-أن الوهج المصطبغ به لم يكن من النار. بل كان بداخله، وكأنه مخلوق من مادة النار ذاتها، أو لعلّه كذلك!

كان حجمه صغيرًا، بما أنه ولد لتوه من رحم اللهب. وضعته الطفلة على المنضدة الحجرية المقيدة أنا إليها، ومسحت على ظهره بنعومة وحنان، أثارا اشمئزازي. ثم راح الثعبان-أو المخلوق الناري-

يستطيل. ينمو. يغدو شيئًا هائلًا. وخلال دقيقة كان قد صار عملاقًا مهيبًا!

ثم اقترب مني، بعينيه الواسعتين، اللتين كدتُ أري وهج النار التي خرج منها لتوّه، تتموج فيهما، بشكل جعلني أترنح.

تبًا! إنه يقوم بتنويمي! أُخذتُ بالعينين الشفافتين إلا من حُمرة خفيفة، وهو يقترب مني أكثر، وفتح فمه ليظهر صفّ من الأسنان الرفيعة القاطعة؛ فلم أتحرك قيد أُنملة!

بالفعل أنا منوَّمة الآن!

وفجأة أنشب أنيابه-بشكل مفاجئ-في كتفي! صرختُ بقوة، والألم يعصف بدماغي وأعصابي، وانقبضتْ عضلات جسدي وتقلصتْ، ورأيتُ العروق تنفر من ذراعيّ المقيدتين!

الآن فقط، فهمتُ سر تقييدي!

***

الفصل التاسع

كان جسدي يرتجف. أحلامي وخواطري نفسها ترتجف! أنتقل إلى أرض غامضة مجهولة، يتربص بي الموتُ بي فيها بكل مكان!

نجيب ينظر لي كمن ينظر لمجنونة! لا ألومه! كنتُ ما زلتُ أصرخ بشكل متواصل، جعل الرجل يرتبك. رجل كهذا لابد أنه شاهد الكثير في حياته المديدة، لكن لم ير بعد ضيفًا يصرخ عنده، وهو في ضيافته. هذا أمر يفوق أشرس كوابيسه!

كدتُ أقول له" مرحبًا بك في عالمي المجنون!"، لكني وجدتها جملة مبتذلة، ثم أنا الآن أرتعش من الألم والصدمة، ولستُ في بال رائق من أجل أقول جملة دراماتيكية!

"هل أصابها الصرع؟"

"كلا يا عم نجيب؛ إنما هي.."

ثم صمتت ليلى، وقد وجدت أنها لا تعرف حقيقة ما يحدث لي!

العرق الغزير يتصبب من على جبيني. كنا في الصيف هنا، لكن شقة نجيب كانت ذات تهوية جيدة، بالإضافة إلى تكييف عتيق، لكنه يؤدي عمله بكفاءة. أين الخلل إذن؟

بدأ جسدي يهدأ قليلًا، والرجل يقدم لي زجاجة مياه من الثلاجة القابعة في ركن الصالة. شربتُ قليلًا من الكوب الذي قدمته لي ليلى، وأغمضتُ عينيَّ لعلّي أنسي الألم الحارق كجمرة تسكن تحت جلد كتفي!

برغم حالة التشويش التي أعيش فيها، كنتُ ألمح توتر الرجل. الرجل الذي يبدو أن ثمة صراع على وجهه: يقول؟! لا يقول!

بدا أنه لا يقلُّ تشويشًا عني!

وكأنما كان يريد التخلص منا، وإرضاء ضميره-هذا لو كان يمتلك واحدًا في الأصل! - نهض، وهمس:

"عودا غدًا في نفس الموعد؛ سأنتظركما. ثمة ما أريد أن تعرفاه؟"

"ولماذا ليس الآن؟"

"ابني سيعود من العمل، وصراخ أختك سيثير بعض التساؤلات، وأنا رجل عجوز، ولا طاقة عندي لتحمل سخافات سكّان العمارة"

واتجه للباب، وفتحه على مصراعيه، وردد:

"غدًا في نفس الموعد"

ثم قال بلهجة محذرة، بدت مقبضة للروح:

"لا تخبرا أحدًا عما جري بينا اليوم، أو عن موعد الغد! فليكن هذا سرَّنا الصغير!"

أومأنا برأسينا في حركة آلية.

تحاملتُ على كتف ليلى، وغادرتُ الشقة، ولم تمض دقائق، إلا وكنا أمام العمارة، وكان سائق سيارة الأجرة نفسه الذي ركبنا معه في مجيئنا، هو ذاته من ينتظرنا.

***

في حجرتي، كنت راقدة. أتذكر المنضدة الحجرية العتيقة، والثعبان اللعين، والأطفال الأوغاد؛ فتعود لجسدي رعشته، وأنا أعرف جيدًا أنني سأنتقل في أي لحظة إلى هناك؛ لأعرف سرّ الاختبار الذي يعدّه لي الأخوة، عالمةً أنه اختبار مروّع يليق بالأساطير! تدخل ليلى حاملة قدحين من الينسون الساخن. تضع أحدهما بجواري على الكومود، وتقول مفسرة:

"حتى يبرد"

"شكرًا"

قلتها بخفوت، فابتسمتْ.

"لمَ تبتسمين؟!"

"هذه هي المرة الأولي التي تشكرينني فيها على شيء في حياتك!"

"لأنـها المرة الأولي التي تعدين لي فيها كوب من الينسون في حياتك!"

ضحككتْ؛ فرنت ضحكتها المعدنية في الحجرة. ابتسمتُ على الرغم مني.

"ألن تخبرينني بما يحدث؟"

"لا أفهم!"

"حقًا لا تفهمين؟ لن ندور حول نفسينا طوال اليوم يا سلمى! ثمة ما يحدث لكِ منذ فترة"

"لو أخبرتك فستقولين إني مجنونـة!"

هزت رأسها، وهي ترتشف من كوبها:

"أقول هذا منذ زمن بعيد! لن يجدّ جديد!"

بدا التردد عليّ، لكني اندفعتُ أروي لها ما حدث. في البداية كنت أروي ببطء. حذرة، أراقب ملامحها المهتمة، وعينيها اللتين تلمعان في شوق، كأني أحدثها بقصة مثيرة تحبس الأنفاس من فرط خطورتها!

بعد ربع ساعة من الحكي، تغير المشهد قليلًا. فرغ الكوبان. انتقلت ليلى إلى سريري، وزاحمتني فيه، لدرجة أن والدتي اندهشت من المشهد عندما دخلت علينا بمشروب بارد!

هذا الموقف يذكرها بطفولتنا بدون شكّ. كنا مقربتان كأي أختين، ثم بمرور الزمن، واختلاف المشارب والطباع بدأ البعد يحدث. إنه يبدأ في البداية دون أن نشعر به، ثم يتوغل بنا في جزر مجهولة موحشة!

ابتسمتْ أمي، وقد بدا أن جلوسنا هكذا قد أعجبها، بينما أغالب رغبتي العارمة في إخبار ليلى أنها ضيفة ثقيلة عليَّ. يبدو أن مشوار اليوم قد أخبرها بشكل رومانتيكي أننا نتقارب كأختين، وكل هذا الهراء الذي يعجب الفتيات، وخاصة العاطفيات منهن؛ مثل ليلى!

لكنني كنت في حاجة ماسّة إلى من يشاركني في التفكير قبل أن أُجنّ فعليًا. هذا إذا لم أكن قد جننتُ فعلًا!

"ما رأيك؟"

" هممم!"

قلت بضيق:

"دعكِ من لغة الفيس بوك هذه، وتجاوبي معي!"

"أنا أفكر"

"وهل هذه هي علامة التفكير عندك؟"

وكأنما تريد إغاظتي:

"هممم"

أقول بعصبية:

"ليلى!"

رفعتْ يدها:

" قصتك مثيرة، لكن هناك فجوات"

"مثل؟"

"موضوع الزمن!"

قلتُ بإحباط:

"أعرف. نفس اللغز واجهته من قبل دون حلٍّ. كيف يمكنني أن أنتقل من هنا إلى هناك، لأجد نفسي في ذات المكان، وقد مضت ثوان فقط على إغماءتي؟ عندما أنتقل من هنا إلى هناك، أجد نفسي في مكان مختلف. وعندما أعود إلى هنا أجد نفسي في ذات المكان؟! مثلما حدث معك. كنت أتحدث، وانتقلت إلى هناك، ورأيتُ ما رأيته، وعندما عدت وجدت نفسي ملقاة على الأرض!"

"ليس هذا فحسب؛ فوصفكِ الدقيق لذلك العالم الغريب يوحي أنه مكان مختلف؛ عالم مغاير لعالمنا"

"هل تريدين القول بأن البئر عبارة عن ممر بين عالمين؟!"

ابتسمتْ في استخفاف:

"لم أقل هذا! بالمناسبة أنا لم أقتنع بحرف مما قلته. لكني أريد التفاعل مع عقلك حتى تتهاوي وتنهار هذه القصة من جذورها، ومن ثمة تعودين لطبيعتك الآلية والباردة. العلاج من الجذور هو الأهم!"

" ليلى"

"همممم"

"غادري الحجرة قبل أن أقتلع رأسك من جذوره!"

ضحكتْ. قلت بتهديد:

"أنا لا أمزح. بالفعل سأقوم بالتهور والشجار معك! من فضلك غادري الغرفة فورًا قبل أن يحدث شيء غالبًا سأندم عليه فيما بعد!"

أدركتْ أنني أتحدث بجدية. فاجأها الموقف. الحمقاء ظنت أن مشوار واحد بيننا كاف لأني تتهمني بالجنون، وكأن الأمر ينقصها!

ألقت نظرة مضطرمة بالغيظ، قبل أن تغادر الحجرة مرفوعة الرأس! أعلم أنها ستكرهني لسنوات طويلة قادمة!

استرخيتُ في جِلستي. نجيب السمسار يبدو أنه يعرف شيئًا مشئومًا عن تلك الدار، بحكم أنه مالكها، أو كان مالكها! ذلك قبل أن يقوم أحد الحمقى بشراءها منه!

يبدو أن ضمير نجيب يؤنبه، وهو مرتبط بشكل أو بآخر بما أتعرض له من أهوال!

على الجانب الآخر فثمة اختبار مطلوب مني أن أتجاوزه، لكن ما علاقة هذا بالأفعى النارية، ومن هؤلاء الأطفال، وكيف يتكلمون العربية بهذه الطلاقة، في عالم يوحي أنه ليس عالمنا؟

وماذا عن الطفلة التي تتحدي إحراق النار بكل هذه الجرأة، وكأن ذلك من الأمور العادية عندهم؟!

السؤال الأهم والأخطر: ما هو ذلك العالم غير المنطقي، الغامض؟ هل هو حقيقة، أم من اختلاق عقلي؟

أتنهد!

أعود لفراشي. غدًا سأعرف سرّ البيت كما أتمنى من السمسار. ما أرغب فيه الآن هو قسط وافر من النوم، ثم لتزأر العاصفة!

***

الفصل العاشر

الهدوء يرفرف في فراغ حجرتها الأثرية، الشبيهة بمحاريب رهبان العلم. تجلس خلف مكتبها الصغير، واضعة على عينيها نظارة القراءة. لم تنتبه، أو تكترث لدخولي. لم ترفع رأسها حتى عن الكتاب الضخم الموضوع أمامها، وهي تدوِّن بضع ملاحظات في دفترها الوردي.

"مشغولة؟"

"همممم"

"ألن تكفي عن هذه الهمهمة المستفزة؟"

قالت ببرود:

" ماذا تريدين؟"

قلتُ وأنا أداعب فستاني الأحمر المفضل لديَّ:

"هل نسيتِ مشوار اليوم؟"

"لن أذهب"

"ولم؟ ألم نتفق على أن..."

قاطعتني بنفاد صبر:

"هذا قبل أن تطردينني من حجرتك"

جلستُ بالقرب منها، وقلت:

"لقد خشيتُ من ردة فعلك هذه! المفروض أن تؤازرينني، بدلًا من السخرية مني وتحقير ما أرويه لك!"

"ما قلته لم يكن معقولًا بأي حال من الأحوال. إنها هي إلا أضغاث أحلام!"

"هل ترين أنني أطلب منك تفسير كابوس مررتُ به بعد وجبة طعام دسمة؟!"

"ماذا تريدين يا سلمى؟"

" أخبرتك"

"لن أذهب"

"من صفات الباحث الجيد أن يفصل مهنته عن مشاعره"

قالت بتهكم:

"ومن أدراكِ أنتِ عن هذه الأمور؟"

قلت بسرعة:

"أنتِ! لطالما قلتِ هذا، وكنت أستمع. البعض يظن أنني لا أفعل ذلك، لكني أؤكد لكِ أن هذا غير صحيح بالمرة"

ابتسمتْ؛ فاستبشرتُ خيرًا. قد يحدث أمرٌ ما هناك، ولن أجد من يقف بجواري. صلة الدم تنفع أحيانًا. أشارت للكتاب الضخم أمامها، وقالت:

"كنت أبحث في تاريخ البيت؟"

"وماذا وجدتِ؟"

"لا شيء!"

"لم أفهم!"

"هذا البيت لا ذكر له في أي مرجع قديم! هذا المرجع يضم رسومًا تخطيطية للمنازل والبيوت هنا للمائتي عام المضية تقريبًا، وتاريخ كل واحد منها بشكل موجز، لكن لسبب ما هذا البيت لا يوجد له رسم تخطيطي. لا يوجد له اسم. المكان الموجود عليه لم يكن إلا قطعة أرض خالية! كيف أفلت بيت هكذا من الظهور في هذا الدليل الشامل؟"

"ربما لم يرد صاحب البيت الغامض أن يُذكر منزله في الدليل!"

ابتسمتْ لفطنتي، ورفعت إصبعها علامة التأييد:

"هو ذاك!"

وبدا عليها التفكير، وهي تقول:

"أو ربما أن البيت مشئوم لدرجة تجعل من قام بذلك العمل المرهق بأن يُسقط البيت من حساباته؛ آملًا ألا ينتبه الناس إليه!"

"أراكِ صرتِ تميلين إلى رأيي؛ بأن هذا البيت منحوس، وبه لعنة!"

"لم يتبق أمامنا إلا نجيب السمسار!"

***

لكن نجيب السمسار لم يكن موجودًا. ضغطتْ ليلى جرس الباب أكثر من عشرين مرة، ولا مجيب. طبعًا تمتلك الجرأة الآن لكي تكون في وجه المدفع، بعد أن صرنا وجهين مألوفين للرجل.

أقول، وقد لاحظتُ شيئًا غريبًا:

"الباب مفتوح!"

نظرتْ للموضع الذي أشير إليه بأصبعي؛ لتجد الباب مفتوحًا!

دفعتُ الباب بحذر، بينما ليلى تنظر مراقبة حولنا؛ لتراقب الجوّ؛ مما جعلني أضحك على الرغم مني!

نظرتْ إليَّ بغضب، وهمست:

"ششششش! ستفضحيننا!"

كنتُ أعلم أنها تشعر بالإثارة. لقد انتقلتْ من بطون الكتب لحياة المغامرة الفعلية. لو قدّر لها أن تعاين جزءًا مما أعاينه وأقابله عندما أذهب إلى هناك لجُنَّتْ فرحًا!

ربما كلامي معها بالأمس هو من أعطاها دفعة كسر المحظورات، والتصرف قليلًا بنزق. نحتاج لهذا أحيانًا.

دخلنا، ولم ننس إغلاق الباب وراءنا.

حسنًا، كان المنظر أمامنا صادمًا كما يجب له أن يكون. المكان مقلوبٌ رأسًا على عقب!

تعلمنا من الروايات والأفلام أن اللصوص يفعلون هذا من أجل شيء ثمين. وهي قاعدة تثبت صحتها في كل مرة، إلا لو كان اللص مخبولًا ويريد تضييع وقته في تحطيم المنزل نكاية بصاحبه!

كان نجيب مُلقي على ظهره. يحدق في السقف بذهول من لم يصدق بعد! الدم يسيل في خطّ سريالي من صدره.

طعنة خنجر نافذة! الرجل كان في لحظاته الأخيرة فيما بدا لنا! في ظروف عادية كنت سأشعر بالارتباك.

الارتباك الذي يجعلني أتعامل مع المواقف المليئة بالعواطف بنوع من البلادة وعدم الاستيعاب. منذ بدأت تجربتي هذه، والأمور قد تغيرت قليلًا.

جثوتُ على ركبتيِّ:

"عم نجيب. عم نجيب"

هتفتُ بها، فالتفت الرجل إليّ.

" البيت! البيت!"

"اطلبي الإسعاف يا ليلى"

كانت ليلى تتصل بالإسعاف بالفعل، بينما تمتد يد الرجل المرتعشة ليدي. لأول مرة أنتبه أنه عجوز. سمرته ولمعة عينيه أخفتا سنّه الحقيقية. لقد تجاوز السبعين بسنوات قليلة.

"البيت. كل شيء متعلق بما هو مدفون تحته!"

قلت بلهفة:

"البئر. البئر. أليس كذلك؟"

ضغط على يديّ بقوة:

" أي بئر؟ أنا لا أتحدث عن البئر... أتحدث عن..".

غاب صوته وراء غلالة سميكة، وأنا أشعر بوعيي ينتقل مجددًا إلى هناك!

***

الفصل الحادي عشر

شعرتُ بجسدي يرتّج هذه المرة، بدون أزيز النحل المعتاد، ثم اجتاحتني عاصفة من الهدوء! كنتُ أجلس إلى مقعد خشبي بالقرب من المدفأة. استوعبتُ موقفي بسرعة؛ مما جعلني أتراجع للخلف، باحثة عن الثعبان اللعين. هل عاد إلى مكانه؟

لم تعد تقلقني هذه الانتقالات المفاجئة. صار جسدي متعودًا على التواجد في عالمين!

يا لي من محظوظة! أقولها في سرّي بتعاسة، وأنا أرمق الأخوة الذي يرقبونني بأعينهم الواسعة التي جمعت كل براءة الطفولة. لو قدرت لي الحياة فيما سأدرك أن الصورة خادعة جدًا! ما يحدث يفوق أكثر أحلامي شططًا وجنونًا!

ما هي هذه المهمة؟

كأنما سمع الوغد الصغير-كبيرهم-أفكاري، فدنا مني، وهو يحمل لُفافة من الجلد. سقط قلبي بين ضلوعي. بداية الكوارث تبدأ من لُفافات الجلد. اللفافة-غالبًا-تقود لصندوق، والصندوق مليء بالكنوز! صحيح أنهم أطفال، لكنهم يفكرون كما يفكر الكبار من ذوي الأطماع!

"هذه خريطة تقود لشيء نريده."

"هل هو صندوق؟"

تبادل نظرة دهشة مع أخوته، ثم التفت إليَّ، واتسعت عيناه بما يدلّ على تخوفه من معرفتي هذه!

دائمًا المعرفة تثير الذُعر أكثر من الارتياح.

"وكيف عرفتِ هذا؟"

"الخريطة لابد أنها تدلّ على صندوق مليء بالجواهر!"

ابتسم، وضاقت عيناه قليلًا مما أنبأ عن صحة الجزء الأول من استنتاجي. إنه بالفعل صندوق، لكن لا يوجد به كنوز تقليدية. ما هو المهم في صندوق لبعض الصبية؟

"وما الذي لا يحتويه؟"

"شيء لا يخصك"

نطقها بخشونة عجيبة. خشونة لا تليق بطفل أزرق العينين، يصلح كنموذج للبراءة في الإعلانات، بدلًا من دور زعيم العصابة هذا، وهو يلعبه بنجاح بالمناسبة!

"وماذا لو رفضت؟"

"من حقك. لكن لا أنصحك بهذا"

"ولماذا؟"

"عضّة الرانجوس"

"عضّة ماذا؟"

"المخلوق الذي عضّك؟"

"تقصد الثعبان!"

"اسمه الرانجوس؛ إنه يشبه الثعبان فعلًا، لكنه من النار؛ لذا فقد سُمَّي بهذا الاسم! كل من يعيش في هذه الأرض يعلم هذا!"

"لكني لستُ من هنا!"

"ربما! على كل حال نحن نلتمس لكِ العذر؛ فكل من يأتي من منزل الظلال يصيبه مسٌ من الخبال!"

"منزل الظلال؟!"

تجاهل سؤالي، أو أسئلتي المتكررة لو أردنا الدقة. أمامي مصدر لا يُستهان به من المعلومات الوافرة عن ذلك العالم، ثم هناك منزل الظلال أيضًا! أيقصد ما هو أسفل البئر؟! الآن يتأكد لي أن البئر عبارة عن ممر بين عالمين، ويبدو أنني بطريقة ما أنتقل لجسد تلك العجوز الغامضة!

الآن علىّ أن أعرف تلك المصيبة التي تنتظرني على أيدي هؤلاء الصغار!

" من المهم ألا تفتحي الصندوق! أكرر: لا تفتحي الصندوق؛ فما فيه يخصنا"

"كفي ثرثرة! لن أفتحه. لماذا لا تستطيعون أنتم الحصول عليه؟"

"ذلك المكان مُحرّم علينا!"

"لم؟"

"أخبرتك أن منزل الظلال ملعونٌ من يدخله؛ إذ سرعان ما يصيبه الجنون! ونحن لسنا أغبياء لنفعل هذا!"

"ترى أنى مجنونة إذن!"

لو قال هذا؛ فلن ألومه!

لكنه تبادل نظرة مع أخوته. أتساءل إن كان ذلك الوغد الصغير يتلاعب بعقلي؛ ذلك بافتراض أنه ما زال سليمًا!

قال بخشونة عجيبة:

" دعكِ من هذا؟ أخبرتك لو رفضتِ فسوف تموتين شرّ ميتة. هناك سُمّ زُعاف يجري في جسدك الآن، وكلما أسرعتِ في إنجاز مهمتك، كلما كانت فرصة نجاتك أفضل!"

ابتلعتُ ريقي. صار التهديد صريحًا. ذهبت كل المجاملات والابتسامات الرائقة، وسقطتْ أقنعتهم. لم يكونوا إلا وحوشًا في هيئة أطفال!

تمتمتُ مستسلمة، وذهني يستعيد صورة الثعبان اللعين، وهو ينقضّ على كتفي:

"ماذا تريدونني أن أفعل؟"

***

وقفتُ أنظر إلى الشبكة المعدنية ببلاهة، وقد غطّاها الثلج تمامًا، وهم يحفرون بهمّة وحماس حتى صارت واضحة بلونها الفولاذي الكالح، وقال زعيمهم:

" الصندوق بأسفل!"

هنا-فقط-تذكرتُ الصندوق الغريب الذي رأيته في القاعة الصغرى أسفل البئر!

أي أهمية يملكها هذا الصندوق، حتى يجعلني أعود مرة أخرى لذلك الجحيم بأسفل البئر؟!

***

الفصل الثاني عشر

أنفاسي تضيق. كأن هناك من يضع وسادة قذرة على فمي، وهو يضغطّ عليه بكل قوته. أفتح عينيّ بإعياء. أجدُ نفسي محشورة في دولاب عتيق. كانت رائحة المكان لا تُطاق حقًا، إضافة إلى يد ليلى الموضوعة على فمي بالفعل، ثم انتبهتُ أنني أُ ٌصدر أنينًا مُزعجًا، وأن هناك من يتحرك بالخارج!

نظرتُ بعينين زائغتين لأختي؛ فوجدتها تضع أصبعها على فمها محذرة. بدأت أنفاسي تهدأ قليلًا. أقترب بأذنيِّ من باب الدولاب ربما أسمع شيئًا. تعودتُ الآن على حالة الانتقال الغريبة بين العالمين.

خفتتْ الحركة، ثم تلاشت تمامًا. انتظرنا خمس دقائق حتى ساد الصمت، ثم دفعت ليلى الباب بحذر، وهي تطلّ برأسها للخارج.

هنا امتدت يد غليظة وأطبقت على رقبتها، مما ذكرني باليد العظمية!

في الظروف العادية كنتُ سأفعل ما تفعله كل فتاة في مثل هذا الموقف: سأصرخ!

لكن بما أنني قادمة من عالم توجد فيه ثعابين مخلوقة من النار، وأطفال غامضون؛ فقد بدا لي ما أراه أمامي هو نوع من المزاح!

انزلقتُ إلى أسفل، وأمكنني أن أسمع طقطقة ظهري، بسبب الحركة المفاجئة. كانت ليلى تُصدر حشرجة من حلقها، والوغد يرفعها لأعلي بقوة رهيبة، وانتبهتُ أنه عملاق ذكرني بنظيره الذي قابلته بأسفل، والذي سأقابله بعد قليل مرة أخرى!

هنا ارتجف قلبي. ارتجف بعنف. ارتجف كعصفور يجد نفسه في القطب الشمالي بغتة!

لقد كان هو! بالفعل هو! نفس الحجم المخيف، ونفس القناع القاني الذي يضعه على وجهه، ونفس العينين الداكنتين! الاختلاف الوحيد أنه كان يرتدي ثياباً فاخرة. أظنها ماركة إيطالية شهيرة!

كدتُ أطيل تأملي في وجهه لولا نظرات أختي المرترعبة لي، ولسان حالها يقول***" فيما تحدقين يا حمقاء؟ افعلي شيئاً؟"***.

بينما العملاق لاحظ نظراتي هو الآخر، لكنه كان عمليًا؛ فمد يده الأخرى إلى رقبتي، لكنني تحركت أسرع منه، ومددتُ يدي إلى مكنسة موجودة بجوار الباب.

هناك استخدامات عدة للمكنسة. منها وظيفتها الأصلية المعدة لها، ومنها دفع رأسها في جنب عملاق غامض يهدد حياتك!

أطلق صرخة متألمة، وهو يترك رقبة ليلى، فتسقط هذه الأخيرة على الأرض الصلبة، ثم تقفز بسرعة، وهي تسحبني من ذراعي، لنغادر للخارج. ننزل-وثبًا-على الدرج. نقفز لخارج البناية!

شعرتُ بالسعادة لوجود سيارة الأجرة تنتظرنا.

"انطلق. انطلق"

صرختُ بالكلمة، وأنا أدفعها لداخل السيارة، في نفس اللحظة التي خرج فيها مطاردنا، لكنه لم يلحق بنا لحسن الحظّ!

كنت ألهثُ بقوة، بينما ليلى تحدق أمامها كمن لم تستوعب الأمر بعد، وهنا فعلتْ الشيء الذي لم أفعله أنا: انفجرتْ في البكاء!

ووجدتها تُلقي برأسها في صدري، وهي تنهنه، ومن الجميل أن السائق لم يدسّ أنفه أو عينيه في الأمر، فقد احترم اللحظة، وصمت تمامًا.

***

في المكتب جلسنا نرتشف عصير الليمون. يبدو أنه المشروب الرسمي لكل من يذهب إلى والدي! كان أبي يُجري أعماله التي لا تنتظر تأجيلًا، أو قد تنتظر، لكنه يهوي تعذيبنا بالانتظار! هذا قبل أن يغلق هاتفه، ويولينا وجهه.

"والآن أريد معرفة ما حدث بالضبط؟"

كدتُ أتطوع لإنجاز هذه المهمة، لكن والدي عاجلني:

"ليس أنتِ؛ فالأمر لا يحتمل مبالغاتك السخيفة!"

كتمتُ غيظي، وتراجعتُ في مقعدي، وأمسكتُ بكأس العصير. يبدو أني سأستمتع كثيرًا بما سيحدث في الدقائق القادمة. حكت له ليلى الأهوال التي رأيناها، والجديرة بفيلم رعب رخيص؛ فبدا من ملامحه أنه لا يُصدقها!

ما هذا الهراء الذي تقوله؟ لو كنتُ في مكانه لشعرتُ بذات الشيء، لكنني سآخذ في الحساب اتفاق اثنتين على نفس الحدث. بعد دقيقة من الصمت البليغ، فاجئني بطلب غريب:

"انتظري بالخارج يا سلمى؛ أريد شقيقتك في أمر ما"

شعرتُ بغيظ منه، ومن طريقته في التعامل معي، وكأنني عبء ثقيل عليه، ولست ابنته كليلى! نظرتُ لتلك الأخيرة؛ فوجدتها تنظر لأسفل بخجل!

رفعتُ رأسي في شموخ، وأنا أغادر مكتبه.

***

انتظرتُ بالخارج. بالقرب من المصعد أسندتُ حقيبتي الصغيرة على الأرض. في الواقع لم تكن ثقيلة جدًا، لكن ألم جسدي يزداد. ربما الأحداث التي تعرضتُ لها كانت تشعله من الألم أكثر، أو أن الأمر يرهقني ويضاعف من تعبي!

لكن ثمة تغييرًا في تلك المرة. الزمن يتباعد. عندما كنت في شقة نجيب السمسار، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثم انتقلت إلى هناك، ثم عدتُ وجدت نفسي مع أختي نختبئ من ذلك العملاق الأنيق! فهل معني هذا أن حالتي تزداد صعوبة، وهل يمكن ألا أعود في مرة من المرات؟!

أرعبني التخيل. أرعبني جدًا!

كنتُ غارقة في فيض الانفعالات الذي يغلي بداخلي. أحاول السيطرة على غضبي الكاسح من أبي، ومن تصرفه المهين، ومن جهلي بالأحداث الأخيرة ولماذا تحدث، والألغاز التي أتعثر فيها كلما خطوتُ خطوة!

أفقتُ من كل هذا على قدوم أحدهم، من ممر مجاور.

كانت امرأة عجوز، ترتدي ثيابًا رثَّة خشنة، وهي ترمقني من خلف عينين كليلتين، متعبتين؛ مما جعلني أتساءل إن كانت تراني بالفعل؟

فجأة توقفتْ، وراحت تحدِّق إلى وجهي في صمت مستفز! نظرت حولي؛ لعلي أجد أحدًا آخر؛ لكني لم أجد! يبدو أنها تقصدني! شيء ما في الوجه المتغضِّن يبدو مألوفًا.

"هيا بنا"

نظرتُ؛ فوجدتُ ليلى قادمة. التفتُّ للعجوز؛ فلم أجدها!

***

جلستُ حائرة، متخبطة في أفكاري الخاصة، وظلام الخارج يبدو واضحًا خلال نوافذ المترو. ثمة مقولة في فيلم ماتريكس الشهير "*الجهل نعمة*". لا أوافق على هذا. يمكن القول بأن الجهل نقمة حقيقية!

أنت لا تعرف ماذا يحدث، ولماذا يحدث، وكيف توقفه إن كانت هناك طريقة أصلًا لفعل هذا؟

دائمًا يُعرَّف الجنون بأن صاحبه لا يعرف بأنه مجنون، فهل معني هذا أنني مجنونة أم ماذا؟ من المطمئن أني أجري هذا الحوار مع

نفسي. طبعًا سبب هذه الأفكار السوداوية أن أختي العزيزة لم تر العجوز!

أنظر إلي ليلى؛ فأجدها تفتح كتابًا، لكن أصابعها المرتعشة جعلتني أوقن أن ثمة أمرًا جللًا قد حدث في اجتماعها المغلق مع أبي! لم تتحدث معي، ولم تصارحني! لو كان الجميع يتآمر على جعلي أُصاب بالجنون؛ فقد نجحوا بجدارة!

أنظر إلى وجوه الركّاب، على سبيل تزجية الوقت، ولكي أبعد الخفافيش التي تحلق بداخلي، وهي تنقر بشراسة في قاع جمجمتي!

أتمنى ألا أنتقل لذلك العالم الآن. صحيح أنني سأتعامل معهم بطريقة ما مجهولة-ككل شيء آخر مجهول منذ بدأ هذا الشيء-لكنني لا أحب أن أنتقل وسط الزحام. برز وجه فجأة مألوف. عجوز، ترتدي ثيابًا رثة خشنة، وتبدو نائمة من التعب!

إنها هي!

وهنا نهضتُ على الفور، وتجاهلتُ نظرات ليلى القلقة، والأنفاس الخانقة، والألم الذي يخترق كل عظمة في جسدي.

لابد أن أعرف من هي. لماذا أشعر بأن مفتاح اللغز عندها؟ وقبل أن أقترب منها بأمتار قليلة، وجدتها تفتح عينيها، وتستدير نحوي مباشرة، وتبتسم، وكأنها تعرف بمقدمي، وقبل أن أنطق بحرف، وجدتُ نفسي هناك!

***

الفصل الثالث عشر

أقف في الممر الصخري. لا وقت للغضب. للدهشة. للحيرة. لاجترار الأفكار. لابد من ردود فعل سريعة. أنظر حولي بحذر، وانتبهتُ في تلك اللحظة أنني أمسك المشعل بيدي. لن أسأل كيف حدث هذا؟ أحاول أن أستعيد تفاصيل الممر الذي هربتُ من خلاله مؤخرًا.

لكن هذه المنطقة جديدة. نعم. أنا لم أحضر لهنا من قبل. لكن الممر نفسه فعلًا يشبه الذي كنتُ فيه سابقًا. الممرات تتشابه على كل حال.

أتقدم بحذر. لا يوجد سوي اتجاهين: أمامي وخلفي. مرة أخرى تبرز مقولة طارق بن زياد الملفقة إلى ذهني. أواصل سيري، حتى أشرف على القاعة الصغيرة.

القاعة التي وجدتُ فيها الصندوق بالفعل. الصندوق الغامض الذي يثير فضول واهتمام هؤلاء الصغار. كنتُ قد قررتُ أن أفتحه. حقيقة الفضول يقتلني كما قتل القط من قبل، وكأنني أمرّ بذات الانفعالات التي مررتُ بها من قبل، لكن من خلال أحداث جديدة طازجة!

أبحث ببصري عن الصندوق. غريبة! أين هو؟ هنا لمحتُ ذلك الظلّ الذي يستطيل من خلفي، فنظرتُ بسرعة؛ لأجده قادمًا، ولولا القناع الذي يرتديه لظننته يبتسم بتهكم، هذا إذا لم تجلجل ضحكته في ذلكم المكان اللعين!

العملاق!

وزيادة في النكاية بي، كان يحمل الصندوق في حضنه، وكأنه يضمّ طفلًا صغيرًا إلى صدره!

هنا، وجدته يثب نحوي وثبة هائلة، لأجده أمامي مباشرة، وفي اللحظة التالية كنت....

***

كنت في زقاق ضيّق، عفن الرائحة، وأكوام من أوراق الجرائد القديمة ملتفة، ومتكومة، بما تحمل من طعام فاسد، بينما هناك سرب محترم من القطط والكلاب تتناول ولائمها!

كنت في أبشع وأقذر مكان يمكن تخيله. حتى أسفل البئر أكثر نظافة من هنا، بغضّ النظر عن حجرة الجثث، فهذه قصة أخرى!

أنهض، وكل عظمة من جسدي تعلن ألمها الصارخ، بالإضافة إلى حالة من الألم والضياع والصداع القاتل؛ جعلني أترنح كمخمورة!

استندت للجدار، ثم تذكرتُ أنني في مكان قذر أصلًا، وما أن مرَّ هذا بذهني، حتى أحسستُ بذلك الشيء اللزج في ظهري، والمُلطّخ به الجدار، فأصدرتُ صيحة تأفف، وأنا أبتعد بسرعة.

بحثتُ عن حقيبتي. فوجدتها وسط أكوام القمامة. أنظر لأعلي فأري النجوم اللامعة تزين صفحة السماء. يبدو أنني هنا من فترة. نظرتُ في ساعتي؛ فوجدتها الثامنة مساءً!

حالتي تزداد سوءًا بالفعل!

أخرجتُ هاتفي، ولاحظتُ أنه مغلق، وطلبتُ ليلى.

يأتيني صوتها المذعور الصارخ:

"أين كنتِ؟"

"في مكان ما من أرض الوطن!"

قلتها بتهكم، محاولة أن أداري على ارتباكي المزرى، فوجدتها تهتف:

"أيتها الحمقاء! متى تتعاملين بنضج مع حياتك ومعنا؟"

قلتُ بضيق:

"ما الأمر؟!"

"إنكِ غائبة منذ ساعات!"

قلت بدهشة، وأنا أنظر في ساعتي. فعلًا لقد تأخرتُ!

" معقولة!"

"اركبي سيارة أجرة وتعالي فورًا. والدتك تكاد تموت من البكاء بسببك!"

وأغلقتْ الهاتف في وجهي؛ بما أنبأني عن سوء موقفي وحالتي معًا! خرجتُ من الشارع الضيق لآخر واسع، واستوقفتُ واحدة من السيارات المنطقة بسرعة السهم. سألتُ السائق عن هذا المكان؛ فأخبرني بأنها منطقة عشوائية بالمقطم!

عظيم! لم أبتعد كثيرًا إذن!

بدأتُ أنتبه أنني جائعة، ومعدتي تقرقر بشكل عنيف، وكأن معرفتي بهذا جعلني أشعر بالنهم!

بعد نصف ساعة تقريبًا، وصلتُ للمنزل، ووجدتُ ليلى تقف على الباب، قلقة متوترة. بشكل ما سرّني هذا التصرف، كما سرّني بكاء أمي عليّ. يبدو أن المرء يحتاج لموقف كهذا كل فترة ليدرك أنه مهم لأناس آخرين! سحبتني من ذراعي، وهمست:

"ولا كلمة!"

كان باب المنزل يقود لطريق يؤدي للصالة، وآخر إلى ممّر يطل على حجرات الطابق الأول. أمكنني-من تلك الزاوية-أن ألمح أبي، ورجل آخر يجلس، لم أر وجهه. فقط يبدو ظهره العريض مسترخيًا على أحد المقاعد.

في حجرتها، راحت تقصّ عليّ ما حدث، وما هو لا أتذكره بطبيعة الحال. لقد غادرتُ المترو لسبب مجهول، وراحت ليلى تنادي عليّ دون أن ألتفتُ إليها أصلًا.

حاولتْ الاتصال بي، لكن الشبكة كانت منعدمة. وعندما وصلتْ البيت كررت المحاولة؛ لتجد هاتفي مغلقًا هذه المرة!

"المشكلة أنني لا أتذكر متى أغلقته!"

قلتها، وأنا أشيح بوجهي. قالت بعد لحظة:

"أحدث الأمر مرة أخرى؟"

أومأتُ برأسي في قنوط:

"حدث. وما يهمك أنتِ؟ أعتقد أنكِ ما زلتِ تتشككين في سلامة عقلي!"

"كنتُ"

"ماذا؟"

"لقد تغيرت الأمور."

"وما الذي جدّ؟"

"الذي جدَّ أنني صرتُ مشاركة لك في جنونك يا سلمى!"

"لم أفهم!"

"هل تعرفين من بالخارج؟"

"أبي ورجل آخر"

"هذا الرجل هو..."

قبل أن تنطق الاسم ظهر أبي على عتبة الباب. كان وجهه يكاد ينفجر من الغيظ، لكنه كان يصارع من أجل السيطرة على ذلك المخلوق الأحمر الذي يتراقص تحت جلده؛ مما ذكرني بالثعبان الناري إياه!

بلهجة آمرة، تعودت أن تُنطق لتطاع:

"تعاليا"

تبعناه، وأنا أحاول أن أسبقه لمعرفة هويّة الرجل. بعد لحظات كنتُ أقف أمامه، وأنا أهتف بذهول:

"عم نجيب!"

***

الفصل الرابع عشر

وقفتُ متجمدة في مكاني. كدتُ أصرخ فيه ليعترف من هو حقًا، أو يتركني لكي أتحسس بشرته! ربما كان هناك قناع متقن لوجهه! خواطر كانت تزدحم في عقلي، لا محلّ لها من الإعراب طبعًا. الرجل الذي رأيناه يُقتل أمامنا، ها هو ذا ينبعث من بين أنياب الموت، التي لم يعد منه أحد من قبل!

هل مات فعلًا، أم أن هناك من ينتحل شخصيته، ويريد إرباكنا، أم أننا قد جُننا فعلًا؟

الفرق الوحيد أن جنوني سبق ليلى. هل يوجد بذلك البيت الغريب ما يؤثر على عقولنا، ويجعلنا نتجه لهاوية الجنون؟!

للأسف لا يوجد خبير في مثل هذه الأمور؛ فمعظمهم نصابين، والذين يفهمون يتوارون في الظلّ، وغالبًا يموتون ولا يسمع بهم أحد!

عدت لمسح ملامح الرجل:

وجهه الأسمر الداكن، وعيناه اللامعتان، وابتسامته الودود التي يمتلك السماسرة رسمها على شفاههم لزوم المهنة، ولإعطاء العميل طابع الثقة والراحة!

"هل أنت بخير يا عم نجيب؟"

ضحك الرجل:

"بخير يا آنسة. نفس السؤال طرحته أختك عندما رأتني! ما الأمر؟"

"ألم يبلغك والدي؟"

هكذا سألته ليلى؛ فقال أبي على الفور:

"كنت سأخبره، لكنني آثرتُ أن تكونا هنا، حتى يكون الموضوع أمامكما"

وابتسم بشماتة، وهو يقول:

"وبالمناسبة عندما كنتما عندي في المكتب، وفور انصرافكما اتصلت بعم نجيب لأطمئن عليه. كان متعبًا قليلًا، لكنه كان بخير. أتفهماني؟"

كان يرسل رسالة إلينا؛ أنا وليلى!

ثم قال للرجل:

"إنـهما تريدان معرفة تاريخ هذا البيت"

اتسعت ابتسامة الرجل:

"آه. البيت"

قلتُ بلهجة متحدية رغمًا عني، وأنا أفكر أن معرفة طريقة وقوفه أمامنا بعافية أهم من تاريخ البيت. على الأقل في تلك اللحظة:

"لقد رأيناك تموت أمامنا!"

قال الرجل، وهو يرتشف من قدح القهوة بكل هدوء العالم، وكأنما لم يُقتل أمامنا منذ ساعات:

"إنـها مجرد دعابة يا آنسة! دعابة!"

قلتُ مندهشة:

"دعابة؟"

قالت ليلى، وقد فاض بها الكيل:

"والرجل الذي هاجمنا! هل هو دعابة أيضًا؟"

قال بأسف:

"أعتذر إليكما عما حدث. ولكنه ابني؛ فقد أخبرته عنكما، وأنكما تزعجاني بشدة؛ فما كان مني إلا أن قمنا بتنفيذ هذه التمثيلية حتى تتركاني في حالي!"

قالت ليلى بدهشة:

"أمعقولٌ هذا؟"

قال أبي بهدوء:

"لقد أخبرني بتفاصيل ما حدث، وقد بدا نادمًا على ما فعله"

قلت ببرود:

"اكشف عن بطنك يا عم نجيب!"

هتف أبي:

"سلمى! ماذا تقولين؟"

قلتُ بذات اللهجة المتحدية:

"لقد رأينا الدم يسيل من ثقب في جسده! دم حقيقي ذو قوام كثيف ورائحة مميزة! لا تخبرني بأن التمثيل يصل إلى هذه الدرجة من الإتقان!"

تراقص الغضب بوضوح على ملامح وجهي، لكن ضيفنا الغامض قال رافعًا يده:

"من حقك يا آنسة أن تقولي هذا. من حقك"

وكشف عن بطنه بحركة سريعة؛ برفع قميصه لأعلي، وكأنه يقطع علينا حبل التردد والرجعة! لم يكن هناك ثقب. فقط ما يبدو أنه جرح قديم ملتئم. بينما امتقع وجه ليلى في حيرة وارتباك، كنتُ أرمق الجرح بحيرة أكثر؛ فقال موضحًا:

"إصابة قديمة منذ حرب ثلاثة وسبعين!"

جلستُ على المقعد، وأنا أحدِّق فيمن حولي ببلادة! هل جننت حقًا؟

قلتُ بصوت تائه بائس:

"وماذا عما أخبرتنا به؛ أن الأمر غير متعلق بالبئر، بل بما تحته؟!"

قال ببساطة:

"هناك مقبرة تقبع تحت البيت بالفعل. ولهذا أنصحكم بتركه!"

" مقبرة؟"

هزَّ رأسه:

"هذه المنطقة أصلًا كانت تعجّ بالمقابر، وهذا هو السبب الذي جعل جدّي الأكبر يرحب بتأجير البيت لذلك الغريب!"

قلت في حذر لم أدر سببه:

"والغريب؛ أين جثته؟"

ضحك:

"ومن أدراني يا آنسة؟ لابد أنها صارتْ ترابًا الآن!"

قلت لنفسي: أنه يكذب! حتمًا يكذب! ثمة شيء غير منطقي في الأمر.

قالت ليلى:

"لابد أن هذا هو سبب هذه الرائحة الكريهة التي تملأ البيت!"

قال أبي بضيق:

"لماذا لم تخبرني بهذا منذ البداية؟"

قال السمسار بسرعة:

" لقد أخبرتك بألا تقترب من القبو، أو تدع أحدًا من عائلتك يقترب منه! اليس كذلك؟"

قلت بسرعة:

"ماذا يوجد في القبو؟"

قال نجيب، موجهًا بصره لأبي، وكأنه لم يسمعني:

"لقد كنتُ جشعًا طمَّاعًا، وما كان لي أن أوافق على بيعه لكم. لاحظ أنك كنت تعرف سمعته السيئة، ومع هذا فقد وافقت!"

قال أبي:

"لقد وجدت أنه منزل لا يُترك! ثم إنه أتي توصية من صديقي الدكتور فوزي!"

قال السمسار:

"وأنا وجدتها فرصة لكي أتخلص من ذلك البيت؛ فاقتنصتها!"

ثم قال، هو ينظر لأبي:

"هل أخبرك الدكتور فوزي بأنه كان يسكن في هذا البيت من قبل؟!"

قال أبي بدهشة:

"ماذا؟"

هزَّ نجيب كتفيه، وابتسم بسماجة:

"هل تظن أن الصديق سيرشح لصديقه بيتًا لم يكن مستريحًا فيه من قبل؟"

قلتُ بحنق:

"لماذا تركه إذن؟"

قال نجيب:

"أعتقد أن الحادثة الشنيعة التي تعرضتْ لها أسرته جعلته يقطع علاقته بأي شيء يحمل رائحتهم!"

قال أبي:

"أي حادثة؟ فوزي لم يخبرني بشيء عن هذا؟"

هنا قالت ليلى، ولقد لفت انتباهها شيءٌ ما:

"هل هذا دم يا سلمى؟"

"ماذا؟ دم!"

"هناك لطخة كبيرة على ظهرك! لم أكن ألاحظها في البداية بسبب لون ثوبك الأحمر"

قلت، وأنا أحاول التركيز:

"ربما ليس دمًا. لقد كنت في مقلب قمامة، ولابد أن بعضًا من الطعام علق بثوبي!"

قال أبي بضيق:

"وماذا كنتِ تفعلين في مقلب القمامة؟"

ارتبكتُ؛ مما جعله يتذكر:

"ثم أين كنتِ؟!"

قالت ليلى بسرعة، وقد لمحتْ حيرتي:

"لقد كانت صديقتها جيهان تحتاج إليها في موضوع ما، ونسيتْ أن تخبرنا بهذا يا أبي!"

أشفقتُ عليها. لم تكن معتادة على الكذب؛ فلابد أنها الآن تبذل جهدًا مضاعفًا من أجل أن تفعل هذا. أمكنني أيضًا أن أري وجنتيها الحمراوين في انفعال.

أما نجيب فقد تجرأ، ومدّ يده إلى ظهري، ولمس اللطخة القانية بأصابعه، ثم شمّها؛ ليقول بدهشة:

"إنه دمّ فعلًا!"

***

الفصل الخامس عشر

بعد منتصف الليل بساعتين كان البيت كله مستيقظًا. أبي يصرخ، ويهتف ويتوعد، بينما أمي تأخذني في حضنها، وكأنها تخشي أن تفقدني مرة أخرى. شعور لم أجربه من قبل. ربما من أيام طفولتي. يقولون إن الحضن دفء. كنتُ أظنها جملة بلاغية ليس أكثر!

هنا تكلم أخي أحمد، ربما لأول مرة منذ زمان بعيد:

"دعونا نرتب الأمر بشكل منطقي"

نظرنا إليه في دهشة؛ فأكمل بصوته البارد المحايد:

" كل شيء بدأ عندما انتقلنا لهذا البيت، وكان من الممكن أن نقول إن سلمى أصابها الجنون! في الظروف العادية كنتُ سأستمتع جدًا بهذا الاقتراح"

رمقته بغيظ، لكنه تجاهلني كعادته:

".. لكن ليلى تؤكد أنها كانت معها وقت أن قُتل نجيب، الذي عاد بطريقة ما من الموت. في الظروف العادية كنت سأقول بأن ليلى تشارك شقيقتها الصغرى في كراهية البيت، لكن هناك شيء يمنع هذا بقوة"

قال أبي بتهكم:

"وما هو أيها العبقري الصغير؟"

قال أحمد بجدية:

"أن البيت قديم. قديم جدًا. إنه مناسب جدًا لهواية ليلى وعشقها للأماكن القديمة. إنها لن تخاطر بالتغطية على سلمى بأي حال لكي تترك مكان تمنتْ أن تعيش فيه للأبد!"

بدا من ابتسامة ليلى أنه محق فيما قاله. وأنا الذي كنتُ أظن أنها تفعل هذا من أجلي!

"وما هو الشيء الثاني؟"

سألته أمي، وقد دخلت في المناقشة:

"الشيء الثاني أننا تأكدنا من أن البئر عادية، مثل أي بئر أخرى، لكن في ذات الوقت نجيب يؤكد أن ثمة مقبرة تحت المنزل؛ مقبرة قديمة!"

قالت أمي بذعر:

"لماذا لم تخبرني يا كمال؟"

"لم أكن أعلم هذا، وحتى لو علمت هل كنتِ تظنين أنني سأهتم؟ كفي تخاريف! الميت ميت!"

"يبدو في حالتنا هذه أن الأمر غير صحيح؛ فحسب أقوال ابنتيك فإن ذلك الميت كان يشرب معك القهوة منذ ساعات!"

"كفّ عن التحذلق، وأخبرنا بحقيقة الأمر أيها الذكي؟"

هزّ رأسه:

"أنا لا أخبركم بحقائق هنا، لكن بما أننا نتأكد من الأشياء، وحتى نقطع الشكّ باليقين؛ فلدينا ما نتأكد منه أولًا"

قال أبي:

"ماذا تقصد؟"

ابتسم أحمد بهدوء الحكماء القدامى، لو كانوا يبتسمون بهذه الطريقة!

***

سألني:

"هل أنتِ متأكدة من الشارع؟"

"متأكدة"

"إذن هذا هو أوله؟"

"أعتقد"

"تعتقدين؟!"

" لقد وجدتُ نفسي فجأة في مقلب قمامة، وفاقدة للوعي لبضع ساعات! هل تعتقد أني في حالة مزاجية تسمح لي بالتدقيق في كل شيء حولي؟"

كنت أتكلم بعصبية. راحت شخصيتي الباردة الواثقة، تتشقق، وتخرج منها هذه الأشياء الغريبة، التي قد تبدو للبعض إنسانية جدًا، لكنها مزعجة جدًا. أبي يرمقني بصمت، ويبدو أنه شعر بما يفعله فيّ بطريقته الاستجوابية هذه.

قال بصوت خافت:

"عندما يحدث الأمر أخبريني"

"أي أمر؟"

قال وهو يقود السيارة لعمق الشارع:

"هذا الشيء الذي يحدث لكِ باستمرار!"

كان يلوح بيده بحرج، وكأنما يخجله الاعتراف بهذا الأمر؛ مما جعلني أبتسم على الرغم مني. قال بضيق:

"هل تجدين كلامي مضحكًا؟"

" لا. بل سعيدة أنك تصدقني أخيرًا"

"تقولين هذا وكأنني أعاملك كعدوتي"

تمتمتُ:

"ألا تفعل هذا؟"

" ماذا؟"

"على كل حال سأخبرك"

معني هذا أنه صدقني! هل يصدقني فعلًا؟ كنت أشعر بالانتشاء. صحيح أنهم لن يقدموا لي مساعدة ذات جدوى؛ فأنا من أذهب إلى هناك، وأواجه المخاطر، ثم أعود لأحكيها لهم، إلا أن الأمر لا بأس به. كأنما يسعدك أنك لست في هذا الأمر وحدك!

ثم قال محطمًا فرحتي:

"لم أقل إن ما ترينه حقيقي! ربما تصدقين بوجوده فعلًا، لكنه غير حقيقي! نحتاج لزيارة طبيب نفسي قريبًا!"

قلت بغضب:

"طبيب نفسي! هل تريد أن تذهب بي لطبيب نفسي؟ من الأفضل أن تفعل هذا بابنك أحمد! ألا تلاحظ أنه شاب غير طبيعي بخلاف كل الشباب في سنه؟ ألا تلاحظ أنه طالب فاشل، يقضي العام في عامين؟"

قال بغضب:

"ومن أدراكِ أنني لا أعرف ما الذي أصابه؟!"

"ماذا؟"

تجاهل سؤالي، وقال مغضبًا:

"لقد صدقت أختكِ ليلى! أنتِ عنيدة، ولن تعترفي بحقيقة أنكِ فقدتِ عقلك!"

رفعتُ صوتي في تلك المرة:

"ماذا؟"

قال بلهجة متحدية:

"لهذا أبقيتها في المكتب، وطلبتُ منكِ الخروج! أخبرتها بما أنوي فعله، وطلبتُ منها أن تقنعكِ رويدًا رويدًا! فكرة الذهاب لطبيب نفساني ليست سيئة لهذه الدرجة!"

ليلى الخائنة! نتقدم خطوة في علاقتنا الأخوية، ونعود عشرات الخطوات للخلف بسببها!

والدي يتقدم أكثر لعمق الشارع. كان هذا اقتراح أحمد، بأن نفحص الشارع الذي وجدنا فيه الدم. كان رأيي الشخصي أنني قتلتُ العجوز، أو تشاجرتُ معها؛ فأدي الأمر لمقتلها، أو أنها أُصيبتْ، ووليتُ هاربة،

أو أتي أحدٌ آخر وقتلها، أو أن كل هذا مجرد لعبة متعددة المستويات؛ لكي أنزلق لمصيدة خفية من نوع خاص، ولأكتشف كم أنا حمقاء!

كان الشارع نظيفًا بشكل مُحيّر. لا توجد أكوام قمامة!

"إنه مُنظّف حديثًا"

هكذا قال أبي. نظرتُ له بدهشة؛ فقال مفسرّا:

"هناك رائحة معطر جوّ تملأ الجو من أجل أن تغطي على الرائحة القذرة. إنه نفس النوع الذي استخدمته أمكِ في تعطير جوّ المنزل فور أن قدمنا إليه. لكن الأمر لا ينجح على طول الخطّ. لابد من أثر ضئيل"

قلتُ متهكمة:

"كنت أظن أن أحمد هو العبقري الوحيد في العائلة!"

هزّ كتفيه في بساطة، وكأن الأمر مسلمة رياضية لا شكّ فيها.

ثم قال:

"وهذا لا يعني أن ما مررتِ به شيء حقيقي. وارد جدًا أن يقوم أحد بتنظيف الشارع؛ قد يكون أحد السكّان، أو قد يكون عامل النظافة، وقد يكون أنتِ!"

لم أنطق بكلمة. لو نطقتُ فسأقول أشياء سأظل طول عمري أندم عليها!

هززتُ رأسي ببرود بمعني أن الأمر لا يعنيني بالمرة.

"بالمناسبة: غدًا نحن مدعوون لتناول العشاء مع شريكي الدكتور فوزي. لا أريد أيًّا من هذه السخافات التي تعشش في عقلك أن تتفوهي بها!""

***

"إنها لفتة كريمة من صديقك هذا!"

قالتها أمي، وهي تقوم بتطبيق الثياب. كان أبي يسترخي على أريكته، وهو يمسك بذلك الكُتيِّب الصغير الذي يحمل بعضًا من أشعار محمود درويش. كان أبي يحبه، ويعتبر نفسه مشروع شاعر لم يتم! كدتُ ابلغه برأيي في الهراء الذي يكتبه، لكني لم أجد جدوى من فتح باب جديد من أبواب الجحيم عليّ! يكفيني ما أنا فيه.

قال أبي، وهو يبتسم:

"برغم أن صداقتي بفوزي بدأت منذ أشهر معدودة فحسب، لكني لم أر أكرم من الرجل. فما أن عرف بانتقالي إلى هنا، حتى أصرَّ على الاحتفال بهذه المناسبة، وأخبرني بأن وجودنا معًا في يوم هكذا لن يُنسى. ثم أخبرني أن وجود ليلى وأحمد وسلمي ضروري! وحجته أن الحب لا يكتمل إلا بوجود العائلة!"

قلت بغيظ:

"حكيم صديقك هذا! صديقك الذي لم يخبرك بأنه كان يسكن هنا من قبلا، ولم يخبرك بتلك الحادثة التي لا نعرف عنها شيئًا!""

رفع سبابته محذرًا:

"كما أخبرتك: لا تنطقي بكلمة عما حدث، أو ما تتصورين أنه حدث، والأفضل أن تلتزمي الصمت تمامًا!"

شعرتُ باختناق، وذهبتُ لحجرتي. الهواء كئيب، والنفس تضيق بما تحمل، وأنا وحيدة في عالمي الذي أعرفه جيدًا. على الأقل في ذلك العالم العجائبي يمكن أن أدرك أهميتي.

صحيح أن هناك من يطاردونني لأسباب مجهولة، وهناك من يقوم باستغلالي؛ إلا أن هذا يدُّل على أهميتي، لكن في عالمي هذا؛ فأنا مجرد فتاة مزعجة، فارغة العقل، ومدللة!

دخلت ليلى حجرتي. رمقتها بضيق، وأنا أقول متذمرة:

"ماذا تريدين؟"

"ترين أنني مجنونة! ها!"

قالت بحرج:

"لقد فاجئني أبي بالأمر؛ فما كان مني إلا أن سايرته"

قلت بغضب:

"ليست مسايرة؛ بل تملُّق. تريدين أن تكوني حبيبة أبي. أليس كذلك؟"

قالت بدهشة:

"ما هذا السخف؟"

قلتُ، وأنا أغذِّي كلماتي من ذلك الجرح الممتد بطول الأفق:

"لطالما تبرعين في فعلها. طالما تأخذين ما تريدينه، وأنا الفتاة التافهة ذات العقل الفارغ في العائلة!"

اقتربتْ مني:

"سلمى حبيبتي. أنتِ تهذين!"

أشرتُ إليها بعصبية:

"أرأيتِ؟!"

تنهدتْ في غيظ:

"ماذا تريدين يا سلمى؟"

قلت بسرعة:

"لا شيء. فقط، اتركيني في حالي!"

همَّتْ بأن تقول شيئًا ما، ثم غادرتْ حجرتي دون كلمة. كانت ليلة باردة، موحشة، ككل الليالي هنا؛ مما جعلني أسحب الغطاء ليحتوي جسمي بالكامل، وكانت هذه هي المرة الأولي التي أتمنى أن يأتي فيها أزيز النحل ويأخذني لهناك!

لكنه لم يفعل!

***

الفصل السادس عشر

كان الدكتور فوزي في منتصف الخمسينات. كل شيء فيه يدُّل على الثراء الفاحش، الثراء الذي يجعل كل امريء يتنهد لوعة وحسرة. كنا في ذلك المطعم الفاخر الملحق بواحد من فنادق القاهرة الفخمة، والكل يروح ويجيء من أجل تلبية طلباتنا.

كان أبي شاحب الوجه قليلًا برغم أناقته المعهودة؛ مما جعل أمي تقول همسًا:

"أما زلت تشعر بالتعب؟"

مالتْ ليلى إلي أمي، وقالت بصوت خفيض:

"ما الأمر؟"

"أبوكِ يشعر ببعض التوعك"

استجلب أبي ابتسامة، أكدَّتْ تعبه بالفعل، وهو يقول:

"لا شيء. فقط بعض الألم وسيزول مع مقدم الطعام!"

ورفع عينيه إلى مضيفنا، وقال:

"ألن تطعمنا يا دكتور. إننا جوعى!"

قال الرجل بأريحية، وهو يقهقه:

"بعد قليل يا صديقي العزيز. بعد قليل"

ثم قال باهتمام:

"أنت شاحب الوجه! هل أنت بخير!"

قال أبي بابتسامة فاترة:

"يبدو أن انتقالنا لذلك المنزل لم يكن مناسبًا لصحتي!"

قلت بهدوء:

"لم يكن مناسبًا لصحتنا جميعًا!"

رمقني والدي بغضب. عظيم! على الأقل فيما يتعلق بي، فهو يتحول لطاقة غاضبة تكاد تسحقني!

قال ليلى في محاولة منها لتلطيف الجوّ:

"دكتور في أي شيء؟!"

ابتسم لخفة دمها، وقال بهدوء:

"أمتلك مؤسسة مهتمة بالأبحاث العلمية في البيولوجيا الجزيئية"

"هه!"

كانت ليلى خبيرة لا يُشق لها غبار فيما يتعلق بالآثار. لكن فيما يتحدث عنه الدكتور فوزي؛ فقد بدت أشبه بتلميذة فاشلة! سرِّني هذا وأثلج صدري للغاية.

التفت الدكتور فوزي لأبي، وقال مبتسمًا:

"هل أعجبك البيت الجديد؟"

ابتسم أبي وقال بصوت متحمس لم يقض على شحوب وجهه:

"إنه رائع!"

قلت بحذر لم أدر سببه:

"هل تعرف شيئًا عن البيت يا دكتور فوزي؟ لقد أخبرنا نجيب السمسار أنك كنت تقيم فيه من قبل!"

قال ببساطة:

"لقد أقمتُ فيه عامًا كاملًا!"

كانت معلومة مُحيِّرة بالنسبة لي. أتي الطعام أخيرًا، وبدأنا نأكل بشراهة، وكأنها محاولة كلٌ منا للهروب من شيء. الوحيد الذي كان يتناول طعامه بهدوء هو أحمد، وكأنه يملك الزمن كله في قبضته. كان يتحدث كتابة مع صديق له، وأنامله تتحرك بسرعة مذهلة لا تصدق على الآيباد. صحيح أن سرعتي جيدة في الكتابة، لكن ليس بهذا الشكل! قلت في سرِّي فيما معناه: أنني لو ظللتُ ألف عام فلن أبلغ ربع سرعته في الكتابة!

بعد الطعام، بدا أن والدي قد تحسن قليلًا، وهو يثرثر مع مضيفنا، لكن شحوب وجهه قد ازداد. لا أعرف إن كنتُ أتخيَّل هذا من باب الشماتة، أم حالته الصحية بدأت تسوء فعلًا!

قالت أمي:

"هل أنت متزوج يا دكتور فوزي؟"

كان سؤالًا بريئًا بالنسبة لأمي، التي لم تكن تعلم عن الحادثة التي تعرّض لت لها أسرته، والتي لا أعلم عنها أي تفاصيل، لكن وجه الرجل امتقع وشحب، ثم استعاد نضارته بسرعة، وهو يقول:

"متزوج، ولديَّ أولاد مثل القمر، لكنهم ليسوا هنا"

"خسارة! كنتُ أتمنى أن أقابلهم!"

قال وهو يبتسم:

"احذري مما تتمنينه يا سيدتي!"

لم تفهم أمي ما يقول؛ فقال فوزي بحزن:

"لقد ماتوا منذ سنوات طوال!"

وضعتْ أمي يدها على قلبها. وهي طريقتها في إظهار ألمها. بينما قال فوزي ببساطة:

"إنهم ينتظرونني في عالم أفضل من هذا العالم القبيح!"

وافقته بهزَّة من رأسي؛ مما جعل ليلى ترمقني باستنكار؛ فتجاهلتها تمامًا.

"كيف حدث هذا؟"

سألته أمي. قال بعد لحظة:

"حادثة طريق!"

بدا أبي أنه قد فوجئ بتلك المعلومة؛ فحدَّق إلي وجه صديقه بدهشة؛ فقال فوزي معتذرًا:

"أعلم أنني لم أخبرك بهذا من قبل، لكن وسط هذه الجلسة العائلية الدافئة لا بأس من فتح بعض الجراح القديمة؛ فهي لم تعد مؤلمة على كل حال يا صديقي!"

وأخرج من جيبه صورة قديمة، مغلفة بعناية، وقال بمرح:

"هذه هي صورة تجمعنا كلنا"

حدَّق والدي إلى الصورة. لم نر ما رأي. هل زاد شحوبه أم نتخيل؟! بدأتْ أصابعه ترتجف. سأله فوزي بقلق:

"ما الأمر؟"

همس:

"معدتي!"

قال:

"أيها المسكين! ما كان لك أن تقبل دعوتي!"

حاول أبي أن يبتسم، لكن جدار التماسك انهار كجدار من قشّ!

***

قال الطبيب بأن علي أبي أن يستريح. هكذا رقد في فراشه، بينما أنا أتساءل إن كان مرضه طبيعيًا أم ماذا؟ الحقيقة أنه بمرور الأيام كانت حالته تسوء، ومما زاد الطين بلة أن الاطباء عجزوا عن فهم ما أصابه!

لكنهم قالوا بأن حالته ستستقر وتتحسن، ومع ملاحظة أمي الدقيقة له بدأت الأمور في الاستقرار فعلًا. كنت غارقة في هواجسي كالمعتاد، وقد بدا أن العالم الآخر الذي كنت أنتقل إليه بطريقة غامضة قد ذهب وولَّي، بل إنني رحتُ أتساءل: إن كان ما مررتُ به حقيقي أم ماذا! ذكريات ذلك العالم تغدو ضبابية شاحبة في ذهني، لكنني-يا للعجب! - كنت أتشوَّق إليها!

ولجتْ ليلى إلي حجرتي بخطوات هادئة كعادتها، لكني شعرتُ بوجودها؛ فقلت بغلظة بدون حتى أن أنظر إليها:

"ماذا تريدين؟"

دخلت في مجال رؤيتي، ولوَّحتْ بعلبة صغيرة من الصدف، ذات لونٍ قانٍ تستقر في يدها:

"هدية!"

قلت ساخرة:

"هل هي رشوة؟!"

قالت بضيق وهي تتنهد:

"سلمى! لا تكوني عنيدة! تقابلي معي في منتصف الطريق!"

قلت بذات الغلظة:

"أنا مشغولة!"

"فيمَا أيتها المهمة؟"

بحثتُ في عقلي عن شيء؛ فلم أجد سوي:

"مرض أبي يقلقني!"

لم يقلقني في الواقع. كنتُ أعتبرها مجرد وعكة وسينتهي الأمر على خير. لكن جملتي أشعلتْ قلقها وهي تجلس بجواري.

"ماذا يدور في ذهنك؟"

"هل ترين أن مرض أبي بسبب هذا البيت؟"

رددتْ:

"هذا البيت؟"

قلت بغيظ، وأنا أشير حولي:

"هذه الرائحة! ألا تشمينها؟"

"لقد اعتدتها! أنت رأيتِ المجهود الخارق الذي فعلته أمي من أجل التخلص منها! كل هذه المنظِّفات و.."

قاطعتها بعصبية:

"ومع هذا فهي موجودة هنا في الأثير، تزكم أنوفنا، وتذكرنا كل ثانية بالمكان الذي نحن فيه!"

قالت بعد لحظة:

"حسب كلام نجيب بأن الموتى قد تحللوا منذ زمن بعيد!"

"هل تصدقين أكاذيبه بخصوص تلك اللعبة؟"

"أي لعبة؟"

"لعبة موته يا حمقاء! أتصدقين تفاصيل تلك التمثيلية السخيفة؛ فقط لكي يتخلص من إلحاحنا؟ أليس من الأفضل أن يعطينا بعض المعلومات المزيفة التي تروي فضولنا فحسب!"

"كلام معقول!"

ثم ناولتني العلبة:

"خذي هديتك!"

أخدتها منها بشرود، ثم تذكرتُ نذالتها السابقة؛ فلويتُ وجهي غاضبة؛ فقالت بمرح:

"ستعجبك. أنا متأكدة أنها ستعجبك!"

هززتها، وأنا أقرّبها من أذني:

"ماذا يوجد في العلبة؟"

ابتسمتْ، وهمَّت أن تتكلم؛ فقلت بسرعة:

"ولا تقولي إنها تحتوي على فيل!"

انطلقتْ ضحكة صافية من قلبها.

قلت فجأة:

"لابد أن نحفر في أرضية القبو؛ بحثًا عن مصدر هذه الرائحة الكريهة!"

***

الفصل السابع عشر

في ظروف أخرى كان أبي سيرفض. لكنه كان مُتعبًا، ويريد أن يعرف. جلس على مقعد، يتلفع ببطانية، وهو يرتجف. لماذا يا أبي؟ لماذا نحن مضطرون للإقامة هنا؟ أعرف أنه لا يملك خيارًا. أعرف أنني مشتاقة نوعًا لذلك العالم. أعلم أن المعرفة أحيانًا تكون مدمرة! أعلم كل هذا، ومع هذا فأنا أحفر بأظافري بحثُا عن إجابات، أو عن حتفي!

كنا ثلاثة. ليلى وأحمد وأنا. أبي يجلس في ركن القبو. أمي بجواره، وقد قمنا برشّ بعض المياه، حتى لا يجد الغبار فرصته في خنقنا!

ثم شرعنا في الحفر، وكل واحدٍ منا يُمسك بمعول، يضرب به الأرض بقوة، متحسسًا طريقه لأسفل. كان من الأفضل أن تكون عملية الحفر في حدود ضيقة، ودون أن يعلم أحد خارج نطاق العائلة؛ فلو وجدنا شيئًا سيئًا، واضطررنا لبيع المنزل؛ فمن المهم ألا تزيد سمعته سوءًا!

هذا إذا لم تتكفل سمعته السابقة بذلك بالفعل!

كان العرق يسيل منا بغزارة. ربما كان هذا هو المجهود البدني الأكبر الذي بذلناه في حياتنا.

كانت ليلى مستمتعة بما تفعل. لابد أن الحمقاء تتخيل نفسها تقوم باكتشاف مقبرة قديمة. هذا حلمها الذي تودُّ تحقيقه ذات يوم.

بينما أحمد علي النقيض يتصرف بشكل احترافي تمامًا، وبرغم العرق الذي يؤكد أنه بشري من لحم ودم مثلنا، لكنه لم ينطق بكلمة، وهو مشغول بالحفر بتركيز شديد! لأول مرة، منذ فترة طويلة، أراه بعيد عن الآيباد، وحتى هذا الأخير كان معنا في القبو!

أفخر بأن لأخي ضميرًا حيًّا كهذا!

أما أنا؛ فكنتُ أشتم نفسي في سرِّي لذلك الاقتراح الأحمق! ماذا سنجد تحت طبقات التراب؟ هل يمكن أن ينكشف السرُّ أخيرًا، يفصح عن وجهه القبيح، يروي ظمأنا للمعرفة؟

بعد ساعتين تقريبًا، وبعد شرب ما يقرب من عشر زجاجات ماء باردة؛ ارتطم معول ليلى بشيء ما! شيء له صوت مكتوم. لمعت أعيننا، وتوقفنا عن الحركة.

تجمد الزمن، حتى الغبار نفسه تخيلتُ أنه توقف عن حركته المستمرة في فراغ القبو الخانق، احترامًا لتلك اللحظة المنتظرة!

تمتمتْ ليلى برهبة:

"هل...؟"

تحركنا من جديد، لكن بسرعة هذه المرة، بحماس مجنون لإنهاء ما بدأناه. وفي النهاية بدا لنا ما يشبه تابوت من الخشب، يستقر بصمت مهيب تحت طبقات التراب!

***

وقفنا نحدِّق إلى التابوت الراقد أمامنا، وقد رفعناه بصعوبة إلى سطح الأرض. الرائحة إياها تنبعث منه بوضوح. رائحة كريهة، مع رائحة عطرية. هذا هو المصدر إذن!

قالت ليلى بدهشة، وهي تقترب من السطح العلوي للتابوت:

"إنها كتابة باللاتينية!"

سألتها:

"باللاتينية!"

هزَّتْ رأسها بانبهار. حلمها يتحقق حرفيًا. تابوت مدفون تحت عمق تحت الأرض، وعليه كتابة لاتينية؛ ماذا تريد أكثر من ذلك؟

سألها أبي، وهو يقترب منها، وقد غلب فضوله شعوره بالتعب والاشمئزاز من الرائحة، التي كانت سببًا-على الأغلب-في مرضه:

"ماذا تقول الكتابة يا ليلى؟"

كم واحدة لها شقيقة تجيد اللاتينية؟! أنا من هاته الفئة المحظوظة!

مررَّتْ ليلى أصابعها على التراب؛ لتزيحه عن بقية الكلمات، ثم قالت ببطء:

"هنا يرقد القرد الأحمر، بعد حياة مديدة، مُحاطًا بخطاياه، وبرغبته العارمة في الخلاص!"

ما هذا الهراء؟!

في تلك اللحظة سمعنا ذلك الصوت بالخارج. هرعتْ أمي مغادرةً القبو، وبعد دقيقة سمعتُ صرختها المدوِّية، والتي راحت تتردد كالصدى بين ممرات المنزل وحجراته!

أبي ينهض بصعوبة، وقد نسي تعبه، وهو يهمس باسم أمي فزعًا، بينما أحمد وليلى يثبان للخارج؛ ليعرفا جلية الأمر!

أما أنا؛ فقد حدث ذلك الشيء. أزيز النحل يقترب من مسامعي. أنظر إلي أبي؛ فأجده يستند إلى الجدار، وهو يتحرك ببطء. أصرخ:

"أبي! إنه يحدث مرة أخرى!"

يتوقف، ينظر إليّ.

أقول:

"أشعر أنني سأذهب دون عودة يا أبي!"

لأول مرة أري نظرة خوف في عينيه. هل هي نظرة حب أيضًا؟ ألمحها كالطيف، وجسدي يهوي على التابوت الراقد تحتي، قبل أن ينطفئ وعيي من جديد!

***

ها قد عدت!

أقف في الممر، ممسكة بالصندوق. أتطلع إلى الدماء التي تغرق يديّ. أمامي يرقد العملاق، وهو يخور، والدم يتدفق من جرح قطعي برقبته. الدم يسيل ناحية قناعه، ويلوثه. ينعكس تحت ظلال المشعل المعلق بجواري. يبدو أن ثمة معركة طاحنة حدثت بيني وبينه، وتغلبتُ فيها عليه!

غريبة!

شعرتُ بالفخر من نفسي. يبدو أنني صرتُ صلبة العود! ألقي نظرة باردة عليه. نظارة خالية من أي انفعالات.

أتركه يُحتضر، وأنا أسرع الخُطي. توقفتُ في سيري فجأة.

أنا لا أعرف الطريق. نظرتُ حولي في حيرة. ثم سمعتُ الصوت القادم من بعيد بنبرة مكتومة. صوتهم وهم يتحدثون.

صوت الأطفال الذين جلبوني هنا لهدف غامض. بما أنني قد عرفتُ طريق الخروج، فعليّ أن أعرف ما الذي يوجد في الصندوق. وضعته على الأرض. كان خفيفًا بعض الشيء. طبعًا لا توجد به كنوز من أي نوع.

إذن، فما هو المهم فيه بالنسبة لمجموعة من الأطفال؟ المشكلة أن الصندوق مغلق بطريقة عادية جدًا؛ قفل كبير صدئ؛ وبالتالي فلو قمتُ بتحطيمه فسوف يعلمون!

ولحظتها لن آمن عقابهم المؤلم؛ والذي سيكون فريدًا وأسطوريًا دون شكّ. بقنوط حملتُ الصندوق إليهم. أعينهم الطامعة الجشعة تتسلق فوق خشب الصندوق المربع، وكأنما يريدون فتحه من بعيد، من قبل حتى أن تلمسه أيديهم!

يتجهون إلى الكوخ العجيب القابع بالأدغال. ملأتُ عينيِّ بمنظر الثلج المتراكم. أخبرني أحدهم بأن الجليد عندما يكسو الأنحاء سيغدو المشهد لا يُحتمل!

لا أظن هذا. في كل الأحوال سيظلّ فاتنًا. ولجنا للكوخ. سررتُ لوجود المدفأة، لكن دون أن أقترب منها كفاية. كانت الطفلة تنتظرنا. الطفلة التي لا أشكّ أنها ستغدو أجمل فتاة في ذلك العالم!

اقتربتْ من الصندوق. ومدَّتْ يدها الرقيقة البيضاء إليه، وهي تحمل مفتاحًا صغيرًا، دسَّته في الثقب؛ فانفتح ببساطة. أطللتُ برأسي؛ لأجد مجرد مخلب!

أجل، مخلب أحمر! كل هذا من أجل ذلك المخلب؟! مرة أخرى اللون الأحمر يتكرر، وكأن له أهمية خاصة لا أدركها. يمسكون بالمخلب. يقتربون من النار المتوهجة. أكاد أقسم أن النار زاد لهبها قليلًا، عندما اقتربوا منها!

أم هي تخيلات؟!

تأتي الطفلة بإناء، وتمسك بالمخلب وتضعه فيه. ثم تعطي لكل واحد من أخوتها شفرة حادة، ويبدو أن كل واحد يعرف جيدًا ما هو المطلوب منه بالضبط.

يمررون الشفرات على أذرعهم، ويقطعون اللحم لتسيل الدماء في الإناء! ندبة لن تزول للأبد. أو ربما تزول. ومن أنا حتى أقرر ما الذي سيكون أو لا يكون؟ أتابع الحدث الفريد الذي يحدث أمامي، وكأنه أشبه بطقس ما وثني! طقس وثني غامض، يقوم به بعض الأطفال في كوخ عجيب وسط الثلج، وفي عالم مجهول لا أعرف عنه شيئًا، ويتكلم أهله العربية!

بعد أن امتلأ الإناء بالدم، يتوسطه المخلب الذي لم يكن يحتاج للدماء أصلًا لكي يكتسب لونًا؛ فما زال لونه هو الأكثر قتامة وتميزًا!

تقترب الطفلة-حاملة الإناء-من النار. كالعادة هي من يقترب، وكأنها تختص بصفة ما لا توجد فيهم. تضع الإناء؛ فيتعالى لهب النار أكثر. تحتوي الإناء. بعد قليل-وبعد أن حُبست أنفاسنا من الترقب-تمدّ

يدها إلى اللهب، وتخرج الإناء. أمكنني أن أري المخلب وقد ذاب وسط الدم. صار أشبه بالسائل الذي شربته عندما كنتُ هنا لأول مرة!

يخفق قلبي. هل هي مصادفة؟ لا توجد مصادفات في هذا العالم؛ كل شيء متشابك، ومتصل ببضعه البعض. كل شيء يتمازج ويتعانق ليصنع نتائج جديدة غير متوقعة.

هنا قاموا بفعل في غاية البشاعة والاشمئزاز. لقد راحوا يشربون هذا السائل! السائل المكون من دماءهم والمخلب!

"ماذا تفعلون؟"

"كما ترين. نشرب"

"أنتم مقززون! تشربون الدم! لماذا؟"

"وهل هذا سؤال؛ لكي نكبر طبعًا!"

***

نظرتُ إليهم ببلاهة! عما يتحدثون بالضبط؟

قال كبيرهم:

"هذا المخلب ينتمي لأسطورة قديمة هنا؛ تتحدث عن القرد الأحمر"

أردد بدهشة، والأفكار تتحرك على هيئة عواصف بعقلي:

"القرد الأحمر؟"

قال:

"بالطبع؛ توجد قرود حمراء وزرقاء وسوداء، لكن القرد الأحمر فريد من نوعه؛ إنه الوحيد الموجود في هذا العالم بعد فناء جنسه!"

القرد الأحمر؟**!** القرد الأحمر الذي وجدنا تابوته منذ دقائق في عالمي الآخر**!** القرد الأحمر الذي توجد جثته في القبو**!** القرد الأحمر الذي تسببتْ رائحته الكريهة في مرض والدي**!**

القرد الأحمر الذي**...**

هنا أدركتُ الحقيقة، التي باتت واضحة وضوح الشمس:

البئر ممرٌ بين عالمين بالفعل؛ بين عالمي المعتاد، وبين العالم الأصلي الذي يعيش فيه القرد الأحمر!

***

الفصل الثامن عشر

واصل الصبي:

"القرد الأحمر من جنس معمر يُدعي الناغو، يمتاز بالحكمة وبعد النظر، والبعض يقول بأنهم يرون المستقبل! ويقولون أيضًا أن مخالب يديه العشرة، يحمل كل مخلب منها خاصية عجيبة. البعض يقول إنه بعد أن قُتل، مُزّق جسده، وتبقت مخالب يديه، والتي نُهبت وأُخذت. إلا هذا المخلب. البعض الآخر يقول بأنه على قيد الحياة، لكنه تخلي عن مخالبه طواعية! الإشاعات والأساطير المنسوجة حوله تفوق الحصر. لكن رؤيتنا للمخلب الآن تؤكد أنه موجودُ بالفعل، أو كان موجودًا!"

قلت في سرّي: أنه موجود فعلًا، وإلا كيف أتيتُ من عالمي حيث توجد جثته هناك؟ هل يكون هو الغريب الذي حدثنا عنه نجيب. الغامض الذي أتي ذات يوم لجدّه، واستأجر منه البيت مدي الحياة، ثم انقضت حياته، ودُفنت جثته تحت طبقات التراب؟!

سألته، محاولة أن أسيطر على فض الأفكار المزعج في ذهني:

" وهذا المخلب يقوم بـ..."

" .. جعل أمثالنا يكبرون"

" أمثالكم؟"

"نحن من جنس آخر لا يكبر؛ جنس يظل هكذا حتى يموت!"

"أتريد أن تقول بأنكم تظلون أطفالًا هكذا حتى تموتون!"

"هذا صحيح. لكننا نحتاج لأن نكبر ونصير رجالًا للضرورة القصوى؛ حياتنا تعتمد على هذا!"

يا له من سيل هادر من المعلومات. قرد أحمر ومخالب، وأطفال لا يكبرون!

"أي ضرورة هذه؟"

قال بإشفاق:

"لا أعتقد أن المعلومة مهمة بالنسبة لكِ، وخاصة أنك سترحلين"

قلت بحذر لم أدر سببه:

"أرحل؟"

"أنت تعرفين سرّنا، ولابد من أن ترحلي"

كررت في بلاهة، وقلبي يتوثب خوفًا من المجهول القادم:

"أرحل؟"

مدت الطفلة يدها للنار مرة أخرى، وخرجت هذه المرة بحيوان الرانجوس، الشبيه بالأفاعي الضخمة في حديقة الحيوان!

أشعر بنُذر الشرّ هذه المرة!

راح الثعبان ينمو بسرعة مباغتة، وهمستْ الطفلة في رأسه، بصوت رفيع، مبحوح، يتناقض مع الصورة التي قد توحي بها تقاسيم وجهها الجميل والبريء:

"اقتلها!"

استدار الثعبان نحوي، وراحت رأسه تتضخم، وتبرز من فمه أنياب معقوفة مميتة! يا لها من ميتة!

هنا، اقتحم الكوخ أحدهم! طار الباب بعيدًا، وظهر العملاق. الدمّ يتدفق من رقبته بكثافة، وكان يمسك ببلطة حادّة، يلتمع نصلها.

شعرتُ بامتنان لحضوره. أُفَضّل أن أموت ببلطته، على أن أموت بأنياب هذا المخلوق البشع!

هنا أطلق الثعبان صرخة، وهو يستدير بغضب للعملاق، ويتجه نحوه، وهو ينزلق على الأرضية. قفز العملاق نحوه دون تهيب، وهوي بالبلطة على جسده. وجدتُ رأس الثعبان يطير بعيدًا!

ماذا يحدث؟ إنه يقتل الثعبان وليس أنا! خطر لي أنه أقسم على إنجاز مهمة قتلي بنفسه! ربما هو طقس ملعون آخر. لكن الرأس لم يستقر طويلًا.

لقد راح يذوب، متحولًا إلى ما يشبه الحمم، والتي راحت تنزلق على الأرض حتى وصلت جسد صاحبها، والتحمت به. نظرتُ حولي أبحث عن الأطفال فوجدتهم قد هربوا! الأوغاد!

الثعبان ينهض مرة أخرى. يتجه نحو العملاق، الذي تصرف سريعًا. وثب نحوي، وحملني على كتفه، وغادر الكوخ، وهو يهرول بثقله وقوته-برغم إصابته القاتلة، التي تبين أنها ليست قاتلة! - وسط الثلوج!

كنتُ في حالة صدمة كما هو متوقع. جسدي مستسلم دون مقاومة، بينما خوفي وهلعي وتساؤلاتي في أوج عنفوانها! وعيي ينسحب مني. لا. لا. ليس هنا، وليس مع هذا. إنه ينوي بي شرًّا. ماذا سيفعل بي؟ هل يعاقبني بطريقته الخاصة؟

تذكرت النمل الأحمر؛ فاقشعر بدني. هنا سقطت رأسي على كتفه الغارقة بدمه، وبرغم بشاعة الرائحة إلا أنني نمت! ثم صحوتُ؛ لأجده ما زال يسير! قوي لدرجة أنه لم يكلّ ولم يملّ.

يواصل سيره. رأسي يتأرجح بإعياء. أنام مرة أخرى. ثم أستيقظ. لأجد نفسي قد خرجتُ من الغابة في تلك المرة، ورحتُ أرتقي-بواسطته طبعًا-جبلًا مائلًا. كان كالحًا، ذو صخور تميل للسواد، وتنبعث منه رائحة منفرة. ثم أنام للمرة الثالثة!

***

أستيقظ. أشعر بالدوار. بالخوف. الحيرة. ثمة تيار هواء منعش يأتي من الشمال. خمنتُ بأنني فوق قمة الجبل؛ لهذا يمكنني أن أري-على البعد-سُحب بيضاء تتراقص بنعومة بالقرب من القمة. وكانت هناك أبنية غامضة مغطّاة بالثلج هناك بالقرب من خطّ الأفق.

على بعد أمتار يجلس العملاق على صخرة، ويقوم بشيّ حيوان ما. يبدو أشبه بالغزال، كما أراه في الأفلام.

يضعه فوق النار المشتعلة، وقد توسطه قضيب من المعدن، راح يحركه باستمرار. عندما شعر باستيقاظي نظر نحوي بقناعه المخيف هذا. خفق قلبي. نهض من جلسته؛ فنهضتُ. دقق النظر في الحيوان المعلق أمامه، وراح يتفحصه بعينيه، وكأنما يريد البحث عن شيء بعينه؛ شيء ضائع هناك!

ثم مدّ يده وانتزع قطعة من اللحم، واقترب مني، ومدّ يده بها إليّ. أنظر بدهشة إليه. إنه يريد مني أن آكل!

أقول مستوثقة:

"هل تريد أن آكلها؟"

لا يبدو على وجهه أدني انفعال بسبب ذلك القناع اللعين. فقط يومئ برأسه. أخذتُ قطعة اللحم من يده. كانت ذات رائحة شهية، جعلت معدتي تتلوي. تذكرتُ أنني جائعة. الأحداث الأخيرة، والتنقلات بين

العالمين أجهدتني جدًا. أنتزع قطعة صغيرة أتذوقها بطرف لساني، ثم ألوكها بين أسناني.

كانت طيبة المذاق. أنهيتها في لحظات، ومررتُ يدي على بطني في امتلاء. صحيح أنه كان يرتدي قناعًا، لكن عينيه كانتا تنبئان عن سروره.

كنتُ مخطئة. لم يكن يريد بي شرًّا منذ البداية. لقد كان يريد حمايتي. أتذكر الآن ما حدث. يا لي من متسرعة!

همستُ:

"شكرًا"

بدا أنه فهم معني الكلمة، فهزّ رأسه مرة أخرى، ثم عاد يواصل طهو اللحم. ابتسمتُ، وأرحت رأسي. يمكنني الآن إكمال نومي في اطمئنان. حقًا كان النوم لذيذًا. نوم غير متقطع، وغير مضطرب. هذه فائدة أن يكون هذا العملاق هو الحارس الخاص بي!

وغدًا يومٌ جديد.

***

لأول مرة أتبين روعة المكان. مروج خضراء مكسوة بالثلج على مدي البصر. والأكثر روعة ذلك النهر. نهر صغير متجمد وسط الثلوج من أعلي. أتجه إليه، فينهض العملاق متحفزًا.

ابتسمتُ، وأنا أقول:

"لا تقلق"

جلس في مكانه. عظيمة هي لغة الإشارة. دون كلمات كثيرة تُقال. أسير مع الماء المتجمد. كالمنومة مغناطيسيًا. أسير، أسير، أسير، ثم أتوقف، وأنا ألهث؛ مما أنبأني بأنني سرتُ لمسافة طويلة جدًا.

بالقرب من شجرة عملاقة لا أعرف نوعها-ككل شيء هنا-وجدتها تجلس!

العجوز!

المرأة التي قابلتها في شركة أبي بالقرب من المصعد، والتي قابلتها مرة أخرى في المترو، والتي شككتُ أني قتلتها بسبب ما، واختفت دون أن تخلف ورائها أثرًا!

العجوز التي انتقلت معي إلى هنا بطريقة غامضة، وكأنني أعرف أنا الأخرى كيف انتقلت إلى هذا العالم!

ابتسمتْ بركن فمها. نفس الابتسامة التي قابلتني بها في المترو، قبل أن تولي هاربة! كأنما تريد تذكيري، وكأنما ما حدث بين الابتسامتين قد سقط سهوًا في هاوية النسيان!

"أنتِ؟!"

نظرتْ إليّ، ثم تلاشت أمامي. أتلفتُ حولي بحثًا عنها. لا يوجد أدني أثر!

أولي وجهي ناحية الشجرة؛ فأجد مرآة قديمة، قد حُفر لها مكانُ في جذعها. بدتْ أشعة الشمس تنعكس عليها بشكل مبهر. أنظر للمرآة بحركة تلقائية كما كنتُ أفعل في عالمي، أطمأن على ملامح وجهي الجميل؛ فماذا أري؟

إنه ليس وجهي؛ إنه وجه عجوز، متغضن، بلغ من الكبر عتيًّا. إنه وجه المرأة التي رأيتها منذ ثوان!

جثوت على ركبتيِّ، وقد زلزلتني المفاجأة! الآن تعود القطع الناقصة، ومربعات البازل للتجمع بشكل مختلف، فتتضح الصورة، ويتكشف الغموض. بشكل ما يشبه المعرفة الكلية، أو الحدْس اليقيني أدرك ما حدث.

شركة أبي لم أقابل فيها العجوز، المترو لم يكن به أحد؛ كنت أطارد سرابًا غير موجود أصلًا في عالمي، لكنه كان موجودًا هنا! نُدف الثلج التي كانت تهبط على كفي المتغضنة، وصوتي الأجش المبحوح بما يتناسب مع عجوز مثلي. كلها دلائل راح عقلي يتجاهلها، ويقوم بتمويهها؛ حتى لا أُصدم، وفي ذات الوقت كان يُرسل رسله المخفيين في العتمة!

كانت العجوز هي من تنظر النافذة أثناء نومي. صورة عقلية قادمة من ذلك العالم الغريب!

لقد رأي الأطفال وجه العجوز. لقد عرفوا بأنني أعرف خبايا السجن/ القبو/ البئر بحكم وجودي فيه لفترة طويلة. لهذا أرادوا مخلب القرد الأحمر!

لهذا كان هناك فرق توقيت. في نفس اللحظة التي يأتي وعيي إلى هنا، كان وعي العجوز ينتقل إلى جسدي هناك. وكلما تكررت العملية تباعد الوقت. حتى حدث الانفصال التام!

الآن أنا مسجونة في جسدها الهرِم، والآن هي تمرح بجسدي الفتيّ الشاب، وتستكمل خطتها التي لا أعرف عنها شيئًا على الإطلاق! لقد كنتُ مجرد قطعة بازل بائسة، يُلعب بها، ثم أُلقي بها-في نهاية المطاف-في عالم مجهول!

ثم تلاشي كل شيء، وبرز مشهد واحد؛ أمي وهي تصرخ لسبب مجهول بعد مغادرتها القبو! ماذا سمعت، وماذا رأت؟

***

صار مستقبلي وحياتي محبوسين في ذلك الجسد للأبد!

هنا، سمعت صوت العواء! نهضتُ فزعة، ولمحتُ على البعد ذلك المخلوق الأشهب، الشبيه بدبّ أبيض هائل، لكنه ليس دبًّا. على الأقل لا يوجد دبّ له أنياب معقوفة، وبارزة، كما لو كان مزيجًا من الكلب والذئب معًا!

في الحقيقة كان بشعًا، وكان شكله يتغير كل ثانية! أنظر حولي باحثة عن مخرج. أين أنت أيها العملاق؟

يا لي من حمقاء! إنني لم أعرف اسمه حتى الآن. ربما لو عرفت اسمه لكان يُسرع لإنقاذي الآن. نظرتُ خلفي فوجدتُ ذلك الكهف. أسرعتُ إليه، وأنا أهرول. الغريبة أنني شعرتُ بوهن وضعف، وكأن معرفتي بأنني في جسد العجوز جعل الضعف يدبّ إلى أوصالي!

ألجُ إلى الكهف المظلم. أحبس أنفاسي التي غدت ثمينة! أشعر بذلك المخلوق يتشمم بأنفه بحثًا عن فريسة/ عني. انصرف. لن تجد فيّ ما يشبعك. إنني جلد على عظم. لا تضيِّعْ وقتك في صفقة خاسرة!

تلاشي العواء كما تلاشت العجوز من قبل، وإن كنت غير متأكدة من نقطة عدم عودته!

هنا انبعث الصوت العميق من قلب الظلمة الباردة:

"اجثي على ركبتيكِ؛ فأنتِ في حضرة القرد الأحمر!"

***

الفصل التاسع عشر

كان الصوتُ عميقًا، كما لو كان يصدر من بئر أكثر عمقًا؛ بئر مثل تلك التي وقعت فيها، أو التي لم أقع فيها بالأساس! الأمر معقد، وعندما أفكر فيه أصاب بالدوار، وخطر لي لو أن هناك بئر حقيقية هنا بالفعل؛ فسأسقط فيها دون مقاومة!

إلا أن الصوت راح يعيد أمره بلهجة صارمة شديدة، راحت تتسلل إلى عظامي بإصرار، وتنخر في أعصابي:

"اجثي على ركبتيكِ؛ فأنتِ في حضرة القرد الأحمر!"

القرد الأحمر؟

ذلك اللعين الذي كان أحد الأسباب في قدومي لهنا.

القرد الأحمر؟

ذلك الوغد الذي يتشبث بالغموض، يتسربل بالظلال، يتوارى في الظلمات، صانعًا أسطورته بين أصحاب القلوب الضعيفة!

كان قلبي كذلك، قبل أن يحدث ما يحدث؛ أما الآن فلا شيء لديّ لأخسره؛ فها أنا ذا مسجونة في جسد متغضن، حُكم عليه بالفناء، وروح تحاول الانعتاق بلا جدوى، وعالم قاس لا مجال للرحمة فيه!

هل معنى هذا أنه على قيد الحياة بالفعل؟

تقدمتُ للداخل قليلًا، وأنا أتكئ على عصاي، وفكرت بأن لديّ فرصة أن أخبره برأيي فيه فور أن أقابله. الأطفال الملاعين أخبروني بأن القرد لم يعد له وجود أصلًا؛ انقرض من العالم، ولم يترك خلفه إلا أثار تمتاز بقوي رهيبة، يتصارع الجميع عليها، لكنهم لم ينفوا وجوده أيضًا، ويبدو أن حقيقة وجوده من عدمها لا يقدر أحد – على حسب علمي-أن يبتُّ فيها.

وإذن، ما معني هذا الصوت الذي...

"اجثي على ركبتيكِ؛ فأنتِ في حضرة القرد الأحمر!"

الحقيقة أن خطواتي للداخل كانت تتزايد، الضوء يشتدّ، الصوت نفسه يعلو، ولدهشتي انتهي الأمر بي لأن أتوقف محدقة إلي بئر واطئة، بالكاد أسمع خرير الماء بأسفل. ألقيتُ نظرة لأسفل؛ لأجد مخلوقًا ما بشعًا يتسلق الجدران الضيقة، يجمع بين شكل القرد ومهارته، ويشبه تلك الصورة التي رأيتها ذات مرة على غلاف رواية أطفال قديمة!

تراجعتُ للخلف، لكن جسدي اصطدم بذلك الجسد اللزج، ذي الأنفاس الثقيلة الكريهة!

للحظات شعرتُ بأن الوجود تحوَّل لصورة ساكنة، وأنا أحدِّق إلى الوجه الجامد لذلك الرجل. كان طويل الشعر، واسع العينين، مفرط الطول-وكل شيء في هذا العالم مفرط الطول إلا أولئك الأطفال

الأوغاد! - وهو يحدق فيَّ بدوره، ولثوانٍ ظللتُ واقفة في مكاني ببلاهة، عندما ارتفع ذلك الصفير!

كلا؛ لم يكن طنين النحل إياه؛ لكنه صفير حادّ؛ يشبه سهمًا يشقّ الهواء بقوة، وطبعًا لم أدرك معناه إلا متأخرًا. لكن هنا بدأ الدم يتجمد حرفيًّا في جسدي (من هذه اللحظة سأعتبره كذلك مضطرة!)، وقد أخذتُ بالي من العينين الميتتين، والوجه الذي ما زال على جموده، ثم ارتفع بصري قليلًا محاولًا التغلب على مساحات الظلام الموجودة بشكل غير متناسق هنا؛ وكأن الظلام لا يتبع القوانين الفيزيائية المعروفة في عالمي! لكنني-برغم هذا الارتباك البصري-أمكنني أن أري حبلًا ينزل من أعلي، ويلتف حول رقبة العملاق!

بسرعة هبطتُ ببصري لأسفل، لأجد قدميه مرتفعتان بقدر شبر تقريبًا عن الأرض!

ابتلعتُ ريقي بصعوبة؛ إنه رجل ميت! مشنوق بمعني أدقّ!

يُحدِّق إليَّ بفضول الموتى، لو كان للموتى فضول!

أما تلك الرائحة النتنة فلم تكن أنفاسه العفنة؛ بل رائحة التحلل المنبعثة من جسده. شيء ما في وجهه يجعلني لا أريد إبعاد بصري عنه. شيء ما يقوم بعمل الأفعى، التي ترسل نظراتها البطيئة ذات القوة الكاسحة، والتي تقوم بعمل أقوي منوِّم يمكن للمرء أن يتناوله!

لي تجربة سابقة مع الرانجوس!

هنا انتبهتُ لذلك الألم الكاسح في كتفي في ذات المكان. أنظر بسرعة لأجد ذلك المخلوق قد نشب أنيابه فيَّ! هنا صرخت. صرختُ كثيرًا. صرختُ بما تسمح به حبالي الصوتية الواهنة. صرختُ وأنا أعرف جيدًا أنه لا حول لي ولا قوة، وأنني أفقد وعيي! كان الخاطر الأخير الذي مرق بذهني: هل يمكن أن أستيقظ لأجد نفسي في منزلي مجددًا وبين أهلي؟

***

كان هناك ضجيج. وكانت هناك عيون فضولية. وكانت هناك حركة دائبة. وكانت هناك أيادٍ تحملني برفق، فتضعني على فراش لين. يخفق قلبي. رباه! هل يمكن أن يكون ما تمنيته قد حدث؟

لكن بعد أن صفت الرؤية قليلًا، بدأ ذلك الوهم اللذيذ ينقشع عن ذهني، مخلفًا وراءه سحابة من الدخان، ترمقني متهكمة، وتضحك ملء فاها!

أحاول استيعاب المشهد، اختزان التفاصيل، لكن بلا فائدة؛ فالدوار ما زال يجعل عقلي يحلق فوق حافة هاوية تطلّ على منحدر جليدي قاتل! الريح الباردة تتلاعب بجسدي.

تعدني-بصمت مغرٍ-أنها ستلقيني لأسفل. أحاول السيطرة على ذلك الشعور القوي بداخلي، بأن أفتح عينيَّ أكثر. يتسرب الضوء

القوي، النقي نوعًا إلى الداخل. يعطيني قدرًا من القوة لكي أعتدل بحركة غريزية.

أجد ذراعًا تمتد لكي تسندني. في ظروف أخرى كنت سأرفض هذه اليد المساعدة؛ لكن الآن عليّ أن أحدد إن كنت ما زلت في ذلك العالم اللعين أم عدت إلى عالمي.

من خلال الوجوه الخشنة، الباردة قليلًا، وغير المألوفة؛ تأكدتُ أنني ما زلتُ هناك. أرفع يديّ إلى مستوي بصري؛ فأري التجاعيد الزرقاء، والجلد الواهن المشدود على عروق صغيرة لا تكاد تبين.

أنفخ بيأس محبط!

كنتُ في حجرة مستطيلة، مليئة بالأخشاب، ويجلس بجواري شاب في الثلاثينات، أزرق العينين، وسيم الوجه، يبدو منهمكًا في فحص جسدي، مما جعلني خجلة برغم معرفتي أنه ليس جسدي الحقيقي!

كان هناك جزء ممزق عند كتفي، فتذكرت العضّة. وتذكرتُ فيلمًا من تلك الأفلام التي تتحدث عن مصاصي الدماء والزومبي، وخطر لي أنني مرشحة جيدة جدًا لأن أكون واحدة منهما!

الخاطر جعلني أبتسم، ومع وجود ابتسامة في ذلك الظرف الغريب؛ فقد تبادلوا نظرة دهشة، جعلتني أشعر بالحرج أكثر. عجوز

تبتسم فما العجيب في هذا؟ اقترب الشاب ببصره من كتفي، ثم قال ببطء:

"عضّة التنين؟"

"ماذا؟"

سألته، وأنا أحاول الفهم.

سألني بعد لحظة صمت مستفزة:

" هل قام وحش صغير بعضِّ كتفك في الكهف الذي وجدناكِ فيه؟"

أومأتُ برأسي إيجابًا. تعالت الهمهمة. صارت أشبه بتصريح بأن خطرًا من نوع ما يبرز بأنيابه. والحقيقة أن التعبير هنا كان حرفيًا!

"هل تشعرين ببرودة بداخلك، وكأنك على حافة منحدر ثلجي؟"

سألني من جديد. نظرتُ إلى وجهه، وأنا التي كنتُ أظن بأنه لن يوجد شيء يدهشني بعد الآن!

"كيف عرفت؟"

تنهد. نظر للرجال. انتحى بهم قليلًا، وهم يتجادلون معه. يحاول أن يفرض وجهه نظره، لكنهم رفضوا بحسم، وأعينهم تقدح شررًا.

بعد قليل، عاد إليّ وقال:

"أنتِ سيئة الحظ!"

"أنت لم تأت بجديد!"

قال مفسرًا، وكأنه لم يسمع جملتي المتهكمة المريرة:

" التنين سيأتي من أجلك. التنين لا يترك أحدًا يحمل هذه العلامة لأكثر من يوم. التنين دومًا يحصل على فرائسه. لن ينفعكِ الهرب حتى لو حاولتِ!"

ما زلتُ أنظر إلى وجهه بغباء. ليست مزحة بكل تأكيد. تلك الوجوه المكفهرة، والشفاه المذمومة تؤكد أن ثمة كارثة محققة قادمة في الطريق، لكنني كنتُ مخطئة. ما نطقت به شفتا الوسيم هو ما كان كذلك.

"لهذا نحن مضطرون لحبسك حتى يأتي التنين ويأخذكِ!"

***

الفصل العشرون

كان أشبه بالقبو، أكثر منه بالسجن في الحقيقة. مظلم قليلًا، إلا من ضوء خفيف ناصع يتسرب من النافذة التي تقع تحت مستوي

الأرض بقليل، مع عدة ممرات تتفرع منه بشكل حلزوني أشبه بالمتاهة. نوعًا ما يذكرني بمنزلي في عالمي. أمكنني أن أري أكوام من الأخشاب الجافة تتكوم بإهمال. قطع الثلج تستقر عليها بسكون، أشعة الشمس تنعكس عليها، فتصدر نورًا خفيفًا سيكون من الرائع أن أستمتع به في ظروف أخري. لكن عليَّ، أن أنتظر مبعوث التنين في تلك اللحظة.

التنين؟!

لقد قال ذلك الوسيم-قبل أن يستحيل لوغد! - أنه يوجد تنين.

تنين؟!

إنهم يعرفون هذا المصطلح إذن في تلك الأرض. سبب دهشتي أنني كنتُ أقول ثعبان؛ فكان الأطفال يخبرونني بأنه الرانجوس. حتى شككتُ أنه الرانجوس فعلًا وليس ثعبانًا! آه يا دماغي! التفكير في ذلك العالم، وما يحدث فيه كفيل لوحده بأن يصيبني بالجنون! الأمر لا يستأهل أن يظهر تنين، مع عضّة تثير الرعب في قلوب هؤلاء!

ثم سمعتُ ذلك الهمس!

أو هي حركة خفيفة مكتومة على وجه الدقة، قادمة من الجدران. أقترب منها، أضع أذني عليها. أحاول أن أسيطر على زخم الأفكار بذهني، والذي يصدر ضجيجًا أكثر قسوة من أي ضجيج حقيقي!

بعد قليل، وبعد لحظات من الصراع، ومحاولة التركيز، أمكنني أن أسمع ذلك الأنين. الأنين المليء بالألم، والقادم عبر الجدار. هل هناك أحدُ هناك بالفعل، أم أنها هلاوس؟!

أبحث ببصري عن شيء يساعدني فتقع عيناي على قضيب من الخشب. في الحقيقة هو أقرب ما يكون لعصا، نُحتتْ بعناية، وصار طرفها العلوي معقوفًا. إنه مناسب تمامًا لعجوز مثلي تسير بصعوبة.

كانت عصا خفيفة ومتينة في ذات الوقت. راق لي الأمر، لكن السؤال الأهم هنا: هل تساعدني العصا على تحطيم الجدار ذاته للوصول لمصدر الهمس؟

***

لكنني-بعد لحظات من التفكير-قلت لنفسي أنه من الصعب أن يكون عبر الجدران. لعل الأقرب للمنطق-لو جاز أن نتحدث عن المنطق في مكان فيه رانجوس وتنانين! - أنه يكون هناك أحدٌ آخر بالقرب مني.

الفكرة نفسها جعلت القشعريرة تجتاح جسدي. أمسك بالعصا في موقف دفاعي، وأتحرك بحذر عبر الممرات. ما زلتُ أحتفظ بفضولي. أسير على الثلج الذي يغطي الأرضية، فتنطبع أثار الحذاء عليه.
الهمس يعلو؛ فأتأكد من وجهة نظري. الهمس قادم من نقطة ما بالقرب مني.

ثمة مخلوق آخر. همسه يجمد الدم في عروقي، وبدلًا من دقّ الباب بذعر، ومحاولة الخروج من هنا، ها أنا ذا أسعى إليه بنفسي. هل هي حماقة؟ محاولة للاقتراب من الموت؟ لا مبالاة وبلادة أصابتني، وكأنه لم يعد هناك شيء يهم؟ ربما. كل هذا وارد. لستُ في مزاج رائق على كل حال لكي أفند تلكم الاحتمالات.

ربما فيما بعد. لو كان هناك بعد!

لمحتُ ذلك الظلّ القادم من بعيد. أواصل سيري البطيء الحذر؛ لكي أصل لمصدر الظلّ هذا، وبالفعل قد وصلتُ، وها أنا أحدِّق إلي هيكل مخوزق في الجدار، ونظرة رعب تتبدي على ملامح الوجه العظمي المتقلص! شيء لا يمكن أن تصدق وجوده حتى تراه!

لكن ما الذي رآه صاحبنا هنا بالضبط؟

هنا انتبهتُ بأن الظلّ كان يتحرك، وهذا يعني بأن ثمة كان آخر هنا! هذا منطقي؛ وإلا فكيف يمكنني أن أسمع همس ذلك الميت المسكين؟!

الموتى لا يهمسون!

أقولها؛ لتبدو جملة غريبة، متحذلقة، لا تصدر إلا من فم أختي ليلى، والتي تهوي قول تلك الترهات.

هل هي ترهات فعلًا؟

كدتُ أغرق في دوامة من الأفكار الهلامية التي تأكل بعضها البعض؛ فلم أنتبه جيدًا لتلك البلطة الضخمة، وهي تتحرك نحو رقبتي!

***

بشكل ما استطعتُ تفاديها، برغم الجسد الضعيف، والحركة البطيئة، وبعد ثوان قليلة أدركتُ السبب. كان شابًا في الثلاثينات. وجه أسمر، عينان واسعتان، تحدقان فيّ دون أن ترمشان. خطر لي أنه مجنون. ألقي نظرة على البلطة وأنا أرتجف.

إنه مجنون بالفعل. لكن عندما رأيتُ الدم ينبثق من صدره، على مهل، وكأنما يخرج الدفعات الأخيرة منه عرفت سبب بطئه وضعفه. يسقط أرضًا. يزوم كأسد جريح. بشكل ما أشفق عليه. ماذا سمع وماذا رأي؟

"إنه هنا!"

يقولها بصوت هامس، يضجّ بالألم. كيف استطاع أن يجمع الحروف ويلفظها في جملة مفيدة؟

"إنه هنا!"

يكررها، وهو يغمض عينيه. الدم يتباطأ. أدركت بفزع بأنه يُحتضر. دخلت في تلك الحالة التي أتجمد فيها مرتبكة. أتساءل عن ردّ الفعل المناسب. توقفت أنفاسه. يلفظ أنفاسه بين يديِّ. توقف الزمن أيضًا. أتحسس الوجه الناعم، اللزج.

أهمس في أذنيه:

"أنا آسفة!"

أقولها صادقة من قلبي.

"إنه هنا!"

أنظر إلى شفتيه فأجدهما منفرجتين كما كانتا من قبل. نفس نبرة الصوت، نفس الجملة، نفس التحذير. هل أنا واهمة؟ رسالته الأخيرة تبدو مهمة جدًا. قد تتوقف عليها حياتي ذاتها!

تلك الخطوات!

الصوت قادم من ذلك الركن المظلم. يقترب مني، وهو يرفل في عباءته الحمراء، وتلك القلنسوة تسقط على وجهه، بطوله الفارع، ويده تمسك بخنجر لطيف الشكل، يصلح كتحفة فنية توضح في أحد المتاحف الشهيرة، لكنها كانت ملوثة بالدم، ويبدو أن صاحبها لم يكن يهتم بذلك أصلًا!

"لقائنا الذي تأخر كثيرًا يا عزيزتي!"

أرمقه ببلاهة، ثم أتراجع في جلستي للخلف، قائلة:

"أنت!"

قال بلهجة هادئة عميقة:

"أنا"

أخيرًا أقف أمامه بشحمه ولحمه؛ أمام القرد الأحمر!

***

الفصل الحادي والعشرون

إذن فهو أنت! أخيرًا أقف أمام تلكم الشخصية الأسطورية التي صدعني بها أطفال الثلج وغيرهم. الآن أدرك-من خلال التحديق المستمر إلى وجهه، والذي تبدو ملامحه تحت ظلال العتمة-أن عقلي كان يضيف الكثير من الخيال حولها.

"تبدين محبطة بعض الشيء!"

قالها، وهو يبتسم. هززتُ رأسي. هو لا ينقصه الذكاء بعد كل شيء.

"سمعتُ أنك ميت!"

قلتها، وأنا ما زلتُ أحدِّق إلى وجهه. وجه نحيل، ذو عينان ضيقتان، وثمة جرح طولي بالوجه يمنحه سمت البلطجية الأثير عندنا، وهو عنوان لشخص خاض معارك لا تنتهي في الأزقة.

من أين أتيت إذن بسمعة القرد الأحمر الذي لا يُقهر أيها المخادع؟

أقولها في سري. كان ما زال يمسك بخنجره الذي تجمدت بقايا الدم على نصله الحاد. يحركه على راحة يده بنعومة، فيغدو برَّاقًا، بينما تلتصق لطخات الدم برداء كمّه. يبدو غير مهتم أساسًا، وهو ينظر إلى وجهي بالمثل، مما أشعرني بتوتر. ثمة شيء خاطئ هنا.

"ميت؟"

رددها، وهو يبدو مندهشًا. ثم لمعت عيناه ببريق الفهم، وهو يقول:

"آها"

ثم أطلق ضحكة قصيرة بدت بغيضة جدًا لي، وهو يقول:

"من تظنيني؟"

أقول بحذر:

"القرد الأحمر"

"عظيم! أنت تعرفينني إذن!"

ثم وضع يده على صدره، وقال بفخر:

"أنا القرد الأحمر أشهر لصّ في الجانب الشمالي من الأرض المنسية. سعيدٌ أن سمعتي وصلت إليكِ"

"لصّ؟!"

أقولها بإحباط. لقد كنتُ مخطئة. الأحمق ينتحل اسم القرد الأحمر الأصلي، ويرتدي ثيابه أيضًا، من أجل أن يرّوج لنفسه!

لو كان الفقيد حيًا لسعد كثيرًا بوضع ذلك المعتوه في الزيت المغلي حيًا!

وإذن البئر كانت هي الطريقة الفريدة التي ينتقل من خلالها القرد الأحمر من عالمه لعالمي. عالمه جدٌّ غريب، ومدهش!

"أخبريني فيما تريدينني يا أماه؟ فور أن سمعتُ بقصتك، وأنكِ ترغبين في مقابلتي"

أنظر إلى وجهه بحذر، ثم أعود للنظر في وجه الشاب الذي يرقد بين ذراعيِّ ميتًا. واضح من الخنجر الذي يحمله القرد المزيف أنه هو من قتله! وإذن فأنا أجلس وجهًا لوجه أمام قاتل أثيم لن يتورع-فيما أحسب-عن تقطيعي إربًا!

كان عليّ أن أفكر بسرعة. عليّ ألا أنخدع بكلمة "أماه" هذه؛ فلن يقيدني احترامٌ زائفٌ من شخص مثله. لابد من حلٍّ. كانت يداي

تتحركان بعصبية، وهما ترتجفان، وهنا تلاقت أصابعي بشيء يتدلى من عنقي.

شيء أنتبه له للمرة الأولي، وهو أمر أدهشني حقًا؛ فيبدو أن طوال ارتدائي لذلك الجسد لم أنتبه لزينة الحيزبون، وما يتدلى من عنقها. كانت قلادة بسيطة الشكل. قلادة من الذهب، محفورٌ عليها ما يشبه زهرة اللوتس، والتي رأيتها ذات يوم في فيلم وثائقي مع ليلى أختي-كنتُ مجبرة في الواقع، وكنتُ أشعر بضجر عظيم-، وعلى الفور قدحت الفكرة في ذهني.

أمدّ يديِّ فأفكها من حول عنقي، وأضعها في قبضتي.

"سأعطيك قلادتي هذه مقابل شيء واحد"

مرّر خنجره على راحته مرة أخرى، وهي رسالة صامتة استقبلتها، لكنني لم أهتم كثيرًا بها:

"القوم الذين يحتجزونني هنا أصيبوا بالجنون؛ فهم يظنون بأنني مُصابة بعضة التنين، ويريدون تسليمي إليه! الأمر أشبه بقربان وثني كما أظن. أخرجني من هنا، وسوف أعطيك قلادتي هذه. ما رأيك؟"

كرّر مندهشًا:

"تسليمك للتنين؟"

"أجل، تخيَّل كيف يفكر هؤلاء المجانين؟"

كنتُ أقول هذه الجملة، وثمة خاطر مفزع يقتحم عقلي بضجة هائلة: ماذا لو أراح نفسه من عناء إنقاذي، وقام بقتلي في جلستي هذه، وأخذ القلادة، التي يبدو أنها لفتت نظره بالفعل؟

أعود ببصري إلى جثة الشاب من جديد. في ظروف أخرى كنتُ سأفقد الوعي، لكني الآن في عالم غريب، وبين يديِّ شاب قتيل، ومسجونة في مكان يعجّ بالخشب والثلج، وأتحدث إلى رجل ينتحل شخصية مخلوق أسطوري!

أحيانًا يقودني ذلك التفكير إلى حافة الجنون بالفعل!

ماذا لو كنتُ الآن في مصحة عقلية، وأنا أهذي بهلوساتي هذه، بينما عائلتي ترمقني من وراء زجاج نافذة، وأمي تنهمر في البكاء، بينما أبي يشيح بوجهي، وأخي أحمد يلقي نظرة باردة كعادته، ثم يواصل لعبه الأبدي على الآيباد، بينما أختي ليلى يبدو عليها القليل من الحزن والقلق. فقط القليل!

الغريب أنني أشعر باشتياق لهم. ليس جارفًا على كل حال، لكنه موجود، وهو أمر لم أكن أتصوره ولو بعد ألف عام!

"ما رأيك؟"

أسأله، وما زالت الخواطر تتواثب كالبراغيث في قاع جمجمتي. مدّ يده إلى القلادة، ووزنها بيده كما يفعل الخبراء عندنا، ثم وضعها بين أسنانه، وكأنه يختبر المعدن!

يبدو أنها طريقة كونية موجودة في كل العوالم إذن! ابتسم في أريحية، وقال وهو يضعها في جيبه:

"فليكن"

وألقي نظرة على المكان حوله، وهو يتمتم:

"هلمّ إذن، قبل أن يأتوا"

ومدّ يده نحوي، فأزحتُ الشاب عني ببطء، وقلت بصوت حانق قليلًا:

"أكان عليك أن تقتله؟"

"من؟"

"ذلك الشاب المسكين!"

"لكني لم أقتله!"

رفعتُ وجهي إليه، وأنا أقول بحيرة:

"لم تقتله؟ من فعل إذن؟ ثم إنني رأيتُ الدم وهو يتقاطر من خنجرك"

حدّق في وجهي كمن يتطلع إلى مجنونة (ولا ألومه كثيرًا) ثم قال:

"أنا لصّ، ولستُ قاتلًا! لقد أتيتُ هنا، ووجدتُ وحشًا من وحوش الدغل القريب فقتلته!"

أنظر مجددًا إلى صدر الشاب؛ فأجد ما يشبه الأنياب في جروحه، التي تجمد الدم من حولها.

"إنه هنا!"

جملته الأخيرة قبل أن يقضي نحبه. لم يكن يقصد القرد المزيف، بل كان يقصد وحشًا آخر. نهضتُ من جلستي، وشعرتُ بالدم يتجمد في شرايين قدميِّ، اللتين فقدتُ الإحساس بهما مؤقتًا؛ مما استلزم أن أحركهما باستمرار، والقرد ينظر لي بدهشة، لكني تجاهلته تمامًا.

"أين الوحش الذي قتلته؟"

أشار إلى جهة ما، وهو يقول:

"ها هو ذا الوحش الذي......."

يبتر جملته بذهول. أنظر حيثما يشير. لا شيء. فقط خيط من الدماء.

همس بتوتر:

"إنه هنا!"

أنظر له بغيظ دون أن أنطق بكلمة. كنتُ متوترة، وأنا ألتفت حولي كالمخبولة. الخطر الذي لا تراه هو أبشع خطر يمكنك أن تواجهه!

"فلنرحل من هنا قبل أن...."

يبتر جملته للمرة الثانية، وهو يتقدم عمر الممرات المظلمة، وأنا أتبعه بقدر ما أستطيع، متكئة على عصاي، وأنا أحاول اختراق الظلمات ببصري الكليل، خشية أن يقفز من مكان ما حولي، كما تفعل الوحوش في أفلام الرعب. أكره هذا السكون؛ فأقول في محاولة لكسره:

" لم تخبرني عن شكل ذلك الوحش؟"

"آه! تقصدين شكله! إنه شبيه بدبّ أبيض، أشهب، لكنه ليس دبًّا في الحقيقة، و..."

قلت مقاطعة إياه بتوتر، وركبتاي تحملانني بالكاد:

"…. وشكله يتغير كل ثانية!"

توقف، ونظر لي:

"هل قابلته من قبل؟"

أهزّ رأسي بصمت، والأفكار تتزاحم في رأسي. هل كان يتتبعني؟ لا أستبعد هذا. الحمقى وضعوني في مخزن من الأخشاب، وتركوني فريسة سائغة للوحوش المفترسة، والقرود المزيفة!

ما أن خرجنا حتى فوجئتُ بأننا فوق تلة عالية. تنبسط تحت أعيننا الأرض الخضراء، وكتل الجليد الضخمة، ولاحظتُ على أطرف الغابة أثار خراب ودمار رهيب، راحت كتل الثلج تقوم بتغطيته، وكأنها تحاول تنظيف الأرض بكل قوتها!

لكن مشهدًا معينًا جمَّد الدم في عروقي، وحولني لتمثال بشري من الثلج.

فعلى بعد آلاف الأمتار من موقعي، أمكنني أن أري الأهرامات الثلاثة منتصبة هناك، تلمع قممها الثلجية تحت ضوء الشمس!

*** .

الفصل الثاني والعشرون

للحظة، تجمدُّتُ في مكاني كلية تلك المرة. ما زلتُ أحدِّق إلى الأهرامات الشامخة هناك. لم أكن من هواة الآثار عمومًا، وكنتُ أجدها مملة ولا تعبر عن أي شيء. كانت ليلى عاشقة حقيقية للقديم. أي شيء يكسوه الغبار والزمن يمكن أن يجعلها تقفز طربًا!

لكم كنتُ أحسدها على هذا الشغف، خلق القناع اللامبالي الذي كنتُ أستدعيه في أي وقت؛ مما يتسبب في شعورها بالغيظ!

الآن، أشعر بالسرور لمرأي الأهرامات الثلاثة. لكن ما معني هذا؟

لاحظ مرافقي وقوفي؛ فعاد إلىَّ، وهو ينظر إليّ بريبة. أشير كالمعتوهة إليها:

"الأهرامات؟!"

ألقي نظرة لا مبالية عليها، وقال:

"آه! لقد ذابت الثلوج عنها"

ورفع بصره للشمس:

"اليوم مشمس لحسن الحظّ. هذه الأشياء لا نراها كثيرًا!"

رددت، وكأني أوصّل رسالة مهمة للأحمق:

"الأهرامات؟! هنا!"

قال بحيرة:

"إنها هنا منذ آلاف السنين! ما الذي تغيّر؟".

وثبتُ نحوه. كان تصرفًا غير لائق من حيزبون مثلي. لكني فعلتها. أمسكته من ثيابه المبهرجة السخيفة التي يرتديها، وصرختُ في وجهه:

"نحن في مصر!"

قال كمن يتطلع لمجنونة، ولا ألومه كثيرًا:

"لم يعد أحد يدعوها كذلك! إنها الأرض المنسية! هذا هو اسمها!"

"الأرض المنسية! يا له من الاسم!"

ثم قلت بحماس:

"يعني أنا في مصر! الأرض المنسية؟!"

قال وهو يتفحص ملامحي بتشكك:

"هو ذاك!"

أنظر حولي بذهول حقيقي. أنا في مصر! لم أغادر مكاني؟ لم تقذف بي البئر لعالم آخر! هل هو زمن آخر؟

"في أي زمن نحن؟"

نظر إليِّ بنظرة من تأكد أنني مجنونة بالفعل. ضمّ قبضته علّه يبعث دفئًا في يده، ولّي وجهه ناحية الأفق، وقال بصوت خافت:

"لابد أن بكِ مسًّا من جنون يا أماه!"

"سايرني أيها المحتال!"

قلتها بغلظة. توقعتُ أن يحطم رأسي جزاءً على وقاحتي هذه. لكنه لم يفعل. رمقني بنظرة خاصة ولم يجب. تغيرت لهجتي قليلًا، ولعلها كانت ضارعة تنضح باليأس:

"على الأقل أخبرني منذ متى بنيت هذه الأهرامات؟"

تكلم أخيرًا:

"من زمن بعيد؛ ما يقرب من سبعة آلاف عام أو أكثر قليلًا!"

صحّ توقعي. أنا في المستقبل؛ وإذن فتلك البئر هي آلة زمن فريدة من نوعها!

***

آلة زمن في قعر دارنا؟ الفكرة جعلتني أكاد أنفجر ضحكًا. أي نحس هذا؟

من بين كل المنازل القديمة، لم يجد والدي العزيز غير هذا المنزل لكي يشتريه!

كنتُ أسير خلفه، وهو ينظر بحذر حوله.

"أخبرني ماذا حدث؟"

"أخبرك بماذا؟"

"كيف صارتْ الثلوج تنهمر في مصر؟ هذه الغابات الموحشة السامقة؟ كل شيء تغيَّر!

"منذ أربعين عامًا تقريبًا؛ بدأ التسارع التكنولوجي، وخرجت زمرة من الاكتشافات والاختراعات المذهلة، غير المقننة، والتي جلبتْ الخراب لهذا العالم!"

أربعين سنة في مستقبلي؟! هل يمكن أن يفسر هذا انتشار أسطورة القرد الأحمر؟ هل بشكل ما كُشِف القناع عنها؟!

ثم عاد يرمقني بتشكك:

"مرة أخرى تسألين وكأنه لا علم لكِ بما حدث!"

أشرتُ لرأسي، مبتسمة في أسي:

"عجوز مثلي، طاعنة في السن ماذا تتوقع منها؟"

لم يبد مقتنعًا، لكنه هزّ رأسه، وهو يقول:

"فليكن"

كنا قد اقتربنا من قلعة شاهقة، سوداء الجدران، تتميز ببرجين هائلين يشقان طريقهما نحو السماء الملبدة بالغيوم. نظرتُ له بعدم فهم. تعبير الغباء على وجهي؛ لابد أنه بشع!

"لقد وصلنا!"

" وصلنا إلى أين؟"

ابتسم بشكل لم يرق لي:

"وصلنا لمن ينتظرك على أحرّ من الجمر".

وأطلق ضحكة للمفارقة العجيبة، وأكمل، وهو يجذبني من ذراعي بخشونة تليق بجلف مثله:

"التنين العظيم لا يحب أن يتأخر ضحاياه عنه!"

***

الفصل الثالث والعشرون

لكن التنين لم يكن تنينًا في حقيقة الأمر. كان رجلًا وسيمًا في أواخر الثلاثينات، ينضح بالقوة والشباب، يجلس خلف مكتب في حجرة لم أر أضخم منها في حياتي. الطريف أنها كانت مُكدَّسة عن آخرها بالكتب. كتب صغيرة، كتب متوسطة، كتب ضخمة يصل تعداد صفحاتها للآلاف، وكان هو يجلس خلف مكتبه يقرأ، ويضع عويناته على عينيه.

ألقيتُ نظرة منبهرة على الكتب المتراصة. ثم توقفت عيناي عند المجلد الذي يقرأ فيه بتركيز، ذكرني بليلى! كان المجلد عبارة عن الأعمال الشعرية الكاملة لمحمود درويش. الشاعر الذي يحبه أبي!

لو كانت ليلى هنا معي لفقدت وعيها من فرط فرحتها!

أحداث مبهجة تحدث لمن لا يكترثون بها أصلًا!

! ليس لديّ مانع من مبادلة مكاني مع ليلى. لابد أنني سأقدم لها أكبر خدمة في حياتي، وهي ستفعل المثل بدون شك!

كنتُ أتأمل المكتبة، وأنا أحاول أن أزيح عن بالي فكرة أن هناك وغد قد نصب عليّ وخدعني، واقتادني لهنا. طبعًا هو يلعب على أكثر من طرف؛ فسيأخذ مكافأة الذهاب بي للتنين، وفي ذات الوقت سيحصل على قلادتي الثمينة، والتي لا أعرف قيمتها الفعلية حتى تلك اللحظة.

السؤال الأبرز هنا:

لماذا سُمّي بالتنين؟

كأنما سمع سؤالي؛ فرفع رأسه، وابتسم. كان لغده يميل للأحمر الداكن، وبدا شكله غريبًا، حتى أنه قد خطر لي أنه تعرّض لحريق عنيف وهو صغير. ابتسامته مع اللون الأحمر بأسفل جعلني أتساءل إن كنتُ أعرفه؟ هل وجهه مألوف أم ماذا؟

اللون الأحمر من جديد!

"يمكنك الانصراف الآن"

صوت عميق، مهيب، به بحّة مثيرة للشجن. بحّة أصابتني بقشعريرة غير مفهومة، زحفت على ظهري بنعومة الثعابين، وانقضت على مؤخرة عنقي كإعصار ثلجي!

من هو ذلك الشخص بالتحديد؟

***

كان يرتدي عباءة زرقاء، تنبسط أطرافها على الأرض المكسوة بالرخام اللامع، ويتقدم نحوي بنعومة، وكأنه لا يخطو مثلنا. لا يزال يتحرك بانسيابية نحوي، يتأملني بعينين واسعتين، وابتسامة شبه ساخرة على الشفتين الرفيعتين. قلبي يدّق بعنف مضطرب. أرجو ألا يسمعه. أرجو ألا يسمعه!

"تفضلي بالجلوس".

أنظر إلى حيث يشير؛ فأجد أريكة فخمة تستقر بجوار الجدار. هذا الودّ أثار هلعي. في البداية لم يكن تنينًا كما توقعت. مجرد رجل جنتلمان، يبدو مضيافًا للغاية. هذا التصرف يثير ذعري لسبب مجهول، ويشعرني بأن الأمور لن تنتهي على خير. أجلس. أريح جسدي المتعب. لئن كانت هذه نهايتي؛ فلأنعم ببضع لحظات أخيرة من الراحة إذن.

جلس بجواري، وفرد عباءته بأريحية. نظر في وجهي، كأنما يتفحص كل سنتيمتر من ملامحي العجوز المتغضنة. شعرتُ بالحرج. كدتُ أصرخ بأنني فتاة شابة سجنتُ بسبب خدعة حقيرة في ذلك الجسد، لكنه لن يصدقني. لن يعرف من أنا.

"إذن فهو أنتِ!"

كان هذا أول ما ينطق به. بشكل ما شعرتُ بأنه يخترق عقلي. يعرف ما يدور هناك. لا يتوقف أمام حواجز الجسد، والصور الواهمة.

كررتُ بحذر:

"عفوًا!"

لم تتغير ابتسامته. لم تتغير جلسته. بل أزعم أنها زادت أريحية.

"هل تعلمين أنني أبحث عنكِ منذ سنوات".

"تبحث عني أنا؟"

"كنتُ أريد رؤية تلك الشخصية الفذة التي ساعدت على إنهاء ضُرام الحرب الأخيرة".

قلتُ في سرّي "الحرب الأخيرة؟!"؛ إذ أنه لم يبد من اللائق أن أكرر كلماته كالمعتوهة. إظهار الجهل هنا لن يكون لطيفًا. يبدو أن العجوز كانت بطلة من نوع ما. فلأنصت إذن، وأعرف. استرسل مضيفي في كلامه:

" الكثيرون تحدثوا عن تلك العجوز الغامضة، والتي واجهت الشيطان في قلعته، وتسببت في هزيمته!".

رسمتُ على وجهي ابتسامة متواضعة؛ تحمل معني أنك تعطيني فوق قدري، لكني في الواقع كنت غارقة في هواجسي الخاصة بتلك الشخصية.

"كيف فعلتها؟"

سألني بشغف، وكأن الأحمق ينتظر منى جوابًا فعلًا!

ما زالت الابتسامة إياها ملتصقة بشفتيِّ. ما زال يتطلع إلي وجهي منتظرًا لجوابي، وما زلتُ أبادله النظر إليه، وأنا أحرص على التركيز في عينيه دون أن يطرف لي رمش. لكنه عرف. بشكل ما عرف. اتسعت العينان الواسعتان أكثر.

"من أنتِ؟"

انكمشتُ على نفسي من الرعب. لن يكون من اللطيف أن أثير غضب تنين! لا ترتفع طبقة صوته. لغده الأحمر يتراقص في عصبية، وخطر لي بأن ثمة كرة نار هناك تترجرج مع غضبه. كرة نار تحتاج فقط لشرارة الفتيل لكي تحرقني في مكاني!

"لا أعرف".

قال ببطء مميت:

"لا تعرفين!"

قلت باضطراب:

"لقد فقدتُ ذاكرتي!"

تراجع في جلسته. عباءته تتراقص. لا أدري أهي اهتزازات غضبه، أم ماذا؟

"هكذا!"

قلتُ، وأنا أتشبث بتلك الكذبة السخيفة، وأحاول أن تغدو طبيعية بقدر الإمكان. الآن سيمكنني الإجابة على سؤال لم يكن يخطر على بالي من قبل: هل يمكن خداع تنين؟

"كنتُ أسير ذات يوم عندما تعثرت قدمي، واصطدمت رأسي بصخرة بارزة. كان الألم شنيعًا، لكن الأكثر شناعة أن الكثير من الذكريات قد فقدتها!".

لم يهتز. ما زال يتفحصني بعينيه الواسعتين النفاذتين، وما زلتُ أحدِّق إلى وجهه. يقال بأن الكاذب يهرب بعينيه من وجه محدثه. ربما لا يعرف التنين هذه الحقيقة، لكن ماذا لو كان يعرف؟

انفرجت ملامحه عن ابتسامة لم تصل لشفتيه في الواقع. لكني شعرتُ بأن الأمور تهدأ قليلًا.

".. وهل أنتِ بخير الآن؟"

"أحاول التماسك"

قلتها صادقة. فما زلتُ أحاول التماسك من محاولة خداعه التي نجحت. أو هذا ما ظننته؛ فقد قال:

" أريني إصابتك. أريد أن أطمئن عليكِ بنفسي!"

تدلي فكّي ببلاهة.

ابتسم بخبث:

"فأنتِ تعرفين بأن تلك الجروح يمكن أن تتعفن وتتسبب في هلاكك!"

***

استسلمتُ له، وقد أدركتُ بأنها النهاية. للمرء قدر معين من الحظّ ينفد في آخر المطاف، ويبدو أن حظي لم يجد وقتًا لكي ينتهي إلا الآن. مد يده ذات الأصابع الرفيعة لرأسي، وهو يزيح خصلات شعري الشائبة، بحثًا عن تلك الإصابة المزعومة.

حسنًا، يبدو أن حظي لم ينفد بعد فيما يبدو. شعرتُ بإصبعه وهو يتوقف عند بقعة خشنة في رأسي، وتحسسها برفق، فيما بدا لكما لو أنه شقّ قديم في فروة الرأس.

"إنها إصابة عنيفة بالفعل!"

تمتم بها، وأنا لا أكاد أصدق!

انتهي مضيفي من فحصي وتطبيبي فيما يبدو. ثمة خليط ما بشع المنظر راح يحركه ببطء في إناء فضي بهاون صغير، ولم أجازف بأن أسأله عن ماهيته. فقد راحت عيناه تمسحان المكان جيدًا.

"ها نحن انتهينا"

قالها مبتسمًا.

"والآن أخبريني: ماذا تتذكرين بالضبط؟"

قلتُ على الفور، وقد كنتُ أنتظر هذا السؤال تحديدًا، وأعرف الإجابة مسبقًا:

"لا شيء في الواقع!".

نظر بدهشة كمن لم يتوقع؛ فقلت مفسرة:

"ذاكرتي بيضاء من غير سوء".

قال ببطء:

"في هذا أصدقكِ تمامًا!"

وأخذ نفسًا عميقًا:

"إذن أنا مضطر لكي أعطيكِ ملخصًا سريعًا عما يحدث هنا"

قلت بلهفة:

"لا تتخيل كم كنتُ أتمنى أن يحدث هذا!"

ابتسم، وهو يعيد أدواته الطبية لمكانها، وابتسمتُ أيضًا، وأنا أتخيل تنين يقوم بالإسعافات الأولية، لعجوز، وعلى بعد سنوات طوال في مستقبلي البعيد! الصورة قاتمة فعلًا، لكن على الأقل بدأتُ أفكُّ شيئًا من الغموض المستفز الذي يحيط بي من كل ناحية.

"منذ سنوات ظهر شخص غامض في الأرجاء".

بدأ التنين كلامه، وهو يحرص أن تكون كل كلمة واضحة ومسموعة، وتخرج بطريقة سليمة من فمه. أشكره على رقته هذه. تلك من مميزات أن تكون عجوزًا في السبعين، ومن ثمّ يحرص الناس على الاهتمام بأمرك!

لا أصدق انني بدأتُ أفكر بتلك الطريقة، وكأني استسلمتُ لمصيري المظلم هذا!

أعودُ بأذنيِّ إلى مضيفي الكريم، وهو يواصل رفع الأستار المنسدلة على جهلي:

"شخص استغل تلك الفوضى التي عمّت الأرجاء بعد تلك الكوارث التكنولوجية، والتي تسببت في ضياع المدنية والحضارة، و..."

قاطعته:

"أية كوارث هذه التي تتحدث عنها؟"

يبدو أنه لم يرق له مقاطعتي إياه. حكّ لغده الوردي الرجراج بأصابعه، وقال:

"كوارث من كل نوع. العلم بدأ يكشف عن وجهه القبيح! وبدأت المدنية تنزوي، بينما الوحشية تفرض طابعها الكئيب على الأرجاء!"".

أرمق وجهه مذعورة؛ أهذا ممكن؟ للأسف ممكن، والدليل أنني رأيتُ هذا بعينيِّ، ولو أخبرني أحدٌ بهذا؛ فسأخبره بأن خياله جامح، وأنه يحتاج للعلاج النفسي. استطرد التنين، وهو يرفع إصبعه، وقد راح يستمتع بشرح الأمور لي كما أظن:

"لكن شيئًا آخر أكثر خطورة قد حدث".

"ما هو؟"

"تغيير المناخ!"

"كنتُ أودّ أن أسألك عن هذا. جليد؟ وهنا في مصر؟"

" لسبب ما مجهول تغيّر المناخ فعلًا. بدأت الثلوج تنهمر، والغابات تتكون، وكان من الطبيعي مع موجة البرد القاتلة أن يموت الملايين من المصريين والعرب في بلادهم. انهارت أجهزتهم فجأة تحت البرودة القاسية"

شردت عيناه في أفق لم أره، لابد أن منظرًا ما مأساويًا طاف بذهنه.

"لن تتخيلي كمّ المقابر الموجودة تحت أكوام الثلج!"

ابتلعتُ ريقي. هناك كمٌّ من البؤس المركب متراكم تحت طبقات الأرض، يفوق أكثر كوابيسي ضراوة.

"ووسط تلك الفوضى من الطبيعي أن ينبعث الشرّ من مرقده".

"الشرّ؟!"

"هؤلاء الذين يستغلون فرص بؤس الآخرين، ويحاولون بناء مجد شخصي لهم؛ عصابات اختطاف، سرقة، قتل، وبشكل ما بدأت أشياء غريبة غامضة تخرج من عتمة المعامل، و..."

هنا دخل رجل ضخم الجثة، أشهب الشعر، له عينان زرقاوان نقيتان بشكل مفزع، وهو يهتف:

" لقد وصلت عصابة العدالة لمكان القلعة يا مولاي!"

"عصابة العدالة؟! ما هذا الاسم المتناقض؟

تمتم التنين، وهو ينهض:

"الأوغاد!" لكن كيف عرفوا بمكان القلعة؟ إنها مخبأة بمهارة وراء أشجار الدغل الشاهقة!"

قلت:

"هل تمزح؟ قلعتك تكاد تسدّ عين الشمس! لو بحث أعمي عنها سيجدها!"

"غير صحيح! لو لم يكن معكِ خادمي المخلص فلم يكن يتسنى لكِ أن تصلي إليها"

"خادمك المخلص؟ ذلك المهرج النصاب؟! لقد خدعني وأخذ قلادتي، وكان من المفترض أن يبعدني عنك لا أن يسلمني إليك!"

"لابد أنه عرف رفضك لمقابلتي فقرر أن يرتجل. لقد كان يتتبعك منذ أن كنتِ مع آيرون!"

"آيرون!"

"العملاق الذي كان بصحبتك"

اسمه آيرون؟! اسم يناسبه فعلًا!

"فلتدر العجلة السفلية، ولنختف عن أعينهم!"

"أتوق إلى قتل بعضهم يا مولاي!"

قالها الأشهب بلهفة.

"لا دماء!"

قالها بحسم من يعرف أنه لن يتجادل معه أحد. بشكل ما بدأ هناك إعجاب خفي يتكون بداخلي ناحيته. إنه تنين حقًا. بدأتُ أخمن لماذا سمي بهذا. لست بحاجة أن أسأل عن كل شيء. عليّ أن أملأ بعض الفجوات بنفسي، ولأترك للزمن إجابة بقية الأسئلة.

"ثمة مسألة أخرى يا مولاي"

قالها الأشهب دون أن يتحرك لإدارة العجلة السفلية، أيًا كان ذلك الشيء المهم؛ فلابد أن ما يريد قوله الآن هو أكثر أهمية بمراحل.
صدق حدسي قد برقت عيناه بشكل أخافني أنا شخصيًا، وهمس، وبرغم ثقل سمعي في زييِّ الجديد فقد أمكنني أن أسمعه.

أحمق!

"أي مسألة هذه؟"

"لقد وجدناها!"

يرتد التنين للخلف بدهشة كمن فوجئ. هناك أشياء في ذلك العالم قادرة على إدهاش ذلك الرجل؟

"أين؟"

"لقد لمحها بعض رجالنا بالقرب من منزل الظلال"

منزل الظلال مرة أخرى؟ ما ذلك المكان بالتحديد؟

"انشر رجالنا وليحاولوا تعقبها"

انصرف الرجل لتنفيذ الأوامر. يبدو أنه ذراع التنين التي يعتمد عليها، وهنا قفزت إلى ذهني فكرة مرعبة جعلتني أفتح فاهي ذاهلة!

أشهب! أشهب!

هل هو ذلك الوحش الذي جعلني أهرب إلى الكهف؟ طرحت تساؤلي على التنين؛ فبدا مهمومًا، ولم يهتم حتى بالجواب، مما جعلني أتيقن بأن من وجدوها تحتل أهمية كبيرة في حيّز تفكيره. طرحت تساؤلي الثاني، وأنا لا أطمع في إجابة من الرجل الذي ركبه الهمّ فجأة، وبدا كما لو أن بضع سنوات أضيفت لعمره في دقائق معدودات!

أيها الزمن الغامض: من أنت؟ تتلاعب بنا كورق في مهبّ ريح خريفية عاصفة!

لكنه فاجئني وأجاب بشكل عملي. بمعني أدق: تقدم إلى عمق الحجرة الضخمة، لأعرف بأنها أضخم كثيرًا، وبدا وهو يبحث عن شيء بين الكتب كراهب حقيقي لا تشغله إلا الثقافة فقط!

أين أنتِ يا ليلى الآن؟ لابد أنكِ تحاولين فكّ لغزي، ومعرفة من تلك التي تعيش تحت سقف المنزل. هذا لو كنتِ ذكية بشكل كاف كما أحسبكِ. ربما تكون تلك الغامضة أكثر ذكاء أكثر منكم جميعًا وتتقمص شخصيتي بنجاح! تلك اللصة التي سرقتْ جسدي وحياتي، وألقتني في ذلك الجحيم!

تقدم مني التنين، وهو يمسك برقعة ضخمة من الجلد ملفوفة حول أسطوانة من الزجاج اللامع. منظر مركب متناقض تمامًا، واشتعلت جذوة الفضول بداخلي، ترقرقت نارها ببطء مثير، وراحت تنتشر في أوردتي العجوز المتهالكة؛ فتبعث فيها شبابًا من نوع خاص.

فرد اللفافة أمام وجهي، وقال:

"نحن نبحث عن هذه الفتاة".

وكانت اللفافة تحمل وجه أقرب الناس إليّ؛ وجهي!

***

الفصل الرابع والعشرون

الدهشة ثم الذهول! جلوس متوتر على المقعد المُذَّهب. ثم وقوف مفاجئ (بما تتحمله عضلاتي الواهنة)، وانسحاب الفضول من عروقي؛ ليحلّ مكانه العته لو أمكن لهذا الأخير أن يتحول لمادة سائلة!

وكان التنين يرقب الانفعالات المتلونة بكل أطياف الدنيا على وجهي بصمت. يحاول أن يسبر أغواري فيما أعتقد. لابد أن هناك العديد من التساؤلات في عقله بدوره، لكن ثمة شيء واحد هو متأكد منه:

أنا أعرف ذلك الوجه الذي رأيته في اللفافة!

ما هذا العبث؟ مستحيل! هل معنى هذا أن من تسكن جسدي موجودة في ذلك الزمن أيضًا؟ هل قامت اللعينة-بشكل ما-بالعودة إلى هنا؟

أسئلة! أسئلة! ولأول مرة في حياتي أشعر بصداع قاس. صدْع في جدار التفكير لديّ. ذبذبة عنيفة جعلتني أهتزّ، وأنا أهمس:

"أشعر بضيق في نفس!"

تحرك بسرعة. سقاني شيئًا ما في كأس شفاف؛ فيبدو أن لديه صيدلية هنا لكل الظروف الصحية الطارئة، والعجيب أنه كان ذو مفعولي سحري أكيد؛ فقد هدأت دقات قلبي. الصداع ينزوي مبتعدًا لحين؛ حتى يبرز إلى السطح ما يثير ضغطي من جديد.

وبدأت الأفكار تصفو في عقلي، تتوقف عن حركتها المضطربة المزعجة، تسمح لذهني ببصيص من الضوء يخترق طبقات العتمة، ويحاول أن يجد بقعة مناسبة له وسط ذلك الزخم!

ووسط كل هذا كانت عينا التنين ترقبني بانتباه، وبشكل مزعج. لكنني كنتُ في حالة يُرثي لها فعلًا؛ مما أقنعه فيما يبدو بأنني أحتاج للراحة.

***

كانت الحجرة واسعة وفخمة بما يتناسب مع قلعة ضخمة كهذه. القلاع في مصر قليلة بطبيعة الحال، لكن تلك القلعة تمتاز بأنها تجمع بين الطراز الشرقي والغربي، ومع طولها الشاهق، والأبراج تدّق وتصغر كلما اقتربت من طبقة السحاب؛ ليبدو المنظر أسطوريًا.

أذكر خفقة قلبي عندما ألقيتُ عليه نظرة من الخارج، وأنا آتي بصحبة القرد المزيف، الذي تخلى عن اسمه الأول، واحتفظ بالثاني بكل جدارة، وأنا الآن أنظر من نافذة حجرتي بالقلعة نحو المروج الخضراء، والثلوج تزين بعض المناطق كالأهرامات الثلاثة، لكن هذا لم يخف كمية الدمار الرهيبة المتناثرة في الأفق!

ثمة شيء رهيب حدث هنا، منذ سنوات، ويستحق اسم" الحرب الأخيرة"، كما أطلق عليها مضيفي الغامض، الذي يبدو مهتمًا بي(كجسد!)، ومهتمًا بتلك اللعينة (كجسد أيضًا!)، وهكذا، فأعتقد أنني الفتاة الوحيدة في الكون التي تنقسم إلى جزئين، وتنال الاهتمام بذات القدر من التنين العظيم!

أكاد أموت من الفخر!

مرّت الجملة بذهني في سيل الخواطر العنيف هذا، وأنا أنظر للوجه العجوز في المرآة بتعاسة! بضع دقات على الباب، ثم دخل رجل يسير بخطوات واثقة قوية، وهو يحمل صينية عليها بعض أطباق الطعام. وضعها بصمت ثم انصرف. كنتُ جائعة؛ فرحت آكل، دون أن أكدِّر على معدتي بمعرفة ما آكله.

ثم أرحتُ جسدي على السرير الناعم، وتطلعت للسقف المرتفع بغباء، حتى لكأنني نملة ضعيفة تنظر لأعلى تحاول معرفة حدودها دون جدوى!

في الحقيقة أنا لا أختلف كثيرًا عنها!

الآن يمكنني ترتيب أفكاري بعد أن هدأ صراخ معدتي، وسكن صداعي، ولم يعد أحد يُحدِّق إلى وجهي طالبًا أجوبة لأسئلة لا أمتلكها في الأساس:

النقطة الأولي: هناك خدعة متقنة لسرقة جسدي؛ حيث تم نقل وعيي لذلك العالم في جسد عجوز غامضة، والتي قامت بدورها بنقل وعيها لجسدي الفتّي. بشكل ما أتفهم دوافعها، وإن كان هذا لا يمنع أنني سوف أقوم بقتلها لو أتيحت لي فرصة مواجهتها شخصيًا!

النقطة الثانية: الانتقال تمّ في الزمن أيضًا. يتضح هذا من الأهرامات التي تكسوها الثلوج بالخارج.

النقطة الثالثة والأكثر أهمية: أن المخادعة قد عادت لهنا، بل وصارت مطلوبة على قائمة أولويات التنين، وهو يجعل أمنيتي بخصوص قتلها أقرب للتحقيق!

المطلوب: أن أفهم كل شيء من التنين، والذي يبدو أنه يحترمني بشكل خاص. وهو أمر يروق لي، وإن كنتُ لا أعرف السبب، ولستُ مهتمة بمعرفته.

الآن، عليّ أن أنال قسطًا من الراحة. أغمضتُ عينيّ، ووجدتُ نفسي أنزلق في الهاوية المظلمة.

***

أزعم أنني صرتُ أفضل حالًا، وأنا أجلس بالقرب من التنين، الذي بدا أقرب ما يكون لصديق قديم أراه بعد غياب. كان يصبّ لي الشاي في فنجان فاخر يليق بالملوك، وبخاره يتصاعد في الهواء فيفعم أنفي. من الجيد أنه يوجد شيء مألوف في ذلك الزمن بالإضافة للأهرامات بالطبع!

"أنتِ تعرفينها؟ أليس كذلك؟"

سألني، وهو يسلط عينيه عليّ كعادته، لكن على غير العادة لم يزعجني ذلك، وقد وطنّتُ نفسي على أنه سيفعل وسيسأل. مللتُ من لعبة الكذب، والمراوغة، روحي مستهلكة بما فيه الكفاية، وإذا كنتُ أريد مساعدته؛ فلأكن صادقة.

أومأت برأسي، وأنا أرتشف رشفة من الشاي؛ طعمه لذيذ بالفعل. من المدهش أن التفاصيل الصغيرة التي كنا نفعلها باعتيادية دون أن نشعر بقيمتها؛ أشعر الآن بأهميتها البالغة. فقط كنتُ أحتاج لأن أفقدها. من الفقد نتعلم قيمة الحياة!

يا لكِ من حمقاء! السعادة ليست في تحقيق الأحلام؛ لكن في قدرتك على الاستمتاع بالأشياء الصغيرة التي تقابلينها كل يوم، والتواصل معها بشكل حميمي. أنتِ فقط تحتاجين لأن تحبي ذاتك وحياتك بشكل كافٍ لأن ترفضي تضييع ثانية واحدة في الاكتئاب المدمر، والتفكير العبثي فيما كان، وما سيكون!

ارتاح لإجابتي، واسترخي في جلسته، دون أن يترجرج لغده الأحمر. علامة مطمئنة إذن. خطوة على طريق كسب ثقته. بينما ارتحتُ أنا لما خطر في بالي أخيرًا، وكأني وصلت للبّ الحكمة من ينابيعها!

"كيف تعرفينها؟"

قلت ببساطة:

"لأنها أنا!"

حدّق في وجهي لثوانٍ دون أن ينطلق بكلمة. أمر متوقع. ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة مضطربة. ردّ فعل غير متوقع من التنين بجلالة قدره، لكنه في النهاية بشر، يرتجّ عقله، وتنطفئ عنه مصابيحه فيغرق في ظلام دامس!

في انتظار أن ينير أول مصباح في دماغه، ثم تتبعه بقية المصابيح، أكون وقتها قد أنهيتُ فنجاني. مع آخر رشفة كنتُ أدرك بأنه بات مستعدًا لسماع ما لديّ. بكلمات هادئة-لا تخلو من انفعال- رويتُ له ما حدث. أركز على التفاصيل الفعلية فقط، دون أن أتحدث عن حيرتي وضياعي.

ولم أشعر إلا بالدموع وهي تسيل على خديِّ. ربما هي المرة الأولي في حياتي التي أتذكر أنني ذرفتُ فيها دموعًا ساخنة، حتى أنها تختلف عن تلك التي ذرفتها خوفًا في قاع البئر!

بعد أن أنهيتُ قصتي، سألني بصوت خافت احترامًا للحظة التي يظللها الشجن:

"ماذا تريدين؟"

مسحتُ دموعي، وقلت:

"أريد العودة لأهلي وعالمي!".

***

لكن هل توجد طريقة حقًا للعودة؟ المفترض أنهم الآن عظام، رفات تراب في أماكن ما. أرتجف لمجرد تخيّل الفكرة الكابوسية هذه!

من حسن الحظّ أن التنين قد صدقني، ووعده بمساعدتي على العودة شيء يسرني بدون شك، لكن هل يدخل الأمر في استطاعته بالفعل، حتى لو كان يحوز لقب تنين؟

لكن هل هو اسم أو لقب؟ ما زال سرّ الاسم مجهول بالنسبة لي. أغرق في النوم؛ لتثب صور متناثرة من حياتي السابقة في جسدي الشاب؛ صور راحت تتطاير خلال دوآمة سوداء؛ فتبعث فيها الحياة.

وعندما نهضتُ من نومي كنتُ نشيطة، وكأن فكرة العودة قد ضخت في عروقي إكسير الشباب!

أتجه لمكتبه؛ فأجد الباب مفتوحًا على غير العادة، يخفق قلبي في توتر، أخطو للداخل، وأفكار سوداء مجنحة تحلق في ذهني، لكن سقف توقعاتي تهاوي؛ عندما وجدتُ التنين غارقًا في دمه، وهو ينظر للسقف بعينين متسعتين لا تتحركان، وهناك خنجر عملاق مهيب-يليق بشخصية أسطورية مثله-مغروس في قلبه حتى المقبض!

***

الفصل الخامس والعشرون

قبل أن أمرّ بتلك السلسلة المألوفة؛ من الذهول، مرورًا بالبلاهة التي ترتسم على الوجه، وانتهاء بارتكاب الخطأ القاتل المتمثل في سحب الخنجر من صدره (وهي حركة غبية جدًا كما علمتنا الأفلام!)، في لحظة واحدة دخل الأشهب من الباب. ألقى نظرة على المشهد، ثم تذكر بأنه من المفترض أن يتخذ ردّ فعل معينًا؛ فأطلق الوغد شهقة عالية سحب فيها هواء الحجرة بالكامل، ثم تراجع للخلف في ذهول تمثيلي سخيف، وهو يهتف كالمعتوه:

"أنتِ! أنت قتلتِ مولانا التنين!"

نفختُ بضيق مكتوم، وأنا أقول:

"حقًا؟!"

اعتدل في وقفته، وزحفتْ ابتسامة خبيثة على شفتيه، وهو ينتزع الخنجر، ويضعه في يدي؛ فأمسكته دون مقاومة! المصيدة محكمة، ولن أفلت منها على كل حال؛ فلا داعي لأن أضيع الوقت في البكاء الهستيري، أو الصراخ بأني بريئة!

كل ما فعلته هو أن بصقتُ في وجهه، وهو فعل-برغم فظاظته- أراحني كثيرًا. لكنه لم يبد تأثرًا كبيرًا؛ فقط أزاح البصقة-التي لم تكن كبيرة بما يتناسب مع سفالته للأسف! - بهدوء، وتأمل وجهي بصمت ساخر.

"على فكرة أنت لم تخدعني؛ منذ البداية وأنا أشكُّ فيك!"

"كنتِ تعلمين بأني مبعوث التنين؟"

"كلا. لم أكن أعلم للأسف، وإلا ما كنتُ قد أتيتُ معك"

"كنت تعلمين بأني الوحش الأشهب الذي اضطركِ لدخول الكهف، قبل أن أقوم بنشب مخالبي في كتفكِ، ووسمك بعلامة التنين؟"

"كنتُ أشكُّ في الأولي منذ فترة قصيرة للغاية، لكن لم يخطر ببالي أنك نفس المخلوق البشع الذي تسلق البئر، وعضّني!"

"أنا متعدد المواهب كما ترين"

"أري أن موهبتك الكبرى هي السفالة والخداع! لابد أن ضميرك مستريح للغاية!"

"أكثر مما تتخيلي! حتى أتي ذلك الرجل الذي رأيته في الكهف من أجلك"

قلت بدهشة:

"من أجلى أنا؟"

"أنتِ لا تعلمين بالفعل! لا أستبعد هذا؛ فيبدو أنك لا تستحقين سمعتك التي تسيرين بها! لا أعرف لماذا تحرص الملكة البيضاء على الإتيان بكِ حية! ضربة خنجر كما فعلت مع ذلك الأحمق، وسينتهي الأمر!"

الملكة البيضاء؟! كانت هذه المرة الأولى التي اسمع بوجود تلكم الشخصية، والتي يبدو أنها حريصة على مقابلتي.

خطر لي-ربما هو أمل زائف يدغدغني-بأنها تلك المخادعة التي سجنتني في جسدها وأخذتْ جسدي. ألم يكن ذلك القاتل هو من أخبر التنين بأنه وجدها؟ من أدراني بأنه لا يعمل معها منذ البداية، بل إنه كذلك بالفعل. كان على استغلال الفرصة التاريخية الآن ومعرفة أكبر قدر ممكن من المعلومات.

"لماذا أتي الرجل الذي وجدته مشنوقًا في الكهف من أجلى؟"

"إنه من هؤلاء المخابيل الذين يعادون مولاتنا الملكة، ويظنون أنهم قادرون على هزيمتها! تخيلي هؤلاء الصراصير يجدون لديهم القدرة في التفكير في حدوث هذا أصلًا على أرض الواقع، ويسمون أنفسهم بالمقاومة! مقاومة من؟ معتوهون!"

قلتُ وقد تكشفت لي الحقيقة كالشمس الساطعة:

"والشاب الأسمر الذي مات بين يديِّ! أنت من...."

لم أكمل الجملة، وأنا أضع يدي على فمي؛ فأومأ برأسه مبتسمًا.

المسكين! لقد كان يهرب منه، وحاول تحذيري، لكن ماذا سيفعل أمام مخادع كهذا؟

ما أكثر المخادعين في تلك الأرض، في ذلك الزمن!

"ولماذا تريدني المقاومة؟"

رمقني بدهشة، ثم حكّ شعر رأسه:

"نسيتُ بأنكِ فقدتِ ذاكرتك! هذا منطقي!"

"لقد أخبرك التنين بكل شيء إذن؟"

"بالتأكيد؛ فالساذج كان يظنني صديقه، وذراعه الأيمن الذي يمكنه الاعتماد عليه"

قلتُ باحتقار:

"ويبدو أنك لم تكن جديرًا بتلك الثقة".

"في الحقيقة أنني لم أكن أنوي قتله أصلًا؛ إذ أن مولاتنا الملكة كلفتني في البداية أن أكون صديقه، وأن أكتسب ثقته، من أجل أن أعيد ولاءه لها كما كان في السابق، لكن العنيد لم يتخل لحظة عن قناعاته السخيفة بالتنصل منها، وسلك طريقه الخاص. إنه عبد لديها؛ فكيف لعبد أن يبحث عن حريته؟".

كان سيل المعلومات المتدفق أمامي يمثل فرصة تاريخية نادرة بالنسبة لي؛ لكي أفهم ما يحدث حولي. هنا آتي للسؤال الأهم:

"وماذا عن الفتاة التي كان التنين يبحث عنها، وأخبرته بأنك وجدتها؛ هل وجدتها فعلًا؟"

هنا دخل رجلان آخران؛ وهنا ارتدى الوغد قناع الفزع، وهو يشير نحوي:

"لقد قامت بقتل مولانا التنين! هذه العجوز الخبيث الماكرة! خذوها!"

بدا الغضب على الرجلين، وهمّا بالفتك بي، لكن الأشهب تدخل في منتصف المسافة، وقال:

"ليس الآن يا رجال، علينا أن ندفن مولانا التنين بما يليق به، ثم نمعن النظر في المصير الذي يناسب هذه القاتلة"

يا لك من رقيق!

أومأ الرجلان برأسيهما، وقد اقتنعا بقوله فيما يبدو، بينما قبضة يده الثقيلة تسقط على ذراعي الواهن، وتجرّني خلفه. إلى أين؟ كنتُ أعرف بأنه حريص على حياتي ما دام في الأمر ملكة بيضاء تبحث عني، وطبعًا صرت شبه متأكدة بأنها هي!

خفق قلبي، يبدو أن الحكاية تقترب من نهايتها، أو نهايتي!

قبل أن أغادر حجرة المكتب ألقيتُ نظرة على جثة التنين، وهمستُ بحزن حقيقي:

"وداعًا أيها التنين! لقد كنت طيبًا معي؛ وإذن فليحل العقاب على من قتلوكَ"!

قلتها، وأنا أرمق مرافقي بنظرة نارية، لم يفهمها، وهو يجذبني بخشونة، وكأنه يريد اللحاق بموعد ما، وكنتُ أعرف بأن هناك فتاة، تنتظر على عرشها وصولي.

ملكة بيضاء؟! يا للدوار!

***

عبر ممر سري قادني الأشهب للخارج. لم يغادر من البوابة الرئيسية، وخمنتُ بأنه لن يعود مرة أخرى للقلعة، بعد أن أدّي مهمته. كان اليوم غائمًا بما يتناسب مع تلك الكوارث التي يتلو بعضها بعضًا.

أنظر بتدقيق في المنظر حولي؛ فيهولني أن الحياة تغيرت تمامًا بعد مرور عقود من الزمن. المباني القديمة والحديثة تمت تسويتها بالأرض، ونبتت بدلًا منها خرائب بدت غريبة حقًا بين الخضرة المتناثرة في كل مكان، وكُتل الثلج التي تداخلت فيها عروق الخشب، وأغصان الأشجار.

أي شيء رهيب حدث في الماضي؛ فأحدث ما أراه أمامي؟ كابوس حقيقي، والكارثة الأكبر أنني لم أستوعب بعد فكرة السفر عبر الزمن هذه، وأنني في مستقبل مظلم!

"حدثني عن الملكة البيضاء؟"

قلتها متظاهرة باللامبالاة. لكنه ابتسم. كان قد ترك ذراعي فور أن غادرنا القلعة، وتركني أحاول محاولة اللحق بخطواته السريعة؛ فهو يعلم بأنه لا مهرب لديِّ.

"ماذا تريدين معرفته عنها؟"

"هل هي جميلة؟"

كان سؤالًا سخيفًا والحق يُقال، وكأنني أريد أن أطري نفسي، وأريد أنني أتأكد بأنني ما زلتُ جميلة. أرجو ألا تكون اللعينة قد قامت بالتهور، وخدش شيء من جسدي!

"إنها ملكة؛ فلابد أنها جميلة إذن!"

يا سلام! ما هذه العبقرية؟!

كدتُ أفرغ فيه بعضًا من غيظي، وكأنني أحاول التخفيف من توتري، لكنه توقف فجأة. راح يتأمل الأشجار حولنا، وهو يُضيِّق عينيه بشكل مخيف؛ يدل على تركيزه، أو استشعاره شيئًا ما. أثناء وقفتنا تلك خطر لي أن الملكة البيضاء ليست أنا بطبيعة الحال؛ فلو كانت كذلك؛ فهي شخصية شهيرة، والشخصيات المعروفة لا يُبحث عنها!

"إنهم هنا!"

قالها، وهو يستل خنجره. في نفس اللحظة ظهر ثلة من الرجال، وهم ينقضون علينا من تلة قريبة، بينما مرافقي الأشهب يرمقهم بسخرية.

"لقد هاجموني منذ أيام، وتغلبتُ عليهم بسهولة! الحمقى؛ إنهم لا يتعلمون!"

لكنهم تعلموا.

أصرخ، وهو مشغول بطعن هذا، وذاك:

"احترس!"

فلا أريد أن يموت هذا القاتل قبل أن أقابل تلك الملكة الغامضة. لقاء المرء مع نفسه لا يجب تأخيره أبدًا! استدار الأشهب نحوي؛ فأشرت نحو نقطة ما؛ فحوّل بصره إليها؛ ليعتدل متوترًا.

كانوا ثلة أخرى من الرجال يحملون شبكة معدنية مرنة، متصلة بجهاز بدائي يتم جرّه بواسطة رجلين قويين وراء من يحملونها. لم أكن أعرف ماهية الشبكة، أو ماذا تفعل، لكني افترضتُ أنها شيء سيء جدًا، ويبدو أن حدسي كان حقيقيًا؛ فقد لمحتُ توترًا وخوفًا لأول مرة على وجه الأشهب وهو يتراجع بفزع، لكنه بقية الرجال تكأكأوا عليه، وقيدوا حركته، وأسقط أحدهم الخنجر من يده، بضربة فأس قوية، تسببت في شقّ في جلده؛ فانبثق الدم غزيرًا!

جنّ جنونه، وهو يقاومهم في نفس اللحظة التي أُلقيتْ الشبكة فوقه، وأحاطت به، في نفس اللحظة التي ضغط فيها أحدهم زرًّا في الجهاز، وهنا رأيتُ شيئًا مهولًا:

صرخ الأشهب، وكأنه يصلي سقر، وبدأ وجهه يحمر، ثم راح جسده يرتجف، ويرتجف، وهنا رأيته تحوّل إلى قرد!

نفس القرد الذي رأيته في بئر الكهف، ثم يتحول لشخص آخر، ثم حيوان آخر، وأشكال أخرى غريبة، ثم تهاوي على الأرض فاقدًا للوعي!

توقفتُ مبهوتة، في نفس اللحظة التي وضع أحدهم كيسًا من الخيش له رائحة فظيعة فوق رأسي، ويبدو أن الرائحة كانت تقوم بدور المنوِّم؛ فقد سقطت فاقدة الوعي أنا أيضًا!

***

لم أدر كما ظللتُ غائبة عن الوجود، لكن عندما استيقظتُ وجدتُ نفسي راقدة على الأرض، ورأسي مستندٌ إلى صخرة بارزة وضعت عليها قطعة من القماش السميك، بحيث تعمل دور الوسادة.

رفعتُ رأسي ببطء، وصداع رهيب يمسك بجمجمتي ويدقّ على جدرانها العظمية بقوة مزعجة. اهتزّت الرؤية أمامي، وعندما استقرت أمكنني أن أري حدود شخص يقف أمامي يرقبني في صمت. كنتُ أبحث في ذهني عن ردّ لاذع ساخر، لكني لم أجد سوي الألم. الكثير من الألم!

"هل أنتِ بخير؟"

تحدث الشخص أمامي، ووجهه المشوش لم يستقر بعد. الصوت مألوف نوعًا. بدأ الوجه يتكشف أخيرًا. مررتُ بتلك اللحظة الشهيرة

التي يتجمد فيها كل شيء. وكأنني أنظر في مرآة؛ فأري وجهي المفقود! إنها هي!

تقف، مرتدية ثوبًا بسيطًا، وتعقص شعرها، وتتأمل وجهي باهتمام. نهضتُ، مدّت يدها لكي تسندني، لكني تجاهلتها تمامًا، وأنا أقف، أترنح، وما زال عقلي متجمدًا. أحدِّق في وجهها/ وجهي المفقود، وهنا فعلتُ شيئًا أعتقد أنها لم تتوقعه، إذا كنتُ أنا لم أتوقعه بأي حال من الأحوال؛ فقد انحنيتُ، وأمسكتُ بالصخرة/ الوسادة، وهويتُ بها على رأسها!

***

الفصل السادس والعشرون

أنسي كل خواطري السابقة عن صون ملامحي، وحفظها من الخدش، وينطلق عفريت الغضب من قمقمه؛ فيبدو أنني كنتُ كالزجاجة في الفترة السابقة؛ ينمو الغضب بداخلي رويدًا، يتحول لقوة مدمرة، لا تجد شرارتها إلا عند رؤية أسّ المصائب، ومسببة الكوارث!

الحقيقة أن المكان لا يوحي أصلًا بأنه قصر، ويبدو أنني في مكان خرب، أطلال تنعق فوقها الغربان-لو لم تنقرض هي الأخرى بكارثة ما قضت عليها! - وتفوح فيها رائحة نتنة غير محتملة!

تحركت ببساطة، تفادت الصخرة، ولسان حالها يقول "ماذا دها هذه العجوز المعتوهة؟"، ولأن الصخرة كانت ثقيلة بعض الشيء فقد هوت أرضًا، وهويتُ أنها معها أيضًا!

ظهري يؤلمني؛ فأضع يدي عليه، بينما أقول بغلٍّ:

"أنتِ!"

"هوِّني عليكِ يا أماه!"

هل تريد قتلي بأدبها وذوقها؟ أماه! منْ المفروض أن ينادي الأخرى بذلك اللقب في الحقيقة؟! أستند بظهري للجدار. ألتقط أنفاسي المضطربة. ثمة شيء خاطئ هنا. شيء ليس في موضعه.

"كوب من الماء!"

قالتها؛ فتحرك بعضهم فورًا، وأحضره. أرتشف من الماء، أروي عطشي، ولعلها تطفئ النار المضطرمة بداخلي. بالفعل هدأتُ قليلًا. أرمق المكان من حولي بنظرة شاملة. لكن تفكيري المشوش، يعود بي إليها مرة أخرى. تجلس بجواري، وتقول بهدوء، وبصوتي الذي كدتُ أنساه أصلًا للأسف:

"أنا متفهمة الحالة التي تمرين بها، لكننا حلفاءك، ولسنا أعداءك!"

عم تتكلم بالضبط؟

"لقد حاولنا الاتصال بكِ أكثر من مرة، لكن في كل مرة كنا نفشل، وحاولنا تتبعكِ، لكن التنين قام بتغيير مكان القلعة. أنتِ تعرفين طبعًا بأن القلعة مصنوعة بطريقة ميكانيكية، وتروس هائلة تحت الأرض، ويمكنها أن تتحرك تحت أنفاق فولاذية، لتظهر في أماكن اخرى!"

كانت هذه معلومة مثيرة بالنسبة لي. صحيح أنني سمعتُ موضوع العجلة التي يتم تحريكها؛ لتظهر القلعة في مكان آخر، لكني لم أتخيل أن يكون الأمر بتلك الصورة المهولة من التعقيد!

مرة أخرى يظلّ التنين لغزًا بالنسبة لي. ما أهميته بالضبط، ولماذا حرصه العجيب على التخفي والهرب؟ طبعًا يؤتي الخطر من مأمنه؛ فالمسكين لم يخطر بباله أن نهايته ستأتي من أقرب الناس إليه.

الأشهب!

"أين مرافقي؟"

سألتها؛ فقالت:

"تحت الحراسة. إنه شديد الخطورة، ويجب الحذر منه!"

"لقد قتل التنين!"

تراجعتْ للخلف من الذهول! عظيم! لم تكن تعرف! هذا شكلي إذن عندما أندهش! لا بأس به أبدًا.

"التنين قُتل؟"

أومأتُ برأسي، وأنا أحاول إزاحة فكرة أنني أجري حديث مع نفسي. بدأت فكرة ما مبهمة تتسلل لعقلي؛ بأنها لا تعرف من أنا أصلًا. هذا ليس تصرف مخادعة. إنها مهتمة فعلًا بي، تعاملني برفق، وتريد معرفة ما حدث. ثمة شيء خاطي هنا. ما هو؟ ما هو؟ الصداع يعود. كلما أظن بأنني أقترب من الحقيقة، أجد سحابة الظلام تتكاثف أكثر.

"ألا تعرفينني؟"

سألتها، وأنا أطمح في إجابة صادقة. إجابة تنتشلني من المستنقع الكاذب الذي أكاد أغرق فيه حتى عنقي. أخشى أن أتعوّد على ذلك الجسد، أتقبل فكرة أنني سأظل هكذا للأبد، وربما يأتي الوقت الذي أنسي فيه من كنته! يا له من كابوس! الصداع يتضاعف.

"وهل من المفروض أن أعرفكِ؟"

"ألم نتقابل من قبل؟"

نظرتْ إليّ. حدّقت بالأحرى. تجوس بعينيها الجميلتين في وجهي.

"ربما كنتِ مألوفة! لا أعرف!"

مألوفة؟ هل من الممكن أن تكون قد عادت ونسيت من هي؟ يا للمصيبة! ثم أليس من المفترض عندما تعود أن يكون وعيها في جسد

آخر؟ كيف أمكنها أن تعود بجسدي إلى مكان هكذا، بينما لم يُتحْ لي هذا؟!

ثم فيما يشبه الومضة التي تخترق الذهن، وتنير فيه البقع المظلمة، أدركتُ أنني أفكر بطريقة خاطئة جدًا. من أجل أن أقطع الشكّ باليقين على أن أسألها سؤالًا واحدًا فقط:

"من أنتِ؟"

"أنا سلمى. قائدة المقاومة!"

***

كان هناك غزالٌ يتم شيُّه على النار الهادئة. لستُ مندهشة؛ فمع تلك الغابة الكثيفة بالخارج لن أندهش لو خرج منها وحيد قرن غاضب! يتجمع الرجال والنساء، وكل منهم يقتطع قطعة في طبق، وهم يضحكون ويمزحون. كنت في مزاج متعكر يكفي لإفساد المحيط ذاته؛ لذا فقد انتحيتُ جانبًا.

أرمق نفسي من بعيد، وأنا أحاول أن أصنع صورة معقولة للموقف الحالي الذي أتعرض له. من المثير أن يراقب المرء نفسه حرفيًا، دون الغرق في بحر من المجازات والكنايات والطبقات الوهمية المتعددة كطبقات البصل الخانقة!

الحقيقة أنه لا بأس بي أبدًا! هناك بيت شعر كانت ليلى تصدعني به وهي تترنم به، وهي تغادر الحمام، أو تقلب في مخطوطاتها الأثرية. ماذا يقول؟

آه. يقول:

ألا ليت الشباب يعود يومًا. فأخبره بما فعل المشيب!

في حالتي هذه يمكن أن يحدث هذا بالفعل! يمكنني أن أعود لنضارة الصبا المفقودة! عادت إليَّ من جديد، وهي تحمل طبقَّين في كل واحدٍ منهما قطعة لحم كبيرة، تفوح منها رائحة شهية قلبت معدتي. مدت يدها بواحد؛ فأخذته منها، بينما تربعت هي بجواري. لم أستوعب بعد أن تكون هي قائدة المقاومة، التي تقف أمام طغيان الملكة البيضاء.

"منذ متي وأنتِ قائدة للمقاومة؟"

قالت بهدوء وهي تبتسم:

"سنوات قلائل"

"ألم تذهبي لهنا أو هناك خلال تلكم الفترة؟"

أمسكتْ بقطعة اللحم، وقضمتْ منها قطعة صغيرة بأسنانها دون أن تضيّع وقتها في آداب المائدة. لو حدث هذا الفعل من قبل أن آتي، ومن أحد غيري فسيبدو لي غير لائق بالمرة. أما الآن؛ فإن هذه أقل

مشاكلي التي يجب أن أشغل فكري بها، بالإضافة أنه من المثير حقًا أن أري نفسي في مواقف حياتية غير مألوفة.

"لولا أنني أعلم أنكِ لستِ جاسوسة للملكة البيضاء لقلتُ بأنكِ تجمعين عنا معلومات!"

قلت بلا مبالاة:

"قد أكون كذلك؛ فاحذري مني!"

ضحكتْ:

"بالطبع أنتِ لستِ كذلك. إن سمعتك في الحرب الأخيرة تجعلكِ فوق الشبهات"

قلت بجنون، وقد فاض بي الكيل:

"الحرب الأخيرة! الحرب الأخيرة! الكل يتحدث عن الحرب الأخيرة، دون أن يتطوع بمزيد من التفاصيل! لا علم لي بما تقولونه. هل أقسم على هذا؟"

كان صوتي عاليًا. نظر لي بقية أفراد المقاومة وهم يهمسون. لابد أنهم يقولون بأن العجوز قد جُنّتْ أخيرًا! تقدم شاب ضخم منا بخطوات بطيئة، كأنه يسير على حدود الأبدية:

"هل هناك ما يقلق أيتها القائدة؟"

رفعت يدها:

"الأمور بخير يا رمزي. لا تقلق"

رمزي؟ أخيرًا يوجد اسم مألوف في ذلك التيه!

انصرف المدعو رمزي، بينما وليّتُ وجهي ناحيتها.

"يبدو أن الحرباء كان صادقًا في أنكِ فقدت ذاكرتك، ولا تذكرين أي شيء!"

"الحرباء؟ أتقصدين الأشهب؟"

"هو ذاك! إنه-لو كنتِ لا تعلمين-جنس يستطيع أن يتشكل بصور عدة. خلاياه مرنة لدرجة التقمص، لكنهم قلة بطبيعة الحال، بعد أن قضوا نحبهم في الحرب الأخيرة. انضمامهم للشيطان، عجّل بنهايتهم!"

وقالت وهي تهزّ رأسها؛ كأنها تتعجب:

"من تسبب في وجودهم؛ هو قام بإهلاكهم!"

"الشيطان؟"

"لا أقصد الشيطان بمعناه الحقيقي. لكنه ذلك اللقب الذي أطلق على ذلك الرجل الذي دقّ طبول الحرب، وجلب الخراب للبلد!"

"وأين هو الآن؟"

الحقيقة أنني لم أكن مهتمة ذرة بمكانه، لكنه سؤال تلقائي خرج من فمي، وكأني أتواصل معها ذهنيًا. هزّت رأسها، وهي تقضم قطعة أخرى بأسنانها الجميلة الرائعة:

"لا أحد يعرف. البعض يقول بأنه قُتل. البعض الآخر يقول بأنه قد هرب. البعض الثالث يقول بأنه يستخدم آخرين في تحقيق أغراضه، ومحاولته الجديدة في السيطرة على مقاليد الأمور، ومن أجل أن يحقق هذا فهو يستخدم الملكة البيضاء".

تمام. هذا ما أريده. كل الطرق تؤدي إلى روما، وكل الأسئلة تقود إلى الملكة البيضاء!

"ومن هي الملكة البيضاء؟"

"إنها حاكمة ذلك القطاع من الأرض. سميت بذلك لأنها ترتدي وشاحًا أبيض عندما تظهر للعامة"

"يبدو أنكم تكرهونها!"

قالت بمقت:

"إنها طاغية؛ فقد وضعت يدها في يد الشيطان من أجل تحقيق مصالحها هي الأخرى"

"لكن لماذا تحرص على جلبي إليها حية؟ لقد كان الحرباء يأخذني إليها بالفعل"

ابتسمتْ، وكأني توجهت-كالحمقاء-نحو نقطة تريد هي الحديث عنها أصلًا:

"هذا هو بيت القصيد"

أنا محظوظة! لقد عشتُ حتى أري نفسي، وهي تقول هذه الجملة!

"نحن نريدكِ أن تذهبي للملكة البيضاء بقدميكِ!"

"ماذا؟ هل جننتِ؟"

أشارت بيدها؛ فهرع إليها أحد الرجال بصندوق صغير. صناديق مرة أخرى؟

وضع الصندوق أمامها ببطء؛ ففتحته بحرص بالغ، وأخرجت منه خنجرًا صغير الحجم إلى حد كبير، ويبدو نصله الحاد برَّاقًا لامعًا.

"هذا الخنجر الصغير مشبع نصله بسم زعاف. جرح واحد فقط في الجلد كفيل بقتل صاحبه خلال ثوان معدودة!"

تراجعتُ للخلف بتلقائية؛ فقالت مطمئنة إياي، وإن كان ما قالته قد أثار فزعي أكثر:

"اطمئني. أنتِ لستِ المقصودة بالطبع. كل المطلوب منكِ هو أن تختلي بالملكة، ثم تطعنيها في رقبتها! نريدُ منكِ قتل الملكة البيضاء!"

***

الفصل السابع والعشرون

"نعم؟!"

"كما سمعتِ"

"تريدين مني أن أقتل الملكة البيضاء؟"

"أجل"

قلت لأستوثق من جنونها:

"تريدين مني مقابلة الملكة البيضاء، وقتلها بهذا الخنجر؟"

"أنتِ معي على نفس الموجة".

حدَّقتُ إلى وجهها. إنها تتكلم بجدية. تطلب مني أنا قتل الملكة البيضاء! يبدو أن ذهولي المرتسم على وجهي المتغضن، جعلها تشفق عليّ؛ فقد قالت موضحة:

"الملكة البيضاء لا تقابل أي أحد. إنها تبحث عنكِ أنتِ، وما دامت قد طلبت إحضارك على قيد الحياة؛ فلابد أن هناك غرض لهذا. بنسبة كبيرة ستقوم بمقابلتك شخصيًا؛ لذا فرصتكِ أنتِ في تحقيق هذه المهمة ستكون وافرة".

"وفرصة مقتلي كبيرة أيضًا"

"سنحاول ألا يحدث هذا"

"تحاولون؟"

"أجل"

لم أجد ما أقوله. أنظر للجالسين هناك؛ فأجد أعينهم عليّ. يبدو أنهم ينتظرون ردي بلهفة. ويبدو أيضًا أن تنفيذ هذه المهمة مهمٌ جدا بالنسبة إليهم. لكن ماذا أخبر هؤلاء السادة المتحمسين؟ أنني لستُ قاتلة!

أنا لم أر دمًا يُراق من قبل. صحيح أن لديّ محاولات خفيفة مع العملاق آيرون، قبل أن أكتشف أنه حامٍ وحليف.

لكن قتل الملكة البيضاء؟ عن أي هراء يتحدثون؟ لابد أنهم يحسنون الظن بي جدًا، أو يسيئونه! لا أدري ما الفارق في الواقع.

هنا حدث شيءٌ غريب.

بدا شيء ما يتراقص تحت جلد محدثتي. كأنما هناك شيء ما يتحرك هناك، يشقُّ طريقه بين الجلد واللحم! ابتلعتُ ريقي برهبة؛ فقد تذكرتُ مشهد غضبي من أبي عندما كان يقوم بنقل أثاث الشقة للمنزل القديم!

هل هذا هو شكل الغضب عندما يتحرك حرفيًا تحت الجلد؟ قفزتْ هي مغادرة المكان بخطوات متخبطة. وجم الجميع. دون أن أفكر تبعتها. كانت هناك في حمام متهالك، عيناها محمرتين، وتبكي!

ما يبكيكِ يا صغيرتي؟! ها أنا ذا أتعاطف مع نفسي، بعد أن كنتُ أهمُّ بتهشيم رأسها! القائدة المحنكة، ها هذي تتحول لكائن بائس، مهشم نفسيًا بسبب... بسبب تلك الأشياء التي ما زالت تتحرك تحت جلدها.

صرختْ بعصبية شرسة، وهي تلتفت نحوي، حتى أن قلبي خفق مرتعبًا:

"اخرجي! اخرجي!"

غادرتُ فورًا، واستندتُ للجدار. سيمفونية الجنون تتزايد. أخرج فورًا. الهمهمة تتزايد بين القوم. الأمر جدّ خطير إذن. اقتربتُ من أحدهم، تطلع إليِّ بحذر، وكأني سأقوم بتحويله لمكنسة واقفة! قلتُ بهدوء، لم يخف رنة الرهبة في صوتي:

"ماذا دهاها!؟"

"إنـها..."

ثم توقف؛ مما أنبأني بأنه شيء لا يُستحب الحديث عنه. متفهمة هذا. إنه ذلك الهراء المتعلق بسمعة قائدة المقاومة في الأرجاء؛ فقصة واحدة عنها تصفها بسوء، أو تسبب في بذر الشكوك والريبة بخصوصها؛ فهذا كفيل بإنزال أسهمها في الحضيض.

عادت أخيرًا. وجهها شاحب، لكنه مغسول؛ فلا أدري إن كانت قد غسلته بالماء أم بالدموع؟!

هذا سؤال لن أحظي بإجابته للأسف، على الرغم من معرفتي بأنها أقرب الناس إليّ.

"ماذا قلتِ؟"

سألتني، وأنا أرمق وجهها بحثًا عن ذلك الشيء الذي يتحرك تحت جلدها.

"أنت تطلبين مني شيئًا ليس في طباعي"

كررت:

"ماذا قلتِ؟"

أرمق وجهها مجددًا. لا فائدة. لابد من إجابة الآن. أنا بين أيديهم، ولا أعرف ما عاقبتي لو رفضتُ عرضهم.

"هل يمكنني أن أتحدث معكِ على انفراد؟"

سألتها بدوري. تأملتني بصمت مستفز لدقيقة أو أكثر، ثم أشارت للخارج؛ وهي تتحرك بهدوء، وأنا أتبعها. الجوّ بالخارج شديد الجمال، ولم أكن لأشعر بجماله أكثر إلا لو قضيت ساعات طويلة خانقة في ذلك المقرّ السرِّي.

انتبهتُ الآن أنه يستقر تحت مبني مهدم، وقد دمّره انفجار سابق؛ وقد بدا هذا واضحًا من النيران التي شبّتْ في هيكله، وجعلته متداعيًا، قبيح الهيئة. النسيم العليل برائحة الطبيعة يتشبع أنفي به.

جلستْ على صخرة مستوية قليلًا، وإن كانت لا تقلّ قبحًا عن مثيلاتها.

"والآن، هل اتخذتِ قرارًا؟"

"أريد أن أعرف إن كنتِ تتمتعين بخيال رحب، قبل أن أتحدث إليكِ بصدق وصراحة"

"سؤال غريب، لكني أزعم أنني أملك عقلًا منفتحًا".

"سأكون صادقة معكِ، لكن في المقابل أطلب منكِ أن تعامليني بالمثل"

لم تجب فورًا. داعبتْ أصابعها الطويلة جزءًا من الصخرة، ثم قالت:

"أعدك"

"الآن، يمكننا أن نتحدث".

***

لكننا لم نتحدث. فجأة سمعنا خفق أجنحة في الأفق؛ كأنه هدير غامض ينذر بالموت القادم؛ فرفعتُ بصري لأجده هناك ينطلق بجناحيه العملاقين، ورأسه الحرشفية السميكة، وعينيه المحمرتين!

"تنين؟"

قلتها بدهشة. ذلك الزمن لا تنقضي عجائبه بالفعل، لكن سلمى أمسكت بيدي بسرعة وجذبتني للمخبأ:

"إنه التنين!"

"التنين؟ عما تتحدثين؟"

قالت بغيظ، ونحن نقترب من باب المخبأ:

"ألم تخبريني بأن الحرباء قد قتل التنين؟"

قلت، ولم أكن قد استوعبتُ الأمر بعد:

"أجل! لقد كان الخنجر......"

ثم توقفتُ للحظة، وصرختُ بعدها وأنا أشير إليه:

"هل تقصدين أنه هو؟"

"لم أطلقنا عليه اسم التنين إذن؟"

قلتُ، وأنا ألهث، ونيران مضطرمة تشتعل بجوفي:

"كنتُ أظنه مجرد لقب مجازي!"

"لا يوجد مجاز في هذا المكان. كل شيء مُجسّد وحقيقي جدًا!"

وتصديقًا لقولها؛ فقد أطلق التنين نفخة نارية من فمه، كاد لسانها يحررني للأبد من الجسد الفاني، لكننا كنا وصلنا وقتها لحائط خرساني استقبل معظمها، وإن وصل إلينا لفحها المؤلم. العرق يتصبب على وجهينا، وأنا أقول مرتجفة:

"إنه غاضب! إنه غاضب!"

"غاضب منكِ؟"

"أعتقد أنه غاضب من الحرباء! لقد خانه وقام بقتله، ماذا تتوقعين منه إذن؟"

بدا عليها أنها قد توصلت لفكرة نيّرة من أفكارها، وهي تنهض واثبة للمدخل المفتوح:

"إذن؛ فلدينا حلّ جذري لغضبه هذا؟"

لم أفهم معني ما تقوله. أرفع رأسي قليلًا؛ فأجده يحطّ أخيرًا على الأرض. يمكنني أن ألمح لغده الأحمر. الآن قد فهمت!

كل شيء هنا حقيقي بالفعل، حقيقي جدًا!

يتقدم من المدخل بوقار لم ينقص من غضبه ذرّة، ووقف بالقرب مني. لمحني. أنا متأكدة بأنه لمحني. لكنه لم يكترث. رفع رأسه أعلى. لغده البدين يتحرك الآن، يتراقص شيء ما بالأسفل، وأنا الذي كنتُ أظن بأنها مجرد حركة ما تتبع لغده البدين الرجراج! يوجد هناك نار حقيقية فعلًا. مولد نووي صغير قادر على توليد النار، وقذفها؛ وليس ذلك السخف الذي كنتُ أظنه عن نفسي من قبل!

الأمور تغدو جنونية، سريالية، خارجة عن إطار المنطق والمألوف. يبدو أنه يوشك على حرق المبني المحطم، والذي تعرض لانفجار في السابق. هذه المرة سيكون الانفجار فريدًا من نوعه.

هنا هممتُ بالوقوف، وتحذيره من احتواء المقرّ على أناس أبرياء من تهمة قتله، لكن سلمى غادرت بسرعة، وهي تدفع الحرباء أمامها بغلظة:

"لو كنتَ آتيًا من أجل ذلك الوغد فهو لك!"

وتراجعتْ للخلف. ظهر بعض أفراد المقاومة، والفضول ينهش ملامحهم، وإن كانوا مترقبين لحدوث معركة طاحنة الآن؛ لذا فقد وضع كل واحد منهم يده على سلاحه انتظارًا لما قد يحدث. أما التنين فقد تضاعف غضبه أكثر، ولو كان الغضب يحرق فقط لكان الحرباء الآن كومة من رماد!

إنه سيء الحظ حقًا! عندما تقتل فلتحرص أولًا ألا تكون ضحيتك تنينًا!

كنتُ متأكدة بأنه سيحرقه لا محالة!

نظر الحرباء حوله؛ فلم يجد مهربًا. اليأس على وجهه يبدأ على هيئة تشققات رفيعة على طبقة الجلد، ثم سرعان ما راح يتزايد، حافرًا ندوبه على الجلد الذي طالما تشكلّ في عشرات الأشكال من قبل!

هل يمكن أن ينقذه التحول الآن؟ مع تنين بجناحين عملاقين وسرعة معقولة؛ ففرصة الهرب تكاد تكون مستحيلة!

جثا على ركبتيه، وهمس:

"فلتفعلها! هيا! افعلها!"

وهنا حدث شيء غير متوقع، حتى بالنسبة لي؛ فقد اندفعتُ بين التنين والحرباء، وأنا أهتف:

"لا تفعلها!"

***

الفصل الثامن والعشرون

بعد أن فعلتها بدا الأمر غريبًا حتى بالنسبة إلي؛ فقد قتل الحرباء التنين الطيب، وألصق بي التهمة، ثم هرب معي من القلعة لتسليمي للملكة البيضاء! فما الذي يجعلني أغامر لإنقاذ حياته؟

سؤال كنت أرغب في إجابته بالفعل.

"ماذا تفعلين؟"

قالتها سلمى، وهي تحدِّق فيّ ببلاهة.

رفعتُ كلتا يديِّ أمام التنين، وقلتُ:

"لا تفعلها!"

تراجع أفراد المقاومة-الذين تزايد عددهم بطبيعة الحال-؛ ليروا ذلك الموقف الفريد: عجوز تقف بين حرباء متلونة، وتنين غاضب عاد من الموت مؤخرًا، وهو ينوي أن يحرق المكان بلهيبه، حتى يحقق انتقامه!

هل توجد تسلية تفوق ذلك؟

قلتُ بتؤدة، وأنا أنتقي كلماتي:

"لا تفعلها! ستحرقه، وسيؤنبك ضميرك ما دمت حيًا؛ لو كنتَ قادرًا على احتمال نيرانه؛ فافعلها!"

قلتُ لنفسي: ما هذا الهراء السخيف الذي أقوله؟ إنه مشهد رخيص يليق بفيلم قديم يقوم البطل فيه بوعظ أحدهم حتى يرتدع عن فعلته!

هنا حدث شيء مذهل لم أكن أتوقعه: انزلق جناحاه داخل جسده، ثم تبعتهما حوافره، وشيئًا فشيئًا بدا يتخذ الهيئة البشرية التي قد رأيته عليها من قبل، وبشكل ما انسدلت على جسده عباءته المميزة!

لكن وجهه ما زال يخبر عن حجم النيران التي تضطرم بداخله. رفع إصبعه نحوه وهمس بصوت فحيحي مزلزل:

"لقد قتلتني!"

"لكنك لم تمت!"

"وهل هذا سيصنع فارقًا؟"

"بالطبع. لماذا تتورط في إزهاق روح أحمق مثله؟"

"هذا الأحمق كان صديقي!"

"إنها غلطتك إذن لأنك سريع الخداع وأحمق، أو لأنك أعطيته ثقتك كاملة! لكن لا تلمه على ما فعله"

الغضب يلفح وجهي أنا، وأنا أقف أمامه. تهدأ أنفاسه قليلًا. أقترب منه في تؤدة.

"لقد حزنتُ حقًا على قتلك. كنت طيبًا معي، وقمت بمعالجتي، والاعتناء بي. لا تجعل تلك الصورة الجميلة تتحطم، لمجرد أنك لا تقدر على التحكم بغضبك!"

تمتم:

"إنه ليس غضبًا فحسب؛ بل مرارة عارمة!"

"أتفهم شعورك وأحسّ به. صدقني".

ثم قلتُ، وقد أخذتني نشوة الثرثرة، وكأنني في فيلم فعلًا:

"كنْ ما أنت عليه، ولا تتغير لمجرد أنك تتخيل بأن ذلك سيمنحك شعورًا زائفًا بالراحة! أما عن قاتلك فدعه. اعطه فرصة

أخرى؛ فإن اغتنمها كان بها ونعمت، وإن لم يفعل فستكون نهايته، لكن على يديٍّ غيرك!"

رمق وجهي بنظرة طويلة. خُيِّلَ إليَّ أن سلمى ومن معها يحبسون أنفاسهم من الإثارة. أنا أيضًا كنتُ أفعل، لكن بسبب الخوف كنت أتكلم بحرارة، وأتساءل: ما الذي أقوله؟

تراجع للخلف. ثم انزلق جناحاه للخارج مجددًا. ألقي نظرة على الأشهب، ثم عليٍّ، وتمتم:

"سنتقابل مرة أخرى"

ابتسمتُ:

"أنا متأكدة من هذا، وربما أحظي برحلة مجانية على متنك. لا أريد أن أموت قبل أن أجرب الطيران في الهواء!"

ابتسم. هل أنا جيدة لهذا الحدّ؟ صحيح أنها ابتسامة مفتعلة، داكنة، على وجه يجمع بين التنين والبشر، لكن لا بأس بها أبدًا.

ضرب الأرض بقدميه/ قائمتيه، ثم حلّق في الهواء، وهو يضرب الهواء البارد بنعومة منْ طار كثيرًا جدًا في الفضاء، حتى غاب عن أعيننا.

صفّق الجميع طربًا. لو كنتُ أملك وجهي الشاب-الذي كان يقف على بعد أمتار مني-فلابد أنه كان سيتورد حمرة! هذا من مميزات أن يرتدي المرء وجهًا قديمًا مهترئًا كهذا!

"لقد فعلتها!"

"أنا مندهشة مثلك!"

"تصحيح فقط: التنين كان من أشرس رجال الملكة البيضاء، قبل أن يتخذ موقفًا ويبتعد عنها!"

"ماذا؟"

"هذا ما لا تعرفينه عن التنين فيما يبدو!"

"عجيب! لكن لم أفهم! صحيح أنه ينفخ النار من فمه، لكن ما أهميته بالنسبة إليها؟"

تبادلت نظرة مع رفاقها، الذين ابتسموا بدورها.

"تعالي معي. أريد أن أريكِ شيئًا ظريفًا".

***

في مقرّ المقاومة، جلسنا على الأرض، أمام شاشة كمبيوتر قديمة. شيء قادم من الماضي البعيد.

كان أحدهم يقوم بعمل أشياء معقدة، حتى يقوم بتشغيل الجهاز.

"كيف يجمع بين التنين والبشر؟"

قالت:

"تلاعب جيني!"

هززتُ رأسي، وإن كنت لم أفهم وقتها ما تريد قوله. لو كانت ليلى هنا، فلابد أنها ستكشف الأستار عن تلكم الطلاسم. لا، إنها خبيرة آثار، لكن ليس في مجالات العلوم. لو كانت تفهم لبدا هذا واضحًا عليها أثناء لقاءنا مع فوزي. فرصة كهذه لن تفوّتها؛ من أجل أن تشعرنا بجهلنا!

أفتقد تلك المتحذلقة!

انتهي الرجل أخيرًا من تشغيل الجهاز العتيق. على الشاشة كانت هناك جموع الجماهير تقف، أمام قصر عال فوق ربوة عالية، ومن نافذته العملاقة المستطيلة ظهرت الملكة البيضاء.

استطعتُ أن أميز-من خلال زاوية الكاميرا البعيدة نسبيًا-وشاحها الأبيض الذي يتطاير بفعل الريح، وهي ترفع يديها أمام الرعية. لاحظتُ أن ثمة فتورًا، لم يكن هناك تصفيق مرحب، وكأنهم يكرهونها بالفعل! بدا الوضع لي غير مفهوم.

نظرتُ لسلمى بنظرة متسائلة؛ فابتسمتْ، وقال:

"اصبري"

عدتُ ببصري للشاشة. هنا ظهر التنين فوق القصر. تعلقت به الأبصار برهبة، وهو يحوم حول المكان بجناحيه. ثم استقر على أعلى نقطة في القصر، مما بدا أنه مسلة عالية، وغرس مخالبه فيها، وتدلي ببراعة كالوطاويط، ثم أرخي رأسه بشكل عجيب، ثم...

ثم حدث شيء لم أكن لأتخيله مهما شطح بي من خيال!

***

الفصل التاسع والعشرون

"هل هناك خدعة ما في الأمر؟"

"إنه حقيقي تمامًا!"

قالتها سلمى بهدوء، وأنا أنظر إليهم بعدم فهم. أعود بعينيِّ للشاشة، وأنا أتابع الشيء المذهل الذي يحدث. لقد راح التنين يغني. صوت رخيم عذب، لم يمكن للمرء أن يصدق وجود ذلك الصوت حتى يسمعه بأذنيه!

ماذا كان يقول؟ الحقيقة أنني لم أعرف. كانت لغة غريبة عنى تمامًا، وإن كان نقاء مقاطعها، يؤكد أنها كلمات تقول شيء ما.

أنظر للجماهير أمام القصر؛ فأجدهم مشدوهين بما يسمعونه. البعض سالت دموعه، بينما الفتيات وضعت أيديهن على قلوبهن، وهن يُرحن رؤوسهن على أكتاف بعضهن. حالة مدهشة من الشجن راحت ترفرف على المكان، ذرات الثلج تذوب ببطء ناعم، تتراقص ذراتها في الهواء، تحلق السعادة بجناحيها فوق رءوس الجميع، وثمة شعور عارم بأن الحياة تستحق أن تعاش بما فيها من آلام ومنغصات!

تنتهي أغنية التنين؛ فتتعالى الأكفّ بالتصفيق والاستحسان، داخل الشاشة وخارجها، أفراد المقاومة يبكون، وهم يتظاهرون بالتماسك! لقد رأوا هذا التسجيل من قبل؛ ويبدو أنهم يبكون كل مرة!

عجيب!

قالت سلمى، وهي تمسح دموعها:

"هذا هو سلاح الملكة البيضاء! إن التنين ليست أهميته في النار التي ينفخها من جوفه، أو في مقدرته المذهلة على القتال! لا؛ إن قدرته في التأثير على الجماهير، وتوجيهها لما تريد الملكة!".

"حقًا؟!"

"لهذا لكِ أن تتخيلي ما أصابها من جنون عندما تمرد على سيطرتها، واتخذ لنفسه تلك القلعة، التي كنتِ فيها"

"والآن هي تريده من أجل السيطرة على الجماهير مجددًا؟"

"لقد خلت الأرض المنسية من الشيطان أخيرًا، والذي كان يثير الرعب فيها قديمًا، وصار الطريق معبدًّا أمامها من أجل أن تحكم".

"همممم!"

لقّنا الصمت، ونحن ندخل البناية المتهدمة، والتي كانت ستتحول لكومة غبار منذ قليل، وهمهمات الأشهب تأتي خلفنا، والرجال يدفعونه بغلظة أمامهم، وهو يبدي اعتراضه دون أن يكترث به أحد.

بعد ساعات راح الجميع في النوم. لكني لم يغمض لي جفن. أتأمل السقف المتهدم، والسواد الكالح الذي يكسو طبقة الأسمنت الخشنة.

سمعتُ وقع خطوات قادمة ناحيتي ببطء. لم ألتفت. كنتُ أعلم بأنها هي. بعد لحظات كانت تدخل مجال رؤيتي. تستلقي بجواري، وتنظر إلى السقف مثلي.

"هل يعجبك منظر السقف؟"

سألتني مبتسمة.

"كيف تعيشين هذه الحياة الصعبة؟"

بدا أنها فوجئت بالسؤال. لحظة صمت، ثم قالت وهي تهزّ رأسها هزّة خفيفة تتناسب مع وضعية رقدتها:

"لا أعرف! إنه التعود كما أظن"

أي تعود هذا؟ أنتِ لا تعلمين الحقيقة يا صغيرتي. لا تعلميها.

"صحيح، كنتِ تريدين الحديث معي في شيء ما. أليس كذلك؟"

"هل يمكن أن يحدث هذا فعلًا؟"

قالت بحذر، أتفهمه:

"ماذا تقصدين؟"

"أن أعود لمنزلي!"

"هذه هي المرة الثانية التي تتحدثين فيها عن المنزل! أليس من المفترض أن يكون قريبًا من هنا؟"

اعتدلتُ في جلستي، وقلت لها:

"إنه كذلك. دعيني أريكِ إياه"

واتجهتُ للخارج، وتبعتني الفتاة، وهي تضع يدها على سلاحه في حزامها. ابتسمتُ، وأنا أعلم بأنني سأفعل لو كنتُ مثلها. كانت النجوم ملتصقة بصفحة السماء السوداء. أرمق الأفق المترامي على مدي البصر. أنظر حولي. أستجلب تفاصيل المنزل من ذاكرتي. لم يكن الأمر سهلًا، لكنني فعلتها أخيرًا، واستطعتُ أن أحدد محيطه

بالضبط. أشرتُ لنقطة ما، حيث يوجد سور قصير محيط زرعت حوله سلسلة من الأشجار العملاقة، على بعد عدة كيلو مترات تقريبًا.

"ما هذا المكان؟"

"لم أكن أعرف أنكِ تقيمين في المقابر!"

***

برغم الوهن الذي ينشب أسنانه في عظامي، لكنني أصرَرتُ على الذهاب إلى هناك.

"الوقت ليل، ولا نعرف ما يمكن أن يخرج من تحت عباءة الظلام!"

"لم أكن أعرف أنكِ خائفة!"

قالت بضيق:

"ليس خوفًا، لكنه...."

كنتُ أرمق وجهها وهي تتكلم؛ فتوقفتْ، ثم زفرت:

"فليكن. لكننا لن نتأخر كثيرًا هناك"

"اتفقنا".

دخلتْ المقرّ، ثم عادتْ بعد نصف ساعة تقريبًا، وهي تحمل حقيبة في ظهرها؛ فبدت كطفلة تتأهب للذهاب للمدرسة. ابتسمتُ على الرغم مني. لقد كنتُ كذلك ذات يوم. أحاول أن أتذكر. أعتقد أن ملامحي لم تختلف كثيرُا عن أيام دراستي الأولي. لقد كنتُ فاتنة في كل الأوقات!

بدأنا رحلتنا.

كانت الظلمة تسكب مدادها على الأرجاء دون تمييز، وإن كانت هناك أماكن أكثر ظلمة من الأخرى، ومع تكاثفها الغريب، كان الخيال ينشط ويشتعل!

لن أندهش لو خرج أي شيء منها!

لكن هذا لم يحدث. الصمت يغمر المكان بدفء عجيب، يكاد يتغلب على درجة البرودة العالية. وصلنا بعد ساعتين تقريبًا. دفعت سلمى باب خشبي، وعبرنا السور للداخل. كان الفجر يبذر أولي أشعته. شعاع فضي بدا في الأفق على استحياء، ثم راح كبر ويتعاظم، وتبعه أخوته، ومن قلب الأفق راح الضياء يتمطى، ويتثاءب، ويستيقظ!

شواهد القبور لا تقف بانتظام. يبدو أن قنبلة ما قد دنست حرمتها في الماضي. أتذكر حديث نجيب السمسار، عن وجود مقبرة تحت المنزل. لقد رأيتُ واحدة منها. جثة القرد الأحمر! تري ماذا حدث في تلك الليلة البعيدة؟

الآن، كل ما أراه هو موتى، تستقر عظامهم بأسفل. أسير ببطء. أتنسم رائحة الموت لأول مرة في حياتي. رائحة الفناء العميقة، ترتجف لها أوصالي، قشعريرة باردة تتسلق ظهري بنعومة خبيثة.

الخوف! الخوف!

الخوف مما مضي، الخوف مما هو آت!

فجأة أتوقف. أشهق رغمًا عني. أجثو عل ركبتي. تسيل دموعي غزيرة ساخنة، في أقل دقيقة.

تهتف الفتاة في فزع:

"ما الأمر؟" ما الذي حدث؟"

ضوء الشمس يظهر أخيرًا. غلالة ذهبية رقيقة تنسدل على أشجار الصفصاف والجميز، بأوراقها المحترقة، ومحاولاتها البائسة في البقاء حية!

أشير إلى أربعة قبور. إلى شواهد أربعة قبور على وجه الدقة، مكتوبٌ عليها أسماء أبي وأمي، وأحمد، وليلى!

***

الفصل الثلاثون

"أخبريني ما الذي يحدث؟"

كانت تسأل بعصبية، بينما الخرس قد عقد لساني؛ فلم أقدر على النطق بكلمة واحدة. هذا يفوق أعظم كوابيسي قاطبة! أتحسس الشواهد المتهالكة، والتي تساقطت تواريخ موت أصحابها من الطبقة الجيرية. الآن فقد أشعر باليُتم!

المصيبة أن القبور كانت مفتوحة، وقد بدا أنها حريقًا هائلة قضي على الهياكل بداخلها!

من الوغد الذي فعلها؟

تتصاعد مشاعري بشكل بطيء في أعماقي. أنهض بعينين محمرتين من البكاء الجارف الهستيري.

أسألها صارخة:

"من أنتِ؟"

يتردد سؤالي في المدي الخالي، يتكرر بطريقة مستفزة، وكأن كل شيء يموت هنا إلا الغضب!

قالت مصدومة:

"أخبرتكِ أنا سلمى، قائدة......"

أقاطعها بشراسة:

"كلا! أنا سلمى، وليس أنتِ!"

تتحسس سلاحها فلا تجده. تنظر بفزع لحزامها الخالي، وتحدِّق إليِّ؛ فألوح بالسلاح في وجهها:

"هل تبحثين عن هذا؟!"

"كيف فعلتها؟"

"في الظلام تحدث أشياء كثيرة يا فتاة!"

أتخيل بأن ملامح وجهي المتغضن زادت تصلبًا، وعروقي الزرقاء نفرت بشكل بشع؛ فبدوت كما لو خرجتُ من لوحة زيتية مخيفة! ما زلتُ ألوِّح بالسلاح، وكأني أفرغ شحنة المشاعر المضطرمة بداخلي.

"اهدأي. كل شيء سيكون على ما يرام"

أصرخ فيها:

"لا تطلبي مني الهدوء! كل شيء لن يغدو كما كان!"

قالت، وهي تحاول تهدئتي بطريقة عملية، وهي تشير بإصبعها إلى شواهد القبور:

"من هؤلاء؟"

"إنهم عائلتي!"

تمتمت:

"أنا آسفة فعلًا!"

"لا تتأسفي عن هذا. يمكنكِ أن تعتذري عن تدمير حياتي!"

"لا أفهم!"

رويتُ ما حدث بأنفاس لاهثة، مشتعلة. أنهيتُ قصتي، وأنا أشعر براحة عجيبة تسري في جسدي. تنظر إليّ بصمت، كما فعل التنين من قبل.

ثم كان أول ما قالته بعد ربع ساعة من الصمت المطبق:

"إذن؛ فأنتِ تظنين أن جسدي هذا هو جسدك؟!"

"إنه كذلك"

"لكنني أشعر بالحيرة يا سلمى."

هذه هي المرة الأولي التي يناديني فيها أحدٌ باسمي الحقيقي. منذ متي؟ لماذا يبدو كأنه منذ زمان طويلٌ جدًا... المفارقة أن هذا صحيح حرفيًا!

جلست على الأرض، وبدتْ حائرة، وهي تحاول السيطرة على الصورة الذهنية لها كقائدة مقاومة حازمة، تأخذ أكثر القرارات المصيرية في ثوانٍ! إنها تجربة مختلفة بالنسبة إليها؛ أن يتهمها أحدٌ بأن جسدها ليس جسدها!

قالتْ:

"أنا أتذكر سني طفولتي هنا. ذلك الملجأ الذي يقع على حدود المدينة، والذي قضيتُ فيها اثنا عشر عامًا، قبل نشوب الحرب، وخروجي من الحياة الضيقة لحياة واسعة. أتذكر سني المقاومة الأولي، محاولاتي المستمرة لإثبات ذاتي بين الرجال، العمليات التي قمتُ بها، عشرات المآزق التي تعرضتُ لها، والتي أصابتني بندوب موجودة حتى الآن على جسدي"

قلت بفزع؛ فآخر ما أريده أن يشوِّه أحد جسدي الجميل.

"ندوب؟!"

رمقتني بصمت، وكأنها تتخذ أحد قراراتها، ثم رفعت قميصها.

تراجعت مصدومة، وأنا أري تلك التمزقات على الجلد. التمزقات التي التأمت، وتركت خلفها أثارًا لن تُمحي في الغالب!

أترك السلاح من يدي. يسقط مصدرًا صوتًا عكّر صفاء الصمت الأزلي. لم تهتم هي بأخذه. كانت مصدومة مثلي. من منا على حق، ومن الواهمة؟!

"هل يوجد حلّ لما نحن فيه؟"

سألتها بصوت خافت. بدا أنها غارقة في خواطر سوداء لا أول لها ولا آخر. ثم رفعتْ رأسها، وقالت:

"يوجد دومًا حلّ. هذا الشيء الوحيد الذي تعلمته مما واجهته ورأيته في السنوات الماضية".

"أعتقد أنها مشكلتنا ليست في كتالوج المشاكل الذي قابلته من قبل. اليس كذلك؟"

"ربما! أنا لا أعرف الحلّ، لكن قد يوجد من يعرف"

"من؟"

"رجلٌ ما على حدود الغابة. يُقال بأنه يعرف الكثير!"

"من هو؟!"

"إنه شخصية غامضة، لكنه أسدي النصح للكثير من الناس، وتغلَّب على أعقد المشاكل!!"

"هل توجد شخصية كهذه؟"

نهضتْ، وألقتْ نظرة على الأفق المتوهج بألوان الشمس الذهبية.

"اسمعيني جيدًا. ساعديني في الدخول لقصر الملكة البيضاء، وسأساعدك بالمثل في الذهاب إليه"

***

في المقرّ كانت سلمى تعدّ العدة للذهاب للقصر. كان الأشهب في القفص يبدو في أسوأ حالاته، منكسًا رأسه.

قال رمزي، وهو يشير إليه:

"لم يتحرك منذ حبسناه!"

"لا يغرنك صمته هذا؛ إنه داهية، يمكن أن يفاجئك بأي خطوة لم تكن في حسابك"

تمتم، وهو يتأمل وجهه:

"لا أظن. لقد حطمته مواجهة التنين! يمكنني أن أترك طفلًا صغيرًا لحراسته، ولن يتحرك شبرًا واحدًا!"

نظرتْ إلىَّ سلمى، وقالت:

"هل أنتِ مستعدة لمقابلة الملكة البيضاء؟"

أومأتُ برأسي في رهبة.

***

بعد ثلاث ساعات من السير المتواصل، وصلنا لبوابة القصر. رمقنا الحارسان بتشكك.

قالت سلمى، وهي تمسكني من كتفي بغلظة:

"الملكة البيضاء وضعتْ مكافأة مجزية لمن يأتي بالسيدة العجوز!"

اعتدلا، وفحصانا بأعين ثاقبة، تمسح الخارج والداخل، ثم أشار أحدهما بيده؛ فأنزل الآخر ذراعًا معدنية لأسفل، وهنا رأيتُ مدخل القصر ينفصل عن المبني الضخم، وينبسط أمامنا. فغرتُ فمي بدهشة؛ مما جعلها تقول مفسرة:

"التروس! كل شيء يعتمد على التروس في هذا العصر!"

"مذهل!"

هزَّتْ رأسها:

"غير صحيح! إنه الخوف!"

اقتادنا حارس ثالث ضخم للبوابة الضخمة، وعبرنا منها؛ لنسير في ممرات ذات إضاءة شاحبة كئيبة، قبل أن يتغير كل شيء عندما أشرفنا على قاعة القصر الرئيسية. قاعة مهولة، أرضيتها من الرخام الشفاف الشبيه بالزجاج، والذي يشعّ بلون أزرق هادئ؛ لتغمرنا رهبة مريعة، وأنا أتوقع قدوم الملكة البيضاء في هيئة كائن خرافي، يتسم بالقوة والجبروت!

بعد قليل سمعنا تلك الخطوات. نظرنا؛ فوجدنا الأشهب يُحدِّق إلينا بعينين خبيثتين مملوءتين شماتة.

هتفت سلمى:

"كيف؟"

قال باستهتار:

"لم يكن من الصعب الهروب من هؤلاء الحمقى!"

تمتمتْ بغيظ عارم:

"كنتُ أعرف هذا!"

"المعرفة لا تغني عما يمكن أن يحدث؛ ففي النهاية كل الطرق تؤدي لنهاية واحدة محددة سلفًا!"

"لم أكن أعلم أنك حكيم!"

قلتها، وأنا أتوقع ظهور الملكة في أي وقت.

ضحك:

"الحقيقة أنها لا تعود إليِّ؛ بل تعود لمولاتنا الملكة"

الآن تصل لمسامعنا خطوات أنثوية واثقة، يصل إلينا صداها قبل قدوم صاحبتها، فتعلقتْ أبصارنا بمدخل جانبي بالقرب من العرش الذهبي، قبل أن تُطِّلّ الملكة البيضاء.

تراجعتُ للخلف بذهول حقيقي، وأنا أنظر إلى الوجه المألوف تمامًا، وهتفتُ:

"ليلى!"

***

الفصل الحادي والثلاثون

أكرر، وأنا أتشرَّب تفاصيل وجهها، الذي كاد يغيب خلف غلالة ضبابية سخيفة، حتى أني كنتُ أسائل نفسي: إن كانت موجودة حقًا؟!

"ليلى؟!"

سألتني سلمى بصوت خفيض:

"ليلى من؟ شقيقتك؟"

سألتني؛ فأومأتُ برأسي، دون أن أحوِّل بصري عن وجهها. واصلتْ، وكأن الغلالة الضبابية السخيفة تحيط بعقلها أيضًا، ولا ألومها كثيرًا:

"إنها الملكة البيضاء! الآن اتضح الأمر؛ أنتِ مجرد عجوز مجنونة!"

قلتُ مرتبكة:

"لا أستبعد هذا الآن!"

ابتسمتْ الملكة، وخرج من حنجرتها صوت مطابق لصوت أختي:

"حقًا؟! أشبه شقيقتك؟ أتدعّيان الجنون الآن؟ أما زال هناك من يستخدم هذه الحجة الحمقاء؟"

تقدمتْ مني، ووضعت يديها حول وسطها بوقار ملكي صميم:

"ها نحن نتقابل أخيرًا بعد سنوات من الأقاويل التي تتناثر هنا وهناك"

وداعبتْ خاتمًا ضخمًا من الماس يستقر في سبابتها:

"يقولون بأنكِ كنت عاملًا مساعدًا في هزيمة الشيطان!"

"أنا مندهشة من هذا؛ فلا أتذكر أنني فعلتُ هذا من قبل!"

ضحكتْ، وجلست على العرش. لا ينقصها المرح بعد كل شيء.

"سلمى قائدة المقاومة أيضًا؟ أنا محظوظة! ضربتان في يوم واحد!"

قالت سلمى بتحفظ:

"المعجزات ما زالت تحدث إذن!"

"في نفس اللحظة التي نتكلم فيها الآن هناك فرقة من القناصة تتأهب؛ لتعقب المخرِّبين"

بدا خوف حقيقي على وجه سلمى؛ فهم عائلتها على كل حال؛ أما أنا فقد كنت مرتبكة، حائرة، مشوشة، أقترب من أقرب مقعد لي، وأجلس عليه دون أن أنتظر إذن ملكيًا؛ فتحرك الحارس بتحفزّ، وهو يهمّ بالتعامل معي بغلظة كما أحسب، لكن الملكة أشارت بيدها تمنعه؛ فتراجع صاغرًا، بينما الملكة تقول:

" دعوها تريح عظامها الواهنة!"

تجاهلتُ قولها، ورحت أفكر بشكل منطقي؛ علّ هذا يقضي على الصداع الوليد، على البلاهة التي راحت أشجارها تنمو وتسمق في ذهني. أي محاولة للهروب من جحيم المشاعر!

النقطة الأولي: سلمى ليست سلمى**!** مجرد شبيهة لي، تحمل نفس الاسم، ولديها تاريخ هنا. أي أننا منفصلتان تمامًا.

النقطة الثانية: كان من الممكن أن يغدو التشابه مجرد صدفة نادرة، لكنها قابلة للحدوث على كل حال. صحيح أنه سيغدو مستغربًا أن أتقابل مع شبيهتي، بعد عشرات السنين في المستقبل البعيد، وفي جسد عجوز، لكن ليس مستحيلًا.

النقطة الثالثة: النقطتان الأوليتان تتحطمان تمامًا بمطرقة من الفولاذ تحولهما لشظايا؛ بظهور أختي ليلى، أو شبيهتها. لستُ أدري بعد.

النقطة الرابعة: أكاد أصاب بالجنون حقًا؛ فماذا يحدث بالضبط؟

تقترب مني الملكة بخطوات بطيئة، وهي تركز عيناها عليِّ، وتجلس بجواري. أرمقها بدهشة؛ فتقول بصوت أفتقده منذ زمان، وإن كان قد أتي في شخصية غير متوقعة بالمرة:

"هل تعلمين لماذا أريدك؟"

لم أنطق بكلمة.

أشارت للأشهب:

"أخبرني بأن عقلك صار صفحة بيضاء من غير سوء، وأنا أصدق هذا"

ثم تأملت أصابعها:

"لكن لا تقلقي. يمكنكِ أن تستعيدي ذاكرتك المفقودة؛ فلدينا أجهزة متطورة يمكنها أن تحقق ذلك بأكبر قدر ممكن من النجاح".

ما زلتُ صامتة.

"في عقلك توجد التفاصيل الكاملة لمواجهتك معه قبل هزيمته. أريد أن أعرف كيف فعلتها؟"

"أعرف ماذا؟"

"كيف هزمتِ الشيطان في عقر داره؟ أية قوة تملكينها ولا أملكها؟ هذا هو السؤال؟"

***

زنزانة واسعة رحبة، لكن جلستنا كانت كئيبة بما لا يقاس.

"هه! لهذا تريدك إذن؟"

قالتها سلمى، ومعنوياتها في الحضيض بسبب خبر تصفية أفراد المقاومة. لابد أنها تتخيل سقوطهم صرعي الآن على أيدي القناصة. أشفقتُ عليها، ولم أدر ما هو التصرف الأمثل. مددتُ يدي بحذر، ثم ربتُّ على كتفها برفق. أومأت برأسها شاكرة، وإن كان الشحوب يؤكد بأن حالتها لم تتحسن ذرة.

"لابد أن هروب الحرباء منهم قد جعلهم يأخذون حذرهم، ويغادرون المكان"

انتعش الأمل في وجهها؛ فرفعت رأسها، وقالت:

"هل تعتقدين هذا؟"

قلت كاذبة، وبحماس مفتعل:

"ولم لا؟ فهم لا ينقصهم الذكاء وسرعة البديهة. لابد أنهم في مكان آخر الآن".

انتعش الأمل على وجهها للحظة، قبل أن يعود ذلك الشيء يتراقص تحت سطح جلدها الأبيض! هناك ألم فظيع يبدو على وجهها، تتراجع للخلف، وهي تضع يديها عليه، وهي تهمس بصوت مختنق:

"اهربي! اهربي!"

أتراجع بدوري للخلف، أنظر لنافذة الباب الفولاذية، صارخة:

"نريد مساعدة هنا. أرجوكم! الفتاة في خطر!"

شعرتُ بيدها تسقط على كتفي بقوة عنيفة من الخلف، جعلتني أهوى أرضًا، وصوتها المتغير، المليء بالجشع والشراسة يتمتم:

"لستُ أنا من في خطر؛ بل أنتِ!"

***

الفصل الثاني والثلاثون

عندما صحوتُ كنت أشعر بأن كل قطعة من عظامي قد تم شطرها لنصفين! أحاول النهوض، لكن ألمًا كاسحًا اجتاح عمودي الفقري؛ فعدت للخلف مرغمة، أبتغي الراحة، انتظام أنفاسي، والقليل من الفهم إن أمكن. القليل فقط.

فهل هذا كثير؟

يبدو أنه كثير فيما يبدو! قلتها على سبيل التهكم من نفسي، وأنا أفتح عينيِّ مرة أخرى، وهنا أمكنني أن أري شاشة كبيرة على الجدار البنفسجي. فجأة بدأت الحياة تدّب فيها. أري عليها سلمى وأنا في الزنزانة، والأولي قد صارت خلقتها بشعة؛ من أسنان برزت للخارج كمصاصي الدماء، وشعر كثيف كالإبر نفذ من ثيابها الخشنة، وعيناها اللتان تحولتا لكرتين من الجمر المشتعل!

يبدو أنني صرتُ مجرد كرة في يدها، قبل أن يقتحم الحرّاس المكان، ويقوم واحد شجاع منهم-بعد أن ضربت خمسة منهم بالحائط؛ فتحطمت عظامهم أيضًا! - بالالتفاف حولها، وحقنها في عنقها بشيء ما من خلال إبرة قصيرة رفيعة، غاصت في اللحم بسرعة، وأرغمتها على أن تترنح، ثم تسقط أرضًا بجواري!

يبدو أنني من الذهول والألم وعدم الفهم قد فقدتُ وعيي، ونسيتُ ما حدث فعلًا!

يا للذاكرة وألاعيبها!

يقطع عليّ تدفق أفكاري دخول الملكة التي هي أختي ليلى في الأصل، أو التي تشبهها لحد جحيمي! التقديم والتأخير، التأخير والتقديم، الوهم، الحقيقة؛ من يكترث؟!

كانت جميلة جدًا ذلك الصباح. ترفل في عباءة زرقاء مطرزة بالذهب والماس، وأشياء أخرى ثمينة، أبرزت استدارة وجهها، وحمرته الفاتنة، ولون عينيها الصافيتين. من غير نظارة تلبسها، أو قصّةّ الشعر الكلاسيكية جدًا القادمة من الأزمنة الغابرة، تبدو تلك النسخة من ليلى أكثر جاذبية وبهاءً، حتى أن جمالها يتفوق عليّ أنا شخصيًا بمراحل!

هذا طبعًا قبل أن يحدث ما حدث!

من داخلي، وأمام مرآة نفسي بدوتُ مثيرة للشفقة، جالبة للأسي!

"شيء مثير للأسف والأسي! هه!"

قالتها، وهي تجلس بوقار ملكي صميم. نظرتُ إلى وجهها؛ هل سمعت ما أفكر فيه؟

تشير للشاشة، وكأنها تجيب على تساؤلي الجديد:

"ما فعلته رفيقتك، تلك الفتاة التي تدعي أنها تعمل لصالح الشعب، وهي في حقيقتها مجرد وحش بشع، كاد يفتك بكِ بلا رحمة!"

ثم استدركتْ في تواضع زائف شممتُ رائحته العفنة فورًا:

"هذا قبل أن أحضر بنفسي وأنقذكِ من بين أيديها!"

قلتُ ببرود:

"الحقيقة أن حرّاسك هم من فعلوها، وليس أنتِ!"

قالت بسرعة:

"بأوامري وتوجيهاتي، ثم إنني كنتُ بالخارج وقتها، أتابع ما يحدث"

تمتمتُ، غير راغبة في الدخول لجدل عقيم:

"بالتأكيد"

واصلتْ مدح عبقريتها:

"كنتُ محقة عندما طلبتُ وضعكما في زنزانة تقع تحت نطاق المراقبة؛ لقد أنقذ هذا حياتكِ، أليس كذلك؟"

قلتُ بنفاد صبر:

"ماذا تريدين؟"

طقطقت بلسانها:

"هه! أنتِ تحدثين ملكة الأرض المنسية!"

قلت ساخرة:

"معذرة؛ فقد نسيتُ هذا!"

واستجلبتُ قدرًا هائلًا من الهدوء، وأنا أدفع سخريتي في كهف مظلم:

"ماذا تريد جلالة الملكة مني؟"

قالت برضا، وكأنها مسرورة بأنها قامت بتأديبي في أقل من ثلاث ثوان:

"أريدكِ أن تبصري الحقيقة، تفهمي حقيقة الوضع، ما أنتِ فيه"

"وهل ترينني عمياء؟"

"ما أكثر المبصرين الذين لا يرون!"

"وما الذين تريدينني أن أراه هنا؟"

"الجانب الذي يجب أن تنضمي إليه"

"جانبك طبعًا"

"بدون شكّ"

ثم أردفت بتؤدة:

"الكل يقول بأني شريرة، أتوق للسلطة، وإراقة الدماء، لكن هذا غير صحيح بالمرة"

قلت بتهكم مستتر:

"وما هي الحقيقة؟ ما هو غرضك مما تفعلينه؟"

لزمت الصمت للحظات، ثم قالت، وهي تميل نحوي:

"أريد التحرر!"

قلتُ بحذر، وأنا أركِّز النظر إلى عينيها:

"من أي شيء؟".

أشارت لنفسها، وهمست:

"أريد التحرر من هذا الجسد!"

***

الفصل الثالث والثلاثون

"معذرة! ماذا قلتِ؟"

كررت، وكأنها تريد إثارة جنوني أكثر مما أحتمل:

"أقول بأنني أريد التحرر من هذا الجسد!"

ابتلعتُ ريقي. هل هذا ممكن؟ هل...؟

رمقتني من خلف أهدابها الطويلة. تقول بنعومة، وهي تبتسم:

"أراكِ صامتة دون أن تبدي ردّ فعل مناسب للجنون الذي أقوله!"

لن أنطق بكلمة. لن أنطق بكلمة. ليس الآن.

"إلا لو كنتِ على علم بما أقوله! أليس كذلك؟"

" لم أفهم!"

حقًا، لم أكن أفهم. أحتاج للمزيد من المعلومات، كلما ظننتُ أنني بلغتُ حافة الغموض القاتمة، وأنه لم يعد هناك درجات أخرى للظلام

المحيط بي، تتكشف لي درجة أخرى منه أكثر قتامة، خطوة أعمق لأسفل، مرحلة أخرى نحو الجنون!

"أنتِ لم تتذكري بعد. أليس كذلك؟"

أقول مرتبكة:

"أتذكر ماذا؟"

"أن هذا ليس لقاءنا الأول!"

زاد ارتباكي، وأنا اعلم أني كاذبة؛ على الأقل من منظوري الخاص:

"هل التقينا فعلًا من قبل؟"

ابتسامة شاحبة نمت على شفتيها، في نفس اللحظة التي دخل فيها أحدهم. كان متوترًا، وهو يهمس للملكة بشيء ما تعكّر وجهها على إثره. تركتني دون أن تقول أي كلمة. تلك الجلسة الحميمية لم تدم كثيرًا للأسف.

ربما لو ظلت أكثر ربما عرفتُ منها المزيد، لكن لا فائدة. سأعرف شيئًا، وستنبت بدلًا منه عشرات الأشياء المجهولة الجديدة. إنها متوالية مطردة لعينة؛ لا تنتهي إلا لتبدأ، ولا تبدأ إلا لتنتهي. بعد قليل دخل آخر ومعه صينية عليها بعض الطعام تفوح منه رائحة شهية.

كدتُ أنسي مشاكل الطعام والشراب في خضّم ما أمرّ به. مددتُ يدي، ورحتُ أمضغ الطعام بنهم، وكأن مرآه قد ذكرني بجوعي!

ثم دخل رجل.

طويل القامة، نحيل، يضع نظارة طبية على عينيه المنهكتين، وله لحية تناثرت فيها شعيرات بيضاء بأعلى وأسفل. خطر لي أن هذا سمتْ عالم.

صدق حدسي.

اقترب مني ببطء، أكاد أقول بثقة أنه حذر مشوب خوف. ماذا قالت الملكة لهم عني يا تري؟!

"بماذا تشعرين الآن؟"

"أحاول إسكات صراخ معدتي كما تري".

لم يبتسم. لا يتمتع بحسّ الدعابة إذن!

"ما الأمر؟"

"بعد انتهاءك من وجبتك، أرجو أن تتهيئي"

"لم؟"

"ألم تخبرك الملكة؟"

هززتُ رأسي أن لا.

ابتلع ريقه بتوتر. مما يخاف؟

"أتخاف من الاقتراب مني، أم أنني أتخيل؟"

بدا عليه التردد. صدق حدسي مرة أخرى. أنا محقة إذن.

"فيما تريدونني؟"

"كشف بسيط. مسح لجسدك"

"بمعني؟ تحدث بلغة أفهمها من فضلك"

طال تردده؛ فصرختُ بتوتر:

"هل سنظل هكذا للأبد؟! تكلم!"

ارتجف:

"ثمة شكوك أن جسدك ليس على طبيعته"

قلت بسخرية:

"هذا لا يحتاج لعبقري. أعرف هذا جيدًا!"

قال مندهشًا:

"أتعرفين أنكِ تعرضتِ للعنة الشيطان عندما كنتِ في قلعته؟! عجبًا! المفترض أنكِ قد نسيتِ كل شيء!"

عما يتحدث ذلك المخبول؟!

أنظر إليه؛ مما جعله يدرك بأنني لا أعرف شيئًا عما يتحدث بالفعل.

"ماذا كنتِ تقصدين بقولك بأنكِ تعرفين...."

قاطعته:

"ماذا تقصد بأنني تعرضتُ للعنة الشيطان؟"

"لقد كنتِ هناك عندما تعرضت سلمى وأنتِ و....."

"ماذا تفعل هنا يا بروفيسور؟"

صوت الملكة الغاضب يأتي؛ ليقطع ما كنتُ متشوقة لمعرفته. رمقتها بضيق. تنصرف في وقت غير مناسب، وتأتي في وقت غير مناسب!

ترجرج الرجل في مشيته، وهو يغادر:

"معذرة! معذرة! لقد كنتُ أخبرها بأنها تتجهز فحسب"

نظرتْ إليه نظرة نارية، وقالت:

"دع لي هذه المهمة، وقم بتجهيز أدواتك"

"سأفعل. سأفعل"

أغلق الباب خلفه.

قلت بفزع:

"أدواته؟ ماذا تعنين؟"

قالت وهي تبتسم:

"الأمر بسيط. لا تقلقي"

"ما هو الشيء الذي جعلكِ تخرجين متكدرة المزاج؟"

هزّت رأسها بلا مبالاة:

"شئون المملكة وتصاريفها لا تنتهي. لا تقلقي ذهنك بهذه الأمور. المهم أن نطمئن عليكِ"

***

كان الجهاز يشبه لحدٍ كبيرٍ أجهزة الرنين المغناطيسي، والتي كنتُ أراها في الأفلام. الحقيقة أنه لا يختلف عنها أصلًا. وربما يؤكد هذا حدسي عندما سألني البروفيسور، الذي لم أعرف اسمه بعد:

"هل توجد معادن في جسدك؟"

وأنيّ لي أن أعرف هذا؟!

قلت بتوتر حاولتُ أن أغلفه بنبرة لا مبالية:

"في الأغلب لا"

لم تعجبه الإجابة، لكنه لم يصرّ كثيرًا؛ فهو يعلم بأنني-من المفترض-فاقدة للذاكرة!

أخرج من حقيبة صغيرة رداءً ورديًا سميكًا:

"البسي هذا من فضلك"

وغادر الحجرة دون كلمة.

وقفتُ متصلبة في مكاني، وفي يديِّ الرداء. اتجهتُ لخلف الآلة، وبدلُت ثيابي. هنا أمكنني أن أري كاميرا صغيرة جدًا تلمع في مقدمة الآلة، تنقل صورتي إلى..

إلى الملكة؟!

شعرتُ بحرج بالغ، مع علمي بأنه ليس جسدي، لكن وحتى أخرج منه-إن حدث هذا أساسًا-؛ فلا يحقّ لأحد أن ينتهك خصوصيتي!

تمددتُ على الأريكة المغلفة بطبقة لينة مريحة، في نفس اللحظة التي دخل فيها الرجل النحيل، ويضع أقطابًا حول رأسي، قبل أن

يضغط زرًا، تحركت على إثره الطاولة للداخل. ضوء بنفسجي خفيف غمرني، مع لسعة من الحرارة شعرتُ بها في جلد رأسي.

استمرت هذه العملية ما يقرب من خمس دقائق فقط. تحركت الطاولة للخارج، ليقابلني وجه النحيل المندهش.

همس برهبة:

"أتسمحين لي؟"

ومدّ يدًا معروقة نحو رأسي. أجفلتُ قليلًا، توقفت أصابعه في الهواء، وكأنما ينتظر مني إذنًا. أومأتُ برأسي، اقتربتُ منه قليلًا، في دعوة صامتة تحمل الموافقة.

أصابعه تفتش في فروة جلدي، ثم توقفت عند الشقّ الذي أثار اهتمام التنين.

تمتم:

"غريبة!"

"عفوًا!"

"لم أكن أعلم أن أحدًا استخدم تلك التقنية!"

"أية تقنية؟ أفصح!"

"أنبوب الذاكرة"

قالها؛ لتدخل الملكة البيضاء كغراب البين؛ لتقطع عليه قوله، ولتفسد عليِّ حياتي! رؤيتي لشقيقتي ليلى هنا-بافتراض أنها هي-لم تكن مبهجة كما أري!

"الآن فلتستريحي قليلًا".

دخل أحدهم، وأمسكني بذراعي برفق، في نفس اللحظة التي تحطم فيها الباب بقوة، ودخل العملاق آيرون!

***

الفصل الرابع والثلاثون

أخيرًا يعود العزيز آيرون-بعد أن اكتسب اسمًا، وانتقل من خانة الظلال لمنطقة تتعامل بالأسماء-غاضبًا هادرًا، وجهه المختفي خلف قناعه يغدو أحبّ الوجوه إليِّ الآن. رثّ الثياب، تفوح منه رائحة مقيتة، يمسك ببلطة عملاقة، وهو ينوي تمزيق الملكة ومساعدها البروفيسور، لكن الملكة لم تتحرك شبرًا. رمقته ببرود ملكي مستفز، قبل أن تصفق بيدها، فتنفتح الأبواب الجانبية الأخرى، وتدخل فرقة من المصارعين، الذين يرتدون بدلات كاملة من الفولاذ!

لا أعرف كيف يتحركون أصلًا، لكنهم كان يفعلونها بسلاسة، وهم يحيطون بفارسي، ويقومون بتطويقه، قبل أن يخرج كل واحد منهم قضيبًا أزرق، ويضغط زرًا في مقدمته، ويدّسه في جسده الضخم.

هنا، تطايرت الشرارات في كل مكان، وهو يهوي لأسفل، وهو يزوم ويئن من الألم!

قالت الملكة بعد لحظات:

"خذوه إليها"

ونظرت إلىِّ، وقالت بهدوء:

"حان الوقت لتعرفي الحقيقة"

***

في قاعة واسعة متربة، كان آيرون مقيدًا بالسلاسل، وهو يزمجر، سلمى جالسة باسترخاء، وهي تضمّ ركبتيها إليها، ألقت نظرة خاوية إليّ، ثم أشاحت بوجهها، وكأنما تخجل مما كادت تفعله بي!

الملكة خلفي، والتي أشارت للحارس بأن يغلق الباب خلفنا. نحن مع الملكة في حجرة منفردة: تري لو اجتمعنا نحن الثلاثة على تمزيقها إربًا؛ فهل سنفلح؟

استغربتُ من تفكيري هذا؛ أليس من المفترض أنها تحمل وجه أقرب الناس إليٍّ؛ فلم أفكر إذن في الفتك بها قبل أن أفهم على الأقل؟ والملكة يبدو أنها ستحقق أمنيتنا أخيرًا.

صحيح أنه قبل قدومنا قد ثرثرت مع البروفيسور طويلًا، لكني أتوقع أنه كان يعطيها مختصرًا مفيدًا لما حدث، بخصوص ذلك الشيء الذي يدعي" أنبوب الذاكرة".

سارت الملكة بخطوات بطيئة في القاعة، كأنها تفكر، أو تنتقي كلماتها جيدًا، والحقّ أنها لم تكن بعيدة عن ذلك. ثم توقفت أمام آيرون.

"هل كنت تظن بأنك ستتسلل للقلعة ببساطة هكذا؟! أنت ضخم الجثة يا صديقي، وتحركاتك الثقيلة في أنبوب المجاري كانت مرصودة"

آها! من أجل هذا تركتني أثناء حديثنا الشيق إذن!

جلست بوقار كعادتها، واضعةً ساق على ساق، ترمقنا من خلف أهدابها الطويلة.

"لقد التقينا من قبل لو تذكرون!"

أشاحت سلمى بوجهها مرة أخرى، وإن كان في ازدراء هذه المرة. أطلق آيرون زمجرة، ويبدو أن هذه هي لغته المعتمدة!

أما بالنسبة لي؛ فبدوت بلهاء عجوز، لا تعرف شيئًا مما يدور حولها.

"التقينا منذ سنوات قليلة، في قلعة الشيطان؛ عندما قررنا سويًا أن نجابه ذلك المجنون، الذي سيشعل النار في الأرض المنسية! طقس مناخي مجنون ومتغير، وطفرة جينية تحدث بسبب تلكم الكارثة، ويأتي هو بكل صفاقة ليحلم بأن يكون السيد المطاع!"

قال سلمى بسخرية:

"هل تظنين بأننا سنصدق هذا الكلام الفارغ؟ لقد كنتِ متعاونة معه، وبخدعة دنيئة سلمتنا له!"

الملكة تهزّ رأسها نافية، ثم أكدت ذلك بقولها:

"أنتِ مخطئة! أنا ابنة هذه الأرض، حليفتكم، فتاة عادية من الناس، تم اختيارها لتكون ملكة!"

قالت سلمى، وكأنها تبصق:

"لم يختركِ أحد؛ بل التنين هو من سحر عقول الجماهير، وجعلهم يهيمون بكِ! أغنية واحدة ساحرة جعلت الشعب يوافقِ عليكِ!"

هل كانت الملكة حزينة عندما قالت:

"مخطئة مرة أخرى يا صديقتي! التنين ليس صنيعتي، بل هو صنيعة الشيطان. كلنا صنائعه، عبث بأجسادنا، وحولنا لوحوش نعمل تحت إمرته، وحتى عندما هُزم تركنا نقاسي الأمرّ ّين!"

تمتمت سلمى:

"ماذا تقولين؟"

"أكنتِ طوال الوقت تظنين أنه حليفي، أو حتى متحكمة فيه؟ تابع لي يأتمر بأمري، ويتحرك إثر إشارتي؟ أنتِ مخطئة مرة أخرى!"

نهضتْ، وأنا أتابع الحوار. لم أعرف دوري بعد في هذه القصة الغريبة.

وقفتْ الملكة أمام سلمى. أرقب الوضع من مكان آخر ثالث؛ فتبدو المصائر عجيبة؛ شقيقتان؛ الكبرى تصير ملكة مرهوبة الجانب، والصغرى تتحول لقائدة مقاومة عنيدة!

"لقد عبث بجسدك، وجعل تلك الأشياء اللعينة تخرج من جسدك! لقد كنا على طاولة واحدة، لكنكِ لا تذكرين! لقد عانيتُ كثيرًا حتى تذكرتُ بمعاونة البروفيسور، وحاولتُ أن أمنع أذاه عني!"

هتفت سلمى:

"كاذبة! لا توجد طريقة لمنع الأذى عنكِ! في أي مكان سيصل إليكِ، سيجعل الألم يرقص بداخل عروقك، تشعرين بأنكِ داخل فرن ملتهب، تشويكِ ناره حية، تتلظين، تصرخين! والأسوأ أنكِ تعرفين أن لا أحد سيهبّ لنجدتك!"

قالت برفق، كأنما تحادث طفلة صغيرة متحمسة لحد التهور:

"مخطئة في هذا أيضًا يا عزيزتي! لماذا تظنين أنني قمت بتعديل نظام القلعة بالطريقة التي دخلتِ بها؟! القلعة محاطة بنطاق مانع لأية إشارات قادمة من الخارج تشعل الطفرة الجينية المستقرة بداخلي؛ لهذا لم أتحول ولو لمرة واحدة!"

"لو كان كلامك صحيحًا؛ فكيف لي أن تحولت، وكدتُ أفتك بهذه المسكينة؟"

قالتها سلمى، وهي تشير إليِّ. كانت تلك هي المرة الأولي التي تتحدث عن الأمر منذ أن حدث.

"لأن التعديل الجيني بداخلي مختلف تمامًا عنكِ. التعديل الجيني بداخلي مصنوع من أجل التحكم فيّ، وتنفيذ أغراض ذلك اللعين! لكن التعديل بداخلك مجرد محاولة لتعذيبك فقط، وتحويل حياتك لجحيم!"

"كيف لا أتذكر كل هذا؟"

"لأننا نسينا. أو بمعني أدق: أُنسينا!"

واقتربت مني؛ مما جعلني أخمن أن التركيز سيكون عليٍّ فيما هو قادم، وكنتُ محقة للأسف.

"لكن الحقير قام بالعبث بعقولنا بحيث ننسي لقاءنا به، تجمعنا سويًا هناك، لكنه قام باستخدام أنبوب الذاكرة مع واحدة فينا. بالأحرى: هي أهم من فينا"

تمتمتُ:

"أنبوب الذاكرة؟"

اقتربتْ الملكة من علبة معدنية ذات لون بني، مغروسة في الجدار، وقربت فمها منها، وقالت:

"بروفيسور. ابدأ"

تحركت بقعة من الضوء من مكان ما، وتركزت على الجدار، لتضيء بقعة مربعة كبيرة أخذت نصف الجدار تقريبًا، ثم بدأ العرض؛ حيث رأينا عليها البروفيسور، يمسك بأنبوب وردي في حجم السبّابة تقريبًا.

قال البروفيسور:

" يتم عمل شقّ صغير في الرأس، ومن خلاله يتم تمرير ذلك الأنبوب لخلق ذكريات زائفة في العقل"

"مهلًا!"

قلتها، وأنا أرفع يدي مستفسرة، أو معترضة. لا أدري!

"لقد قامت التنين بفحص رأسي، ووجدتْ شقًّا فيه بالفعل؛ فهل معنى هذا أن العجوز قد تعرضت لتلك العملية، وزُرِعتْ ذكريات زائفة في عقلها؟"

أشارت الملكة نحوي:

"تتحدثين عن العجوز، وكأنها ليست أنتِ!"

قلت بعصبية:

"لستُ هي بالفعل. لقد سُرق جسدي مني."

وخلال ساعة تقريبًا، كنت قد حكيتُ لهم كل ما جري لي دون مواربة؛ فقلد مللتُ هذا الهراء، وجبل الألغاز الذي يكبر يومًا بعد يوم، وعندما بدأت ستارة الغموض تنزاح قليلًا، تأتي تلك المعتوهة لتتحدث عن خرافات متعلقة بزرع ذكريات في العقل!

حتى لو حدث، فلابد أن الأمر لم يفلح معي.

قالت الملكة بتؤدة، وهي تدرك بأن ما ستقوله أكبر من فهمي على كل حال، لكن لابد أن تقوله:

"وهل هذا طبيعي؛ أن أكون شبيهة بأختك الكبرى، وتكون سلمى شبيهة بكِ؟"

"أنا لم أفهم السرّ في هذا حتى الآن، لكن حتمًا يوجد تفسير منطقي، وسوف أجده"

"التفسير المنطقي قلته منذ قليل؛ لكنكِ لا تريدين أن تصغي. عقلك يحارب الفكرة"

"أية فكرة أيتها الحمقاء؟"

فاض بي الكيل، ولا يهم أن أشتم الملكة نفسها في وجهها، لكن الأخيرة لم يؤذها نعتي إياها بـ"الحمقاء"، ولم ينتفض الكبرياء الملكي اللعين في عروقها، فقط ابتسمتْ، وتمتمت:

"سأشرح لكِ"

بعد دقيقة قالت:

"أنبوب الذاكرة لا يعمل بطريقة ميكانيكية، ولا يزرع ذكريات مسبقة تم خلقها بشكل صناعي؛ بل يعمل من وحي البيئة المحيطة بمن سُتجري عليه العملية؛ وبما أننا كنا معكِ فاقدتين لوعينا؛ فقد كانت الذكريات المناسبة هي أن يخلق في عقلك حياة بديلة، مكونة من عائلة، وحياة أخرى؛ من وجوهنا نحن، الراقدين معكِ في نفس المكان".

"هل تريدين القول بأن أبي وأمي، وليلى وأحمد شخصيات من صنع الخيال؟ شخصيات لم توجد أصلًا على أرض الواقع"

رفعتْ يدها:

"خطأ! أنا لم أقل هذا. لكنكِ فهمتِ الأمر بشكل معكوس، ودومًا كنتِ تحاولين إجابة السؤال الخاطئ! نحن لسنا انعكاسًا لحياتك الحقيقية؛ بل العكس هو الصحيح. نحن الأناس الفعليين في حياتك، بينما قام الأنبوب بخلق حياة أخرى في عقلك بغية إرباكك، وإصابتك بالجنون!"

صرختُ فيها.

"كلام فارغ!"

صمتت الملكة. نظرة أسي في وجه سلمى. ارتجفتُ في قرارة أعماقي؛ هل يمكن أن يكون ما تقوله صحيحًا؟!

ثم برق شيء ما في ذهني. شيء جعلني أبتسم، كما لو أني اكتشفتُ كم هي مخادعة وكذابة!

"سأسايركِ أيتها الملكة. أنا وليلى في الحياة البديلة الزائفة، كان لهما أصلان متمثلان فيكِ وفي سلمى. ماذا عن بقية العائلة؟ أمي وأبي وأخي أحمد؟ لماذا لم أقابلهم حتى الآن؟!"

قالت بهدوء:

"لأنكِ قابلتهم بالفعل يا عزيزتي!"

"كاذبة! لم يحدث!"

قالت بإشفاق:

"لم تسأليني عمن كان في القاعة، أثناء مقابلتنا للشيطان!"

لم أنطق بحرف.

رفعت أصابع يدها، وهي تعدّ:

"لقد كنتُ أنا وسلمى، والتنين، و...."

" التنين؟ وما شأن التنين بي؟"

"ألم تشعري بأن وجهه مألوف؟"

قلتُ بحيرة، وأنا أقول:

"هذا صحيح، لكن...."

"لقد عاملكِ بحنان، واعتني بكِ كما يفعل الأب مع أبناءه. أليس كذلك؟"

"هل تقولين بأن أبي انعكاس لشخصيته؟"

"ما فهمته من كلامكِ أن أباكِ في حياتكِ الأخرى شخصية قوية ومتسلطة، والتنين هو كذلك بشكل أو بآخر"

"جنون! ما تقولينه هو الجنون بعينه؟"

"أنا الملكة البيضاء، التي أقبع في قلعة تشبه القلاع القديمة؛ ألا يشير هذا لشغف أختكِ بالآثار؟"

"وأبي، وأخي؟"

"أمكِ لن تلبثي أن تقابلي شبيهتها! لا تتعجلي!"

ابتلعتُ ريقي:

"وماذا عن أخي أحمد؟ من هي الشخصية المقابلة له هنا؟"

"أخوكِ أحمد كان شخصية لا مبالية، باردة، لا يخاف. أليس كذلك؟"

تمتمتُ:

"هو كذلك"

ابتسمتْ:

"تري من هي الشخصية المناسبة له؟ الشخصية التي تعدّ تطورًا كبيرًا لها؟"

ارتجفتُ حقيقة، وثمة وجه معين يمرّ بذهني. وجه يختفي خلف قناع قانٍ.

تحركت الملكة البيضاء نحو آيرون، وفكّت عنه قناعه، متجاهلةً زمجرة الغضب المندفعة من حلقه؛ ليظهر الوجه الذي توقعته؛ وجه أخي أحمد!

***

الفصل الخامس والثلاثون

أجلس منهارة على الأرض، تسيل دموعي، وكأن براكين الأرض تسكن فيِّ؛ إذ تذرف دمعًا بدلًا من الحمم، مع أن تأثير الأخيرة كان موجود فعلًا بداخلي، يحترق عالمي المألوف الذي كنت أعرفه، أتشبث بتفاصيله، وقطعه الحميمية، ثم أكتشف أنني أتعلق بحبال مهترئة، وهم مركب، صنعه طاغية لعين في ذهني، وأنا كل ما كنتُ أظنه حقيقة، مجرد سراب!

ما معني أن تكون أي شيء آخر غير نفسك، تعيش حياة من المفترض أنها ليست حياتك، ثم تعرف بأن واقعك ليس واقعك، أهلك ليس أهلك، والثوابت العائلية-التي كانت تترسخ في القلب كالطوّد العظيم، وحتى دون أن تدري بها-تصير هباءً منثورًا!

ليلى العزيزة، لن أقابلها مرة أخرى؛ برغم أن وجهها أمامي يرمقني بتعاطف واضح. أحمد الهادئ، والذي يليق بروده بالإنجليز يتهاوى وجهه في هوّة مظلمة عميقة، ولا يتبقى منه سوي ذلك العملاق الجسور، والذي لا يتكلم أصلًا، إلا لو اعتبرنا لغته الصامتة أبلغ لغة!

أبي يتحول لتنين غاضب، وأمي لم أقابلها بعد. حتى حياتي السابقة-التي لم تحدث في الأصل! - كلها مجرد أوهام صنعها جهاز لعين، انغرست ممصاته في قشرة مخي، وأحدثت شرخًا بين الخلايا، ثم راحت تحشوه بالأكاذيب!

"ماذا سنفعل؟"

قالتها سلمى، أخذت السؤال من طرف لساني، بينما أردد أنا من بين دموعي:

"ولماذا نفعل أي شيء؟"

قالتْ برفق:

"لأن هذا واجبنا"

" لم يتهاو عالم أحدكم من قبل! أليس كذلك؟"

"العالم الذي نعرفه سيُدمّر لو لم نوقف ذلك الطاغية!"

"ألم تقولوا بأنه هُزم؟"

"حدث بالفعل. لكنه لم يمت. وما دام لم يمت فتوقعي أن يظهر مرة أخرى أكثر قوة وجنونًا. لن يروق لك شكل العالم لو حدث هذا. صدقيني"

"فليذهب العالم للجحيم! لن أفعل شيئًا، وسأغادر هذا المكان"

قالت الملكة برفق حازم:

"لن تفعلي. لن أخاطر بوقوعك بين يديه"

صرختُ في وجهها:

"ليس الأمر من شأنك! أنا حرة أفعل ما أريد!"

قالت سلمى بضيق:

"ليس إن اعتمدت حيوات الناس علينا!"

هتفتُ في وجهيهما:

"هل تتحامقان؟! أعلم بأن حياتي التي ترقد في عقلي، وعائلتي كلها أشياء مختلقة ومصنوعة، ثم تخبراني عن العالم وحاجته إليّ! فليذهب العالم مرات عديدة للجحيم! لن أفعل شيئًا!"

قالت الملكة ببرود:

"تريدين مغادرة القلعة إذن؟"

قلتُ بعناد:

"لو لم يكن عندكِ مانع"

"لو خرجتِ من هنا سأرفع عنك حمايتي. ليست عندك فكرة عما عانيتُ أنا ورجالي من أجل الحفاظ على حياتك في السابق!"

"أعتقد أن موتي لن يهمّ أحد، وكذلك لم تعد حياتي تهمني أو أحرص على إطالتها! أنا مجرد عجوز بائسة، سوف تبحث عن مكان ما في الغابة لتموت دون ضجيج! لقد مللتُ منكم، ومللتُ من هذا العالم!"

رفرف الصمت فوقنا، وقد كانت ثورتي هذه هي الأولي في حياتي، السابقة والحالية، يخرج الصديد الذي كان يختنق بداخلي، برائحته العفنة، وشكله البشع!

أشارت الملكة بيدها؛ ففتح الحارس الباب، وقالت:

"فلتقوموا بإيصالها للبوابة الخارجية"

هتفت سلمى معترضة، منادية الملكة باسمها دون لقبها:

"ليلى! هل سـ......"

قاطعتها الملكة بإشارة من يدها:

"إنه خيارها، ولن أغصبها على شيء لا تريده. الأيام القادمة حاسمة، ولا مكان فيها للخائفين أو الجبناء أو البائسين!"

قلتُ وأنا أتجه للباب:

"فليكن؛ اعتبريني خائفة وجبانة وبائسة؛ فأنتِ على حق في نهاية المطاف!"

***

قُبيل الغروب. الشمس مجرد قرص أبيض ثلجي في صفحة السماء الزرقاء، تنحدر لأسفل. هي شمسي على كل حال. ثمة دفء خفيف في الغابة يغري بالنوم. أتكئ على عصاي، أبحث عن مكان ما. أسير، وأنا أحاول تذكر إحداثيات المكان.

وأخيرًا، وبعد مضيِّ ساعتين من المشي تخللتهما راحة قصيرة لإراحة عظامي الواهنة، أمكنني أن أري الكوخ يقبع هناك في جلال وشموخ تحت ضوء الشمس الباردة.

كوخ أطفال الثلج. من حسن الحظّ أن القمر كان مكتملًا تلك الليلة. ضوء بارد، قوي، يتسلل عبر الأشجار الكثيفة، يصنع ظلاله، رقصته الخاصة وسط العتمة. والطريف أنني أسير بهدوء، مع بعض التوجس. هل يمكن أن تسوء الأمور أكثر مما فعلت؟

ولجتُ للداخل، وعيناي ترصدان المكان بحذر على ضوء القمر المتسلل من النوافذ. الكوخ كما هو؛ بارد، مدفأته العتيقة هناك. أجلس على مقعد في الركن، لكن جسدي بدأ يأن من ألم الصقيع. أنحني، أبحث ببصري عن كتل خشب تصلح للتدفئة، لكني لم أجد منها شيئًا.

أريح رأسي للخلف. أغمض عينيِّ المتعبتين. ما معني الحياة؟ ما معني كل شيء؟ عندما يشعر المرء أنه يقف علي أرض صلبة سينظر لأعلى ويحلم بالطيران، لكن ماذا لو كانت الأرض تحته تهتز، تنذره بأنها قد تهوي من أسفله في أي لحظة؟

وجوده نفسه مهدد!

أنتبه أن ثمة أطباق وأقداح، بها طعام حديث. انتصب الشعر فوق جلد ذراعيِّ؛ هل من أحد هنا؟ تجوس عيناي في المكان بحثُا عن أثار أخرى، ولمحتُ غزالًا مذبوحًا، ينزف دمًا، يستقر على النضد الرخامي. يوجد أحدُ هنا بالفعل؛ سواء أكان الأطفال الملاعين أو غيرهم فلا يهم! وجدتُ أنه من الضروري أن أنهض، أحرك ساقيِّ حتى لا تتجمدان في جلستي هذه، وخصوصًا أن المكان بارد بالداخل لحد لا يُطاق. ربما لو تحملتُ الآلام قليلًا سوف يسري الخدر في كل جزء من جسدي، ستنتهي كل هذه الأفكار الهادرة كطوفان بداخلي، وسأتحول لجثة من الثلج!

ربما أجد السلام الذي أطمح إليه؛ لكني أعلم أنه لن يوجد بعدها سلام!

أليس هذا هو نوعٌ من الانتحار، كفرٌ بنعمة الحياة، انسلال من الطبيعة البشرية، وغريزة البقاء التي تحفر نفسها في كل سنتيمتر في الجسد والروح؟

أداعب الأطباق بيديِّ. هل عاد أطفال الثلج مرة أخرى؟ لو عادوا فكيف سيستقبلونني؟ هؤلاء الصغار الحمقى الذين يطمحون في أن يكبروا! لماذا تريدون أن تفعلوا هذا؟ لماذا لا تستمتعوا بحياتكم الطفولية في ذلك العالم المجنون؟!

يا للسخرية!

كأنها لوحة سريالية سخيفة اختفي منها المنطق، ورحل بعيدًا؛ فهل يعود؟

هنا لمحت ظلًا بالخارج. انقبض قلبي. أحاول النهوض، لكن جسدي خانني. خدر سري في أعصاب ساقيٍّ، وجعلني لا أشعر بهما! طبعًا من فرط الاستغراق في الهواجس السوداوية نسيتُ كم هي حاجتي للدفء، تشتت عقلي بما يراه؛ وكانت النتيجة أنني أجلس بلا حول ولا قوة، أرمق شبح شخص يتحرك بالخارج!

عيناي على الباب الرئيسي، أحاول أن أصل لبلطة صغيرة تستقر على الجدار، لابد أن الأوغاد الصغار كانوا يستخدمونها في تقطيع الخشب.

لكنها بعيدة عني. الخطوات تقترب ببطء؛ كأنها تعطيني الفرصة لكي أقدح زناد عقلي، وأبحث عن طريقة لكي أجذب البلطة، أو ربما هي سخرية مني؛ إذ أنه لا مفرّ مما هو آت! أمسكتُ بالمفكرة مرة أخرى. من حسن الحظ أنها طويلة. مددتُ بها إلى البلطة، لأميِّل طرفها الخشبي إليِّ، وقد فعلتها. كادت البلطة تسقط بعيدًا عن متناول يديّ بالفعل، لكني جاهدتُ لكي أدفع جسدي للأمام؛ لأتلقاها في حجري. أمسكتُ بها جيدًا، أخذتُ نفسًا عميقًا، وأنا أحاول تهيئة نفسي للقادم.

من المثير للسخرية أنني كنتُ أطمح للموت منذ فترة قصيرة، وها أنا ذا أتشبث بالحياة بطريقة مزرية!

لم أكن أريد أن أترك نفسي لتلك الخواطر؛ فليس مكانها الآن. أبتلع ريقي مرة أخرى وسط ذلك الصقيع، لكني لم أنتبه للباب الخلفي وهو يفتح.

ولم أنتبه لذلك الرجل الذي يقترب مني في هدوء، وهو يرمقني من الخلف!

***

الفصل السادس والثلاثون

ظلّه ينبسط أمامي، أجده واقفًا يرمقني بهدوء أشبه بالتأمل، وكأنه يشاهد مخلوقة قادمة من عالم آخر! أستدير برأسي للخلف، البلطة ترتجف في يدي، أو يداي نفسهما هما من يرتجفان!

لا أدري!

كان يرتدي بدلة قديمة مهترئة، ذات لون بني حالك، وجهه مليء بالفجوات والتجاعيد، وكأن الزمن يمارس سطوته عليه هو بالذات، بينما يداه تحملان كتل الخشب في بأس وقوة. لابد أنه كان رياضيًا في وقت ما!

وقف دقيقة أو دقيقتين. لا أعرف بالضبط. ثم تحرك فجأة للأمام؛ مما جعلني أتشبث بالبلطة أكثر، لكنه تجاوزني، ووضع حمولته أمام المدفأة، وأخرج من جيب سترته قدّاحة قديمة، وأشعل النار في قطعة خشب صغيرة، وحين رأي النار يتعالى لهبها، أغمض عينيه في استمتاع، والدفء يذيب الصقيع الكامن في نخاع عظامه.

أشعر بما يشعر به لأن الأمر كان يحدث لي أصلًا؛ الخدر راح يتلاشى ببطء، والحرارة تنشر بركاتها في أرجاء الكوخ البارد. لم تنته مهمته بعد؛ فقد أمسك بكتل الخشب، وراح يضعها تباعًا، ثم نهض، وحرّك جذعه.

سألني بصوت مبحوح مرتجف:

"هل أنتِ جائعة؟"

هززتُ رأسي أن نعم؛ فابتسم ليكشف عن أسنان نخرة، وسواد يكسو ما تبقي منها.

كان الغزال هناك؛ ومن ثمّ فقد قام بسلخ جلده بسرعة ومهارة؛ من فعل هذا عشرات المرات من قبل. في ظروف أخرى كنتُ سأبدي امتعاضي، لكن الآن؟!

قلت:

"هل تريد مساعدة؟"

"سأكون شاكرًا"

قالها كرجل جنتلمان يعرف كيف يتعامل مع النساء. خطر لي أن الأحمق ينسج شباكه حولي. شعرتُ بالضيق والحرج؛ فبرغم ما حدث فما زلتُ أتعامل مع نفسي أنني سلمى الشابة التي المسجونة في جسد العجوز!

هل سأتحرر يومًا ما؟!

ساعدته في عمله؛ من تقطيع اللحم وتنظيفه، وغسل النضد الرخامي من الدم، ثم أخرج من جيبه قدَّاحة فضيّة عتيقة، وقام بإشعال النار في موقد صغير، وغرس كتل اللحم في سيخ معدني رفيع.

تأمل برضا النار الرقراقة، والتي تتحرك جذوتها ببطء نظرًا للصقيع الذي راحت تبدده. أما أنا فقد عاودتُ الجلوس، ورائحة اللحم المشويِّ تصل لمعدتي؛ فتجعلني أخرج لساني متلمظة!

انتبه لما أفعله فابتسم. متسامح أيضًا؟ عظيم! لكن ما يقلق بالفعل هو كرمه الحاتمي هذا دون حتى أن يقوم بسؤالي عن شخصيتي، وما الذي أتي بي إلى هنا؟

هذه القدَّاحة؟! لقد رأيتها من قبل! لكن أين؟

جلس على كرسي مجاور لي، وأراح ساقيه على صخرة مربعة نُحتتْ أطرافها بعناية من الجوانب؛ فغدت أشبه بمقعد صغير، ولا شكّ عندي أنه من فعل ذلك؛ فلا أذكر أنني رأيتُ ذلك المقعد في السابق.

"من الجميل أن نلتقي مجددًا؟"

هززتُ رأسي بلا مبالاة. بالطبع تقابلنا من قبل؛ هذا التفسير المنطقي إذن.

لكن أين تقابلنا بالضبط؟

قال بقلق:

"ألا تذكرين؟"

قلت بمرارة:

"ما أتذكره ليس حقيقيًا، وما يجب أن أتذكره صار في عداد النسيان!"

"لا أفهم!"

"ومن يفهم؟"

وأشرتُ لوجهه بخشونة:

"هل تدعِّي أنك تفهم؟ إن......."

ثم توقف إصبعي في الهواء. الوجه النحيل، والعينان الحادتان، وجهه بعد مرور سنوات طوال. كيف لم أنتبه لذلك**!**

قلت بصوت مختنق:

"أنت! أنت هو؟"

"من؟"

"عم نجيب! أنت ما زلت على قيد الحياة؟"

قال بإحباط:

"آه، ما زلتُ على قيد الحياة!"

واغتصب ابتسامة من الفراغ القبيح حولنا، وقال:

"من حسن الحظّ أنني قابلتك قبل موتي!"

قبل موته؟ عما يتحدث؟

كان من المدهش أننا نتقارب في السن شكليًا، ومع هذا أناديه بـ"العم"!

"لكن كيف؟"

حرَّك أسياخ النار:

"هذه قصة طويلة"

"ليست لديِّ مشكلة في سماعها"

همَّ أن ينطق بشيء؛ فقلت، وقد انتقل إلىِّ إحباطه:

"انتظر! لا فائدة!"

"عفوًا!"

"لا فائدة! ما فائدة الحديث؛ إذا كان كل شيء يزداد تعقيدًا. كل شيء مغاير لما نظنه، نغرق في الوهم، ونصدقه، ثم نفيق منه على صدمات مميتة!"

ثم قفزت فكرة ما إلى ذهني؛ جعلتني أقول بمرارة:

"وهذا يعني أنني في المستقبل فعلا! هذا الجسد المسجونة فيه هو جسدي! لقد عرفتني على الفور! يا لي من حمقاء! كان لابد أن أعرف هذا من البداية!"

ألقي إليِّ نظرة مشفقة، ثم قال وهو ينهض:

"يبدو أن اللحم قد نضج"

ونهض، وهو يسير مرتعدًا من قسوة البرد، وراح يُقلِّب قطع اللحم:

"حدثتك من قبل عن ذلك الغريب الذي أتي لجدِّي!"

"أجل"

"اسمه ناغوريان! في البداية ظنّه جدِّي تركيًا أو أرمنيًا. لكن بمرور الوقت بدأ يعتقد بأن الرجل جاء من مكان بعيد جدًا، وأنه يحمل بين ضلوعه سرًّا رهيبًا!"

"من أي أنواع الأسرار كان يحمل؟"

سألته، وقد بدأ فضولي ينتعش؛ بسبب الدفء والصحبة.

تذكرتُ الكلمات اللاتينية المنقوشة على تابوت الجثة. تذكرتُ هذيان أبي وصراخه وهو نائم! أي جثة كان صاحبها، وأي جُرم ارتكبه أبي؟

ابتسم نجيب، ثم قال مواصلًا قصته:

"عرف جدِّي أحد أسرار الغريب بمرور الوقت؛ عندما لاحظ أنه لا يشيخ! لا يهرم، لا تظهر تجعيدة واحدة على وجهه، وكأن الزمن يحابيه! وعندما رقد جدَّي على فراش الموت، والغريب يجلس أمامه بكامل صحته وشبابه، أدرك أنه قد خُدِع! مدي الحياة قد تكون أطول مما يتخيل المرء!"

"وماذا حدث بعدئذ؟"

"كتب جدِّي وصيته، وأكدَّ علينا أن نحترم العقد الذي بيننا وبين ناغوريان. مرت الأعوام والعقود، وولدتُ أنا. في سن الأربعين تعرضتُ لمرض عضال أصابني بالهزال، وهدد حياتي، وأجمع الأطباء تقريبًا أنه لم يتبق لي إلا أيامًا معدودات! هنا أتي ناغوريان لزيارتي، ثم اقترح أن يقوم بحقني بدمه! اندهشتُ من اقتراحه، لكنه قال بأن دمه يختلف عن الجميع. لاحظي أنني أعرف تفرده، بصفتي الوريث، وبصفته مستأجرًا لبيت من أملاك العائلة، لعشرات السنين؛ فوافقتُ دون تردد؛ وكانت النتيجة أنني صرتُ بخير، وصرتُ قويًا معافي. وهو ما أجني ثماره حتى الآن. لكن كل شيء تغيّر بعدها!"

"ماذا حدث؟"

" لقد مات!"

"مات؟"

"وكان قد ترك لي شيئًا! تابوتًا صنعه بنفسه، وحفر كلماته باللاتينية عليه، وقد كان الفقيد يجيدها تمامًا!"

وأشار لقداحته:

"وترك لي هذه القدَّاحة، وطلب مني أن أحرقه بها بعد موته، وألقي رماده في البئر!"

"لكنك لم تفعل؟"

تنهد:

"خشيتُ لو فعلتُ أن أفقد مصدر قوتي وشبابي. من أدراني أني عندما أقوم بحرقه سوف أظلُّ محتفظًا بما منحه دمه لي!"

"وما دمت تخشي على جثته؛ فلماذا قمت بتأجير البيت؟"

"بسبب حاجتي للمال. أملاك العائلة تبددت على مرّ القرون؛ بسبب حماقاتنا، ولم يتبق إلا هذا البيت؛ فلن نفرّط فيه بطبيعة الحال!"

"بل منعكم وجود ناغوريان فيه!"

ورددتُ بدهشة:

"ناغوريان! يا له من اسم عجيب!"

هزّ رأسه دون أن ينطق بكلمة.

قلت، وقد بدأتُ الأمور تعيد تشكيل نفسها من جديد، بشكل مغاير عما كانت عليه:

"لهذا عندما طُعِنتَ من الضخم ذي القناع رحت تهذي، وتحذرنا"

تنهد:

"ولهذا عندما وجدتُ الجرح يلتأم ولا يبقي منه سوي خط رقيق على الجلد أدركتُ أنني كنتُ محقًا! لابد من الحفاظ على جثته بأي ثمن!"

"والثمن كان السمعة التي لحقت بالبيت بعد وفاة صاحبه! أليس كذلك؟"

هزّ رأسه:

"شيء ما يبعثه ذلك الرجل، أو جثة ذلك الرجل. شيء ما يؤثر على السكَّان، ويحوِّل حياتهم لجحيم!"

قلت مفكرة:

"لهذا طلب منك حرق جثته!"

هزَّ كتفيه مجددًا. غموض! غموض!

قلتُ فجأة:

"هل تعرف ما حدث في آخر ليلة قضيتها في المنزل. كنا نقوم بإخراج تابوت صديقك هذا عندما حدث شيءٌ ما بالخارج!"

تجمَّد وجهه. أدركتُ أنني لن أظفر منه بإجابة. هناك شيءٌ ما يخفيه عني. كارثة من نوعٍ ما.

قلتُ بخفوت:

"وماذا عن ذلك الكابوس الذي يُثير الرعب في أجسادكم؟ تطلقون عليه الشيطان! أليس كذلك؟"

"إنه لا يظهر كثيرًا! إنه خائف من انتقامهم!"

"انتقام من؟"

كنتُ أتوقع أن يقول الملكة البيضاء، أو سلمى، أو التنين، أو حتى أنا بما أنني شخص مهم في تلك الحرب الدائرة.

لكنه قال بخفوت:

"أصحاب هذا الكوخ الفعليين!"

"أطفال الثلج؟"

ردد بدهشة:

"أطفال الثلج؟!"

"هذا ما أطلقه على هؤلاء الأوغاد الصغار! إذن فهم يريدون أن يكبروا من أجل أن ينتقموا منه. أليس كذلك؟"

"أجل!"

"ولما سينتقمون منه؟ هل قام بسحل عائلتهم وتشريدها؟"

"بل هو والدهم نفسه!"

***

الفصل السابع والثلاثون

"ماذا؟"

قال كمن يحدث طفلة صغيرة لم تخبر شيئًا في الحياة، وليس عجوزًا مثلي:

"الظواهر خادعة؛ فلا تغتري بها!"

هززتُ رأسي موافقة؛ فبناء على ما رأيته هو محقٌ تمامًا.

بشكل غريب غير متوقع شعرتُ بالشفقة عليهم، أنسي مقابلتهم النارية معي، استغلالهم إياي؛ فبالنسبة لهم كنتُ وسيلة من أجل أن يكبروا، وإن كانت هذه النقطة غامضة جدًا.

لديّ الآن شغف يتعاظم، رغبة تضطرم في معرفته. من ذلك الرجل حقيقة؛ هل هو نجيب الزهراوي الذي يعمل سمسارًا، أم هو يحمل أسرارًا أخرى بين ضلوعه؟

أعود للتفرس في وجه العجوز، الذي يفعل المثل معي؛ وإن كان بشكل أكثر رخاوة وتسامحًا، كأنه عرف أسرار الكون، امتلأ قلبه عطفًا وشفقة، يعرف بدايات الأشياء ونهاياتها. أهذا ما تمنحه الشيخوخة إذن!؟

فلماذا أشعر بالعكس إذن؟

"لأنكِ ما زلتِ تعتقدين أنكِ شابة في جسد عجوز، لم تتقبلي الأمر بعد يا حمقاء!"

هكذا أجاب عقلي تساؤلي الحائر، وهو يتثاءب.

سألتُ العجوز:

"هل تعرف أين ذهبوا؟"

كان مشغولًا بوضع قطع اللحم في طبق. أشار لي بالصمت. هو لا يريد أن يطغي شيء على تركيزه في تلك المهمة العظيمة! وضع الطبق أمامي، ثم أخرج كيسًا صغيرة به بهارات، وراح ينثر بعضها على قطعتي.

"ستعطيه مذاقًا أجمل"

وابتسم مفسرًا:

"عن تجربة"

شكرت له اهتمامه، وأنا ازدرد القطعة ببطء. مذاقها طيب فعلًا. منذ أتيتُ لذلك العالم وأنا آكل اللحم فقط، والحقيقة أنا مناسب لأعصابي التي يتم حرقها كل قليل. وضع لنفسه قطعة أخرى، وإن كانت كبيرة الحجم، ضعف قطعتي تقريبًا؛ مما جعلني أتأهب للسخرية منه كعادتي، ثم تذكرتُ أنني مكتئبة، وكنت أرغب في الموت منذ قليل، ثم أن الرجل كان كريمًا مهذبًا معي؛ فلا يكون هذا جزاءه مني!

ثم قال، وهو يقضم قطعة كبيرة بفمه من الشريطة المنبسطة باسترخاء في طبقه:

"بالنسبة لإجابة سؤالك؛ فقد ذهبوا ليقتلوه طبعًا!"

"يقتلوا من؟"

سألتُ بدهشة، وقد اقشعر جسدي حقيقة لمجرد التصور:

"والدهم؟"

"هل أنت مجنون؟ ماذا تقول؟"

"كلنا يحمل بذرة الجنون يا بنيتي!"

قلتُ بخفوت:

"هل هناك من يقتل والده؟"

"عندما يتركه وحيدًا دون معين، يقاسي الظلمات، يعاني الوحدة، ويشعر بأن جذوره مقطوعة. مجرد نبت شيطاني متطفل!"

وابتسم:

"ثم إنكِ تنقمين على والدك!"

قلتُ:

"كنتُ كذلك. كنت!"

بذات الابتسامة، قال:

"وما الذي تغيَّر؟"

قلت بصوت هامس:

"أشياء كثيرة تغيَّرت!"

ووجدتُ نفسي أتثاءب.

"أتشعرين بالرغبة في النوم؟"

قلت بخمول لذيذ:

" الطعام الدسم، ونار المدفأة يفعلان مفعول السحر!"

هزّ رأسه موافقًا:

"هو ذاك!"

وغمز بعينه:

"من قال إن هذا العالم يخلو من السحر؟"

***

طبقات من الظلام بعضها فوق بعض، وأنا أرقد في الفراش الذي أعدّه العجوز بعناية، أخبرني بأن الدفء في قلب الصقيع، أشبه بنار المعرفة التي سرقها برومثيوس من الآلهة، في الأساطير الإغريقية!

أجذب إليِّ الغطاء، وبرغم أني مغمضة العينين، نائمة، على شفير هوّة الأحلام العميقة، إلا أنني كنتُ أبكي. دموع تجمدت فور أن تعرضت للهواء البارد، لكنها أنقصت قليلًا من النار المتأججة بداخلي.

ثمة دفء راح يسري في عروقي، أعصابي، أعضائي، واحدًا تلو الآخر، دفء احتوي روحي الضائعة، وكأنه يعيدني لرحم أمي!

هل يمكن أن نُعطي الاختيار مرة أخرى في أشياء اخترناها مسبقًا؟ هل نختار بشكل مختلف، أم ما نختاره هو يجعلنا ما نحن عليه اليوم؟

أغرق في دوامة من السكون المعتم، روحي ترفرف كطير وجد أخيرًا بيته، يتلاشى كل الصخب الذي يقيم في حياتي مؤخرًا، لعلّ الظلام قد أخفاه عني؛ فاستكّن وهدأ، أو أنه لا يظهر إلا مع النور**!**

لا يهم.

إنها حالة أتمنى أن تدوم للأبد.

***

كنت جالسة في تلك الحديقة. كنتُ في الثامنة تقريبًا. أنظر للورود والأشجار، والسماء الزرقاء؛ عندما ظهر ذلك الرجل. ذو لحية ضخمة، مشذبة بعناية، وقد اختلط سوادها ببياضها. جلس بجواري، وأخرج من حقيبته دفترًا ضخمًا، وعدة أقلام رصاص من نفس النوع.

لاحظ نظراتي الفضولية؛ فقال وهو يبتسم:

"هل تحبين الرسم!"

لم أكن أحبه، ومع هذا فقد هززتُ رأسي. رأيته يفتح صفحة بيضاء، ويبدأ في رسم ما يشبه المخلب.

سألته:

"ما هذا؟"

قال، وأصابعه تتحرك بسرعة:

"مخلب! هذا هو شكل المخالب التي يملكها الناغو!"

"الناغو!"

"إنهم جنس عظيم، أتوا إلى هنا من وراء النجوم من آلاف السنين، لكن بسبب ظروف البيئة غير المناسبة قضوا نحبهم، وتبقي واحد فقط"

سألته بدهشة:

"واحد فقط؟"

قال بحزن:

"لقد عاش حياة طويلة، وحيدًا بلا عائلة!"

"لماذا لا يتزوج؟!"

قال وهو يبتسم بمرارة:

"الأمر ليس بهذه البساطة يا سلمى"

"كيف تعرف اسمي؟"

"أعرف الكثير عنك أكثر مما تتخيلين!"

"تنهاني أمي عن محادثة الغرباء"

"هذا ذكاء منها. نفذي أوامرها، لكن ليس معي؛ فلن أوذيكِ"

"وماذا يفعل هذا المخلب؟"

قال:

"بحسب مَنْ يراه!"

قلتُ بحيرة:

"لا أفهم!"

ابتسم:

"لكي تري حقيقة المخلب عليّ أن ألمس يدكِ هكذا!"

لمس يدي بالفعل، وهنا بدا أن المخلب راح يتلون بالأحمر!

صفقتُ بيديٍّ:

"لقد صار لونه أحمر! أحب هذا اللون جدَا!"

بدتْ ابتسامة حزينة على شفتيه، وهو يقول:

"لكل إنسان لونه الخاص به، الذي تستريح إليه روحه، ويحقق من خلاله قدره!"

"لا أفهم!"

ربت على كتفي:

"غدًا ستفهمين، وستعرفين ما يجب عليكِ فعله!"

وهمس في أذني:

"وتذكري أن الصعود إلي أعلي، ثم السقوط المباغت هو الحلّ لكي يعود كل شيء كما كان!"

ثم يبتسم بحزن:

"تقريبًا!"

***

كنتُ في شقة نجيب، أشعر بأن أوصالي متجمدة. صرختْ ليلى بفزع:

"سلمى! ماذا حدث لكِ يا حمقاء!؟"

أري بطرف عيني نجيب، وهو ينزف دمًا، وهو ما زال يحدِّق إلى السقف، وصدره يعلو ويهبط. هنا سمعتُ تلك الحركة القريبة! هتفتْ ليلى:

"القاتل ما زال هنا!"

ولأني كنتُ لا أسيطر على أي عضو من أعضائي؛ فقد جرتني على الأرض، واتجهت لذلك الدولاب العتيق، ثم بدأ جسدي يرتجف، وهنا وضعتْ يدها على فمي، و....."

***

فجأة اختفت العجوز! أين ذهبت؟ لم أجد أمامي سوي أن أستقل سيارة أجرة للمنزل. أشرتُ لواحدة؛ فتوقف سائقها. في الظلمة لم أنتبه إلى أنها ليست سيارة أجرة. لكن بسبب تفاصيل اليوم المليئة بالانفعالات والغضب من أبي؛ فقد توقف عقلي عن ملاحظة الأمور! لكني عندما وجدتُ السيارة تقف في ذلك الشارع القذر شبه المهجور؛ انتبهت!

"أين نحن يا أسطي؟"

يلتفتُ إليّ؛ فأري ذلك القناع على وجهه! إنه هو! العملاق الذي قتل عمّ نجيب! أمكنني-برغم القناع-أن ألمح ابتسامته المتشفية، هنا دفعتُ باب السيارة، وأنا أجرى لداخل الشارع، لكن الوغد كان أسرع مني، وهو يغادر سيارته، ويلحق بي. صحيح أنني أنتقل لعالم مدهش وغريب، لكني في عالمي المعتاد أشعر أنني هشَّة، ضعيفة!

وبسبب سرعتي اصطدمتُ بشيء ما، وسقطتُ على وجهي، وهنا وجدته يقترب مني، وهو يقول:

"لا تقاومي! كلما استسلمتِ كان الأمر أكثر سهولة!"

إنها حياتي التي نتحدث عنها أيها الوغد!

انقضَّ عليِّ، وأحاطتْ ذراعيه بوسطي؛ مما جعلني أغرس أصابعي في عينيه. جنّ جنونه، وهو يُلقي بي في مقلب القمامة! أخرجتُ من جيبي هاتفي المحمول، لكن بسبب السقطة العنيفة انقطعت عنه الطاقة!

نظرتُ إلى العملاق بهلع، وهو يخرج من جيبه سكينًا، في نفس اللحظة التي ظهر فيها وجه يستحيل أن يوجد في تلك اللحظة:

عم نجيب!

كان الضعف على وجهه، لكنه هذا لم يمنعه أن يمسك العملاق، ويدفعه معه للخلف. كانت المعركة قصيرة جدًا، وانتهتْ بأن يرقد العملاق على الأرض، فاقدًا لوعيه، والدم يسيل من جروحه!

اقترب مني:

"هل أنتِ بخير؟"

لم أتحرك من مكاني. لم أنطق بحرف. أخرج قدّاحته الفضية، ووضعها في جيب ثوبي الأحمر، وقال:

"ستحتاجينها قريبًا، وستعرفين مهمتها عندما يحين الوقت! أغلب الظن أنكِ لن تتذكري ما حدث الآن، وأغلب الظن أنني سأساعدكِ على التذكر!"

***

أغادر القبو مسرعة؛ فور أن سمعتُ صرخة أمي المرتاعة. أبي وأمي وأحمد وليلى ملقون على الأرض، وهم يرمقون السقف بأعين ساكنة تمامًا، بينما الدماء تنثال من أجسادهم التي ما زالت تحمل دفء الحياة!

صرختُ بهلع، بجنون! الموت! الموت! يحلق في سقف البيت الملعون، بينما من بين العتمة يبرز شخصٌ ما.

أهمس بذهول:

"دكتور فوزي؟!"

كانت يمسك بلطة تقاطرت منها الدماء. دماء عائلتي. أقول بصوت جاف، متقطع، مذبوح:

"لكن لماذا؟"

أشار لجثة أبي:

"إنه السبب! إنه السبب! هل تصدقين هذا الهراء؟! يقول بأنه لم ير سيارتهم في الظلام. لقد أخطأت زوجتي عندما تركت هذا

المنزل اللعين دون أن تخبرني. لقد استجدتني وتوسلتْ إليّ أن نتركه. أخبرتني بأنها تري فيه أشياء غريبة. تشعر بتلك الأشياء وهي تتحرك عندما يأتي الليل؛ لكني لم أصدقها. أخبرتها أنها مجرد وساوس. خيالات ليس لها دليل! وذات يوم لم تستطع أن تحتمل. أخذت الأولاد وسيارتها، وغادرتْ. لم تكن تعلم بأن أبيكِ الوغد يأتي من الاتجاه المقابل، بسيارته، ومع أخوكِ أحمد!"

أردد بفزع:

"أحمد!"

اقترب مني، وقد بدا لي وجهه كالشيطان:

"ربما لم تكوني تعلمين بأن والدكِ كان يذهب لطبيب نفسي. من هذا الطبيب-والذي كان صديقًا لي-عرفتُ كل شيء. طبعًا لم يخبرني، لكن الصدفة هي من قادتني إليه، وأنا أقلِّب في تلك الشرائط الموجودة بمكتبة الطبيب! كان الفضول هو من قادني لمعرفة الحقيقة!"

الفضول؟ أعرفه جيدًا يا هذا!

قلت، وأنا أشعر بمطرقة قوية تهشِّم جمجمتي:

" أنت من دبرتَ أن يأتي إلى هنا!"

قال مشيرًا بيده الحرة:

"بل يأتي بكم. كان لابد أن يري عائلته تموت أمامه!"

وأخرج من جيبه صورة، أراني إياها؛ لأتفاجأ بأن أولاده صورة طبق الأصل من أطفال الثلج!

ورفع البلطة، وقال:

"لم أكن أظنكِ هنا. لكن لا بأس. فلتلحقي بهم!"

هنا، سمعتُ صوت نجيب، وهو ينادي بصوت جهوري:

"أستاذ كمال! أستاذ كمال! هل من أحدٍ هنا؟"

يدخل نجيب، وهنا يُفاجأ بوجه فوزي، ووجهي المرتاع المذهول! لقد فقدتُ عائلتي في لحظات!

همس فوزي:

"ما كان لك أن تأتي إلى هنا أيها العجوز!"

وهوى بالبلطة على بطن نجيب؛ لتشق اللحم، ولتخرج أمعاءه، وتتدلي على الأرض. أصرخ. أصرخ. بينما نجيب يدير وجهه إليِّ:

"اهربي! اهربي من هذا الجحيم! اهربي قبل أن...."

***

يتغير المشهد الآن:

أنا أجلس في مكان مضاء بالنيون. أنظر لجلد يديِّ، لست عجوزًا، لكني لستُ شابة غضَّة أيضًا. ربما أنا في الخمسينات. أمامي أنابيب زجاجية بحجم الإنسان البالغ، وفيها رأيتُ الملكة البيضاء، وسلمى قائدة المقاومة، وآيرون، والتنين. ورأيتُ أمي!

كان وجهها أخضر اللون بشكل غريب. قيود يديِّ تؤلمني بشدة. ظهر فوزي، وهو يسير بخطوات بطيئة:

"سترين الآن كيف أقوم بصنع شخصيات جديدة من عائلتك. سأجعلهم يعانون، يتألمون، يتساءلون: من هم؟ وسأختم بكِ! صحيح أنني-لسبب ما-عاجز عن قتلك-لكني قادر علي أن أحيل حياتك لجحيم أرضي! لقد حاولتُ معكِ لكني لم أفهم لماذا لم أستطع فعلها!"

أتحسس الشقّ البارز في فروة رأسي.

أريد النطق، لكن صوتي لا يسعفني. يقترب من ليلى، ويبدأ في غرس شقّ صغير برأسها، ثم يدلي أنبوبًا متوهجًا، والذي يتحول لمادة سائلة راحت تتسرب لداخل الجمجمة من خلال الشق. فعل هذا مع آيرون، وكذلك أبي، وعندما أتي الدور على أمي بدأتْ ترتجف. بدا أن هذا غير متوقع. للحظة بدت علامات الغباء على وجهه. ثم راحت الرجفة تزيد، وتزيد، وهنا مدَّ يده، وجذب ذراعًا لأسفل؛ فانطلق سائل ما حرق جسدها!

رحتُ أبكي دون صوت، وأنا أراها تموت للمرة الثانية!

قال بغضب:

"لابد أنه خطأ في مرحلة التخليق! لن أستطيع أن أصنع نسخة منها أخرى؛ فلسبب ما المادة الجينية لا تتحول إلا مرة واحدة!"

واقترب مني في حنق:

"وطبعًا لن أستطيع جلب مادة أخرى من جثثهم المدفونة بما أنكِ قمت بحرق قبورهم!"

فجأة بدأتْ الأضواء تومض وتنطفئ، وهنا انفتحتْ القيود، عن يديِّ؛ مما جعل يقول:

"لابد أن خلل النظام الخاص بجثة أمك قام..."

هنا هويتُ على وجهه بقوة.

***

صور متقطعة من الماضي الغابر:

أنا أجرى وراء فوزي، أطارده بغضب يعصف بي. مركزه الضخم يتحول لفوضى بسبب تقني تافه. سبب لم يضعه في باله حتمًا! تنفتح أبواب الحجرات السرية. تخرج منها صنائعه العجيبة؛ مثل

الرانجوس، الفراشات التي تموت، وتترك خلفها كريات الضوء، وغيرها!

يقول بصوت جهوري في العتمة:

"لا تظني بأنها النهاية! توجد عشرات الخطط البديلة. سأكون موجودًا دومًا!"

صور متلاطمة كالبحر، فيها الهروب، اليأس، الدم، تغيّر المناخ، تهاوي الأحلام واحتراقها!

***

أنتبه؛ لأجد نفسي فوق ظهر التنين وهو يحلق فوق الأرض المنسية، وشمس الصباح تشرق في الأفق، من خلف سحابة رمادية كثيفة، وبجواري العجوز وهو يبتسم بسماجة!

راحتْ الذكريات الناقصة تُكمل الفجوات بعقلي، وكنتُ أدرك أنني اقتربتُ من معرفة كل شيء!

***

الفصل الثامن والثلاثون

"كيف؟!"

كنت أسأل، والهواء يُصفِّر في أذنيِّ، وأخشى النظر لأسفل خشية السقوط. في كل الأحوال أنا أمارس حركة سقوط ذاتية منذ بدأ ذلك الأمر.

في ظروف أخرى كنتُ سأشتعل حماسًا، سأرفع ذراعيِّ؛ كأنني أرقص تحت المطر، مثل هاري بوتر عندما كان يركب الهيبوجريف العملاق متجهًا إلى وزارة السحر، كأميرة استبدل حبيبها حصانه الأبيض بتنين، يشق الأرجاء بجناحيه الضخمين، فوق الأرض الخضراء، والمروج المترامية حتى خطّ الأفق، والثلج يضفي رائحة مشبعة بالحزن الشفاف، نكهة من نوع خاص؛ كعروس ترتدي ثوبها الأبيض، تغني أغنية صامتة تنضح بالشجن!

في ظروف أخرى كنتُ سأفعل هذا، لكن الآن؛ فأنا أشعر بالخيانة؛ أنتزع من بين أهلي؛ لأجد نفسي فوق ظهر التنين متجهين لوجهة غير معلومة. ما زال العجوز يبتسم، كاشفًا عن أسنانه، أكرر وأنا أصرخ، محاولة أن أعلو على الصفيِّر:

"كيف فعلتها؟ كيف جعلتني أتذكر؟"

"البهارات!"

قالها ببساطة من يقرر أمرًا معلومًا بالضرورة!

الخبيث!

"لكن لماذا؟"

كان سؤالًا سخيفًا بطبيعة الحال؛ فمن حسن الحظ أنه قد تجاهله، وهو يشير لأسفل:

"لقد وصلنا"

انزلق التنين لأسفل، نحو قلعة سوداء تقع على جرف البحر. خمنتُ أننا في الإسكندرية. تري ماذا تُسمي الآن؟ البحر الأزرق العظيم يتموج أمامي إلى ما لا نهاية.

كانت قلعة قايتباي. في صحن القلعة نزلنا. الهواء الشديد يضرب وجهينا، في لحظات بدأ خفْقُ الجناحين يهدأ، ينزلقان للداخل، يمكنني أن أدقق في الوجه؛ فألمح تشابهًا كبيرًا بينه وبين أبي، الذي كنتُ معه منذ لحظات، في حلم سماوي، تحول في دقائق-لو كان للدقائق وزن في عالم الأحلام-إلى كابوس ناري، ممتزج بلون الفحم والحزن!

الفقد يتكرر، وإن كان على مستوي أقل، لكن يعزيني قليلًا أنني تذوقتُ-ولو للحظات، وبشكل زائف-طعم الأنس العائلي، والذي كنت أرفل فيه لسنوات طويلة دون أشعر به.

أجل. من الفقد نشعر بالندم، ومن الندم نتعلم قيمة الحياة!

حتى لو كان بعد فوات الأوان!

يبدو أنني أتحول لعجوز حكيمة بالفعل!

لابد أن الكآبة علت وجهي، وأنا أسير بجوار العجوز، دون أن أصرخ، أو أشتم، أو حتى أركله من علٍ. أترك نفسي لمجريات الأحداث، لأولئك الذين يعرفون أكثر مني، يحركونني كخيوط الماريونيت، كأنهم يزعمون معرفة الأفضل، أو ليحققوا أغراضهم الخاصة التي تقبع خلف ستار شبه معتم، تتحرك خلفه الظلال بشكل عشوائي مستفز، لا تعرف ما يدور هناك بالضبط، لكن من المؤكد أن ثمة ما يحدث!

صرختُ حتى يسمعني:

"إلى أين نذهب؟"

"حان الوقت لكي تعرفي"

"أعرف ماذا؟"

"الحقيقة. أليس هذا ما تريدينه؟"

قلت بتشكك:

"حقيقة أطفال الثلج؟"

"إنـهم أطفال مساكين، تتلاعب الأكاذيب بعقولـهم، يظنون أن هناك حلٌ لطفولتـهم، لكنـها مستمرة ــللأسف-للأبد!"

"ومن أين أتت تلك الأكاذيب؟ من الذي حشا عقولـهم بـها؟"

التزم الصمت، دون أن ينطق. ما زالت شفتاه تحملان ابتسامة جافة. وبدأ في النزول عبر سلم حلزوني معتم قليلًا، يقود لأعماق القلعة.

قلت بضيق، وأنا أتبعه.

"أخبرتني بأنك ستخبرني بالحقيقة؟"

أتاني صوته، وصداه يتردد بدرجة منخفضة؛ بدت كهمس تردد في أذنيِّ:

"كل الحقيقة. فيما يتعلق بموقفك الدقيق"

قلت بحذر، لم أدر لم راح يتسلل لكلماتي:

"أي موقف؟"

"استعدي يا فتاة؛ فقد حان الوقت لكي تعودي لعائلتك!".

***

في ذات اللحظة كنا ننزل، وللحظة خُيِّل إليِّ أنني أراه يرفل في عباءة فخمة قُطعت من الظلام المحيط بيننا؛ فلم يظهر منها إلا القليل

تحت الضوء الساقط من أعلى، ومع زاوية نزولنا المتعرجة؛ كثعبان يتدلى لأسفل خُيِّل إليِّ أيضًا أنني أري عينيه تلمعان كالقطط في العتمة!

هززتُ رأسي؛ لابد أن هذا من تأثير تلك الأشياء اللعينة التي وضعها في طعامي. أنظر إليه الآن؛ فأجده كما عهدته؛ عجوزًا، يسير ببطء، خشية أن يسقط؛ فتنكسر رقبته!

إذن فهو فوزي من قتل عائلتي! لهذا لم يخبرني نجيب بما حدث. لسبب ما دخلتْ هذه الذكريات بقعة مظلمة، وأُغلق عليها! ربما لحمايتي من الصدمة!

لكن تلك المادة الغامضة التي وضعها نجيب في اللحم أيقظتْ ذكريات كثيرة مطمورة.

نصل لساحة كبيرة بأسفل، أطلال سوداء محترقة، مع ثلاثة مصابيح من النيون ترسل أشعتها الشاحبة في الأرجاء، وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة.

"أين نحن؟"

سألتُ العجوز.

"هذا المكان شهد المواجهة الأخيرة بين الشيطان كما تسمينه وبين أطراف أخرى كنتِ أنت من ضمنهم هنا".

هنا، مررتُ باللحظة الشهيرة التي يتجمد فيها عقلي تمامًا، أنظر للعجوز بصمت. هل يعبث بعقلي؟ كان لا يزال مبتسمًا. سألتزم بسياسة التجاهل إذن. من باب آخر ظهرتْ ليلى وسلمي وأحمد-أو آيرون!- والتنين، وهم يسيرون بخطوات سريعة تجاهنا.

قلت بفزع:

"ما الذي أحضركم؟"

أشارت سلمي لنجيب:

"تقصدين من؟"

سألتُ نجيب:

"لكن لماذا؟"

"من حضروا البداية. لابد أن يحضروا النهاية!"

دوَّي صوت مراوغ ساخر:

"نهايتكم طبعًا!"

ومن أحد أركان الساحة الكبيرة ظهر الأشهب، وخلفه مجموعة من تابعيه، يمسكون أسلحة غريبة تشبه البنادق!

***

الفصل التاسع والثلاثون

كان العجوز يقف دون أن يبدي أي حركة أمام الأشهب.

"كان عليِّ أن أتوقع أنك صرت هو من البداية!"

قال الأشهب بهدوء، وبلهجة أقرب للاعتذار:

"لا عليك! الجميع خُدع! الجميع يُخدع في النهاية!"

"أراك بصحة جيدة!"

أخذ نفسًا عميقًا.

"لم ترني وأنا أجوب الأنفاق والمجاري كجرذ موبوء، يتساقط جلدي، وألفظ أنفاسي الممتزجة بالدم!"

"لكنك تبدو أمامي في قمة نشاطك!"

ضحك الأشهب، بينما قالت ليلى بنفاذ صبر:

"عما تتحدثان بالضبط؟"

قلتُ بضيق صدر:

"إنه الشيطان يا حمقاء! ألم تفهمي بعد؟"

"مستحيل!"

رمقها الأشهب/ الحرباء/ الشيطان بملل. يبدو أنه-وله الحقّ في ذلك-يكره ردود الفعل المتأخرة المغرقة في الإنكار والذهول. هذا الرجل لا يضيع وقته فيما يبدو.

سأله العجوز

"وكيف فعلتها؟"

"آه! المفروض ألا توجِّه إليَّ هذا السؤال! أنا من أنشأتُ عقار الحرباء، وتغيير الخريطة الجينية للبشر! التجارب المخبرية الأولي أفادتني كثيرًا؛ وهو ما جعلني أتلافي الأخطاء التي تمت في النسخ الأولي منه!"

وأشار إلي ليلى وسلمي وأحمد والتنين:

"أنتم!"

سألته سلمى قائد المقاومة بعدم فهم:

"ماذا تعني؟"

قال وهو يبتسم:

"هذا العالم البائس كان يحتاج لقفزة مجنونة من الخيال!"

قال نجيب بغلظة:

"ما كان لك أن تصل لما وصلت إليه لو لم تستولِ على جثة ناغوريان! فلا تتبجح بعبقرية لا تمتلكها!"

قال الأشهب، ووجهه يتلون بعشرات الوجوه:

"عندك حق! لكنك كنت أول من نبهني لهذا أيها العجوز؛ عندما رأيتُ بعينيِّ جروح بطنك وهي تلتئم! كانت ضربة البلطة القوية كافية لقتلك، لكن هذا لم يحدث! لقد حطَّمتُ الكثير من أسنانك حتى تخبرني بسرِّ الجثة الموجودة بالتابوت!"

هنا، استقرَّ الأشهب على وجه واحد مألوف: وجه الدكتور فوزي!

كنتُ أرمقه وهو يتكلم. قطع البازل من جديد تتجمع، تتضح، تعطي معناها. الفوضى ليست فوضى إلا لأننا لا نفهمها؛ فإذا فهمناها صارت هي النظام ذاته!

أرمقه بصمت. إنه شرّ نقي، مجسد، يتحدث ويضحك، ويهزّ رأسه، ويتحدث عن ماضيه!

سألته:

"ماذا عن أنبوب الذاكرة هذا؟"

قال بفخر:

"آه؛ إنه اختراعي المحبب لقلبي. إنه رائع. لكنكم فهمتم الأمر خطأ أيها الأعزّاء. ربما أكون قد أضفتُ ذكريات وهمية للتنين، للملكة، للعملاق آيرون، لقائدة المقاومة الجميلة. لكن أنتِ؛ الحقيقة أنني لم أضف أي شيء. بشكل ما لم أقدر على التعامل مع عقلك؛ لم أستطع انتزاع أي شيء منه، ولم أفهم لماذا! كأنكِ محمية!"

قلت بغيظ:

"وماذا عن أمي؟! لقد فشلت في أن تتعامل معها!"

هزَّ رأسه بضيق. لابد أن هذا يؤلمه، يذكره بفشله!

قال بعصبية؛ مما أسعدني:

"العقل، متلاعب عظيم؛ إنه قادر علي المحو والإضافة، الإعدام والإيجاد! إنه معجزة الأزمنة والأمكنة، ومن يعرف أسراره؛ سيملك قوي عظيمة! لكن فيما يخصكِ أنتِ؛ فلم أفهم لِمَ لم ينجح الأمر! أما ما حدث مع أمكِ فهو مجرد خطأ!"

وأردف بمقت:

"خطأ دفعت ثمنه غاليًا!"

سألته:

"وماذا عن الأطفال؟ هل هم أيضًا خطأ معامل؟"

تجمدتْ ملامحه، وقال:

"إنهم أطفال مزعجون، يتعاملون معي على أني أباهم! صحيح أنني صنعتُ خريطتهم الجينية بناءً علي صور أبنائي الراحلين، لكنهم نسخة مفرغة، سطحية، لا حياة فيها!"

قلت بمقت:

"لقد تلاعبت بهم، وأقنعتهم بأشياء غير حقيقية!"

ضحك:

"تقصدين مخلب القرد الأحمر وهذا الهراء الذي لا ينتهي؟! لقد خطر لي الأمر بغتة، وأنا أجيل النظر في التابوت الذي تستقر فيه جثة ذلك المخلوق! هناك رسم مخلب. بمعني أدق: محفور على الخشب بقوة"

وقال بعد لحظة، والانبهار يبدو في عينيه:

"لكن ما أنا متأكدٌ منه هو أن خلاياه مدهشة! إنها تحتوي علي سرّ الشباب والحياة! بواسطته استطعتُ تحقيق أكثر أمنياتي وأحلامي جموحًا!"

قال نجيب بازدراء:

"وانظر ماذا فعلت أيها المختل؟ عالم مجنون! طقس بيئي مناخي متقلب. غابات في كل مكان. حيوانات غريبة مثل الرانجوس. جيل من المتحولين. شباب ذوو أجسام ضخمة! أنت مجنون! هذه الأشياء؛ هل جلبتْ لك السلام؟"

قال بغيظ، وهو يتراجع خطوة للخلف:

"العلم يحتاج لبعض التضحيات. السعادة لا يمكن جلبها إلا بالتضحيات!"

صرختْ فيه سلمى:

" التضحية تطوعية. ليس من حقك أن تتصرف من نفسك، وتتخذ قراراتك كما يحلو لك"

وقلتُ:

"ما ذنب الأطفال الصغار في أن يدفعوا ثمن جنونك، وأن تتركهم بدون أن تهتم بهم، تتركهم هكذا بدون رعاية!"

"الأخطاء تحدث!"

انبعث صوت جديد في القاعة:

"يا لك من أب محب مخلص!"

أدير رأسي؛ فأجدهم هناك، ولأول مرة منذ عرفتهم؛ أري الغضب على وجوه أطفال الثلج!

***

الفصل الأربعون

كان الألم على وجوههم.

في نفس الوقت كانوا عمليين للغاية؛ فقد رفعوا أقواسهم، وراحت السهام تنطلق في فراغ الساحة الواسعة قاصدة هدفًا واحدًا: الأشهب!

الآن، علمتُ أنهم كانوا يتدربون من أجله، منذ أن رأيت أقواسهم وسهامهم في الكوخ.

لكن فوزي تحرَّك بسرعة، وأمسك بجسد نجيب، وجعله درعًا له؛ ومن ثمَّ فقد نفذت عشرات السهام في جسده النحيل!

أسرعتُ نحوه، هاتفة:

"عم نجيب!"

همَّ فوزي بالهروب، لكن يديِّ نجيب أمسكت به، وقال بصوت متحشرج:

"كنت أعلم أنها نهايتي! لقد استنفذتُ فرصي كلها، وأنا مستعد للرحيل! دعني أخبرك عن مصيرك أنت أيضًا!"

حاول الأشهب التملص، بينما المعركة يزداد أوارها بين الأطفال البارعين جدًا في إصابة أهدافهم، وبين رجال الأشهب الذين راحوا يقاتلون باستماتة!

صرخ فوزي:

"دعني! دعني أيها المخبول!"

وراح يتحول لعشرات الأشكال في ثوان، ومع هذا يدا العجوز لم تفلتاه؛ بل تمسكتا به أكثر، وصاحبهما يقول:

"أراك وحيدًا، تحاول إصلاح ما أفسدته بلا جدوى! قلبك الفارغ سيظلّ فارغًا، سيغدو ثقبًا أسود سيبتلع كل شيء، وراحة البال لن تنالها!"

ثم رفع رأسه، وقال بعينين جاحظتين:

"لكن هناك طريقة لإصلاح كل شيء. طريقة يمكنها أن تعيد الأمور لنصابها! طريقة يمكنها أن تجلب السلام لقلبك أيها المسكين!"

وأشار نجيب للتنين، ثم فاضت روحه!

***

فجأة، وثب التنين نحوي فور أن رأي إشارة العجوز الغارق في دمائه، متجاهلًا السهام التي أصابتْ الأجزاء اللينة في جسده، والدماء التي تسيل بغزارة، وكانت قفزته من القوة والجنون بحيث اندفعتُ من النافذة، وحطمتُ الزجاج، وهويتُ لأسفل.

كان الهواء البارد مؤلمًا، وخُيِّل إليِّ أن السقوط سيتسبب في موتي حتمًا؛ فهل لدي التنين قوة أصلًا للطيران؟

كنتُ مخطئة!

كان لديه قوة بالكاد لأن يرفرف بجناحيه العملاقين، وقد تدحرجتُ في الهواء؛ بحيث أغدو فوق ظهره بطريقة ما، واغتنمت الفرصة، وأمسكتُ بالحراشيف السميكة البارزة في ظهره كالسنام، وأنا أدرك أن حياتي مقترنة بقوة إمساكي به!

كان من الواضح أنه يتألم. بدا هذا جليًّا من ترنحه في الفضاء، وأنا أصرخ بصوت أضاع الهواء البارد معظمه:

"تماسك! تماسك!"

أدار رأسه إليِّ، وبشكل ما أدركتُ أنه يموت! خفق قلبي بقوة، وأنا أرتجف من الذعر، ومن البرد؛ إذ أنه بدلًا من الهبوط لمنطقة

آمنة، ومداواة جروحه (إن كان هناك شيء كهذا لتنين في ضخامته!) كان يتجه إلى..

إلى أعلي!

"ماذا تفعل؟"

أصرخ مجددًا، لكنه لم يسمعني أو لم يكترث! هل كان ينفذ أوامر عم نجيب؟! عم نجيب الذي اتضح أنه يعرف الكثير! الكثير جدًا!

كنتُ أشعر بغيظ لأنني بعيدة عن أرض المعركة بأسفل. صحيح أن عجوزًا مثلي لن تفعل شيئًا إلا أن تُصاب وتموت، أو تؤخذ رهينة، أو يتم تعذيبها بقسوة. الاحتمالات كثيرة بالفعل، لكني-في كل الأحوال- لا أحب أن أكون في أمان هنا، بينما هم هناك يواجهون الشرّ!

هنا بدأ التنين يغني!

ذلك الصوت الرخيم، القادم من عالم سحري وراء الجبال البيض، حيث الراحة والسلامة، وحيث كل شيء نقي، وواضح، وشفّاف.

راح يغني بذات اللغة المجهولة التي غني بها عند قصر الملكة البيضاء، بكلمات أثرّت فيِّ، مسّت شغاف قلبي، جعلت الدموع تطفر من عينيِّ، ونحن نُحلِّق فوق السحاب النديِّ، تطوحنا موجات الهواء

البارد، تفرض سطوتها أكثر علينا؛ وبالتالي يرتفع التنين أكثر، وأتشبث أنا أكثر وأكثر!

هنا توقف التنين لثانية عن التحليق. ثانية فقط. كتمتُ أنفاسي، وهنا استدار نحوي وابتسم!

رباه إنها نفس ابتسامة والدي!

ثم بدأ رحلة السقوط، وكان أسرع من الصعود بطبيعة الحال!

أصرخ، الهواء البارد يضرب وجهي، أشعر بتمزقات في جلدي، أبكي، يؤرجحني الذعر في سادية، الأرض تقترب مني في سرعة شديدة!

كان هو الهول مجسدًا، الهول الذي شلّ أطرافي، شلّ عقلي، شل أعصابي، فقط حدَّقتُ إلى الأرض التي تظهر ملامحها بسرعة شديدة، وأنا أردد بصوت معدني:

"سأ.. موت! سأ.. موت!"

لكني كنتُ مخطئة؛ لأن المشهد تغيّر حولي فجأة، ووجدتُ نفسي منطرحة على التابوت في القبو!

***

لقد عدتُ!

لم أترك الوقت ينصرم في الذهول والحيرة وعدم الفهم؛ فقد وثبتُ للخارج، وهناك كان يقف في العتمة ومعه رجاله.

الدكتور فوزي/ الشيطان/ الأشهب!

قال بتؤدة:

"لقد حانت لحظة القصاص!"

"فوزي! ماذا تفعل؟!

صرخ أبي فيه؛ برغم التعب البادي على وجهه! التعب الذي ينمّ عن مرض لا شفاء منه، إلا إذا...

كان ثوبي الأحمر هناك؛ ثوبي الذي قابلتُ فيه عم نجيب منذ أيام قلائل! هل كانت مجرد أيام حقًا؟! ثوبي الذي يحمل القدَّاحة الفضية التي سلمني إياها نجيب عندما قابلته في الزقاق! كل شيء يمكن تغييره! كل شيء يمكن تغييره!

صرخ فوزي:

"أمسكوها!"

تحرك رجاله ناحيتي، لكني قفزتُ بسرعة للقبو، وأغلقتُ الباب، وصرختُ:

"دكتور فوزي! أعرف أنك تريد الانتقام من أبي بسبب الحادثة التي فعلها منذ سنوات، وفقدت فيها عائلتك الحبيبة! صدقني؛ لقد دفعنا الثمن، كلنا دفعنا الثمن، والذي كان غاليًا! سوف أقوم بتفجير المنزل كله الآن؛ فانجوا بأنفسكم جميعًا!"

نعم؛ الآن أعرف. أعرف أن أبي هو المسئول عن مقتل عائلة فوزي بدون قصد! أفهم أنه يتعذب بهذا ليلًا ونهارًا، يهذي أثناء نومه!

أفهم أن أحمد كان معه؛ فبسبب ذلك الحادث تغيرتْ نفسيته؛ صار هادئًا إلى حد البرود! أفهم الآن سبب عدم ترحيب أبي بأن يذهب ولده لطبيب نفسي؛ لأن الحقيقة ستنكشف! يكفي أنه كان يذهب، وبسب ذلك كُشف أمره!

أفهم سرّ قسوة أبي أحيانًا؛ أفهم سرَّ ذلك الفراغ المرعب في شخصيته بعد الحادث!

أفهم أن الأمر كله بدأ بمحاولة فوزي للانتقام لمقتلهم! سيبدأ الأمر بأن يقتلنا أمام عينيّ أبي؛ حتى يتقطع قلبه حسرة! كلهم سيموتون إلا أنا!

لأنني محمية!

هل كانت لمسة ذلك الرجل العجيب، الذي قابلته في طفولتي؟ الحديقة. المخلب. الرسوم! اللون الأحمر!

سكّة الانتقام ستقود فوزي ليكون شيئًا آخر في المستقبل. باب الظلمة سينفتح، ولن يقدر على غلقه! يبدأ الأمر بشرارة حقد صغيرة، ثم تتآكل الروح من الداخل، تغدو شيئًا قاتمًا لا اسم له، لا يشبه الحياة، ولا يشبه الموت!

ذات الحالة الشبحية؛ التي لا تجعلك تنال راحةً أو سلامًا!

أمي تصرخ. أبي يدُّق الباب بعنف. ليلى تبكي، وهي ترجوني أن أعدل عن هذا الجنون! كان هذا هو التصرف الوحيد مني غير المتوقع، التصرف الذي سيجعل الموازين تُعدل! التصرف الذي سيجعلهم يبدؤون حياتهم من جديد؛ بدوني!

أحبكم جميعًا! أحبكم بشكل لم أكن لأتخيله؛ لو لم أمرُّ بما مررتُ به! أعرف أنني حمقاء!

أنظر إلى جثة القرد بصمت؛ فكل شيء بدأ منه، وكل شيء انتهي إليه.

القرد الذي فهمت الآن ماهيته! إنه مخلوق من الزمن نفسه! أو هذا ما أظنه!

الزمن الذي لم يوجد بعد، والذي لن يوجد أصلًا في أغلب الظن! اللون الأحمر؛ لوني المفضل، لون الدم، لون التضحية! لون العدم!

مثل الفراشات التي رأيتها هناك؛ تؤدي مهمتها، وتتلاشي من الوجود، وتترك خلفها أثرها الطيب فقط! لقد قمتُ بكسر أنابيب الغاز، وها هو ذا يعبق فراغ القبو المكتوم! لأول مرة تختفي الرائحة الكريهة تمامًا! سأشعل القدَّاحة الفضية، وهي ستتكفل بكل شيء؛ بالقضاء على المصدر؛ على جثة القرد!

ربما!

بشكل خارق للعادة، مقارب للسحر، يقترب من حدود المعرفة التي تأتي للذهن بغتة دون انتظار، أو سابق إنذار: حدث شيئان:

الأول: وثبتْ صورة غريبة لذهني، حيث كنتُ فيها أرتدى ثوبًا أبيض، وكنت أزحف على أرض طينية، في أرض غريبة، تعجّ بالخرائب، وتحلق في سماءها الغربان! متى حدث هذا؟ هل حدث وانزلق من ذاكرتي، أم لم يحدث بعد، أم مجرد هلوسة تحاصرني بسبب تحديقي في جثة القرد؟

الثاني: أتذكر الأغنية الحزينة التي شدا بها التنين، وهو يحملني فوق ظهره، وقد استبانتْ لي كلماتها بوضوح!

الآن أعرف تلك اللغة الغامضة، التي تداعب النفس، وتشعرها بمتعة لا تضاهيها متعة، وكأن التنين هو المناظر المستقبلي لأسطورة حورية البحر التي كانت تغني؛ فينسي البحّارة أنفسهم، ويتركون السفينة تصطدم بالصخور؛ فيلقون حتفهم، ولعلّ ابتسامة حالمة سعيدة منتشية ترّف على شفاههم للأبد!

أأكون مثلهم؟ لكن الفارق الوحيد أنني أنشد أغنيتي بنفسي، وربما ألقي مصرعي بعدها!

الآن أعرف معني" مخلب القرد الأحمر": دورة زمنية كاملة! رحلة ذات بداية ونهاية، يلعب فيها الزمن دور المعلِّم؛ فهل تعلمتُ؟

ثم دوّي الانفجار الرهيب، وساد بعده ظلام لا نهائي، يمتزج بصمت عميق!

***

خاتمة

كان هو العدم، ثم صحوتُ فجأة، وأنا أنتفض! كنتُ على الأرضية ممددة، جسدي مليء بالتراب، والقبو في حالة يُرثى لها، لكن لم تكن هناك نيران، أو أشياء محترقة؛ وكان هذا غريبًا، غير مفهوم، وطنين النحل يعود بقوة ليهاجم جمجمتي، وكأن كل دفاعاتي الخلفية قد سقطت، لكن دون أن أنتقل في تلك المرة.

أخذتُ ما يقرب من خمس دقائق حتى استعدتُ ذاكرتي، وعندما بدأتْ صور أبي وأمي وأخي تومض في ذهني كمصابيح صغيرة شاحبة، قفزتُ على ساقيِّ، مغادرة القبو المروِّع، والذي صار كتلة من التراب الممزوج بالفوضى، وأمكنني أن أرى أنه لا أثر للتابوت

بصاحبه! هل دُمِّرَّ تمامًا؟ وأي انفجار هذا الذي يقضي عليه، ثم لا يقضى عليَّ، وأنا من كنتُ أظن أنني سأمحي من هذا العالم، وسأصير للمجهول الذي لم يعد منه أحد؟!

بالخارج كان هناك سكون. سكون ممضّ، موحش، كذلك المنزل المهجور الذي أعدو في طرقاته وغرفه كالمجنونة، باحثة عن عائلتي؛ لكنى لم أجد أحدًا منهم، وبعد ساعات من البحث والتدقيق، بدأتُ ألاحظ أنه لا يوجد أي أثر لهم أساسًا؛ ثيابهم، متعلقاتهم الشخصية، حتى مكتبة أبي صارت عبارة عن حجرة خالية ترتع فيها الفئران، وتعجُّ بالحشرات، وبرائحة مقيتة. جلستُ في الصالة وعلامات البلاهة المجسدة ترتع بدورها في تقاطيع جسدي محاولة الفهم. أين ذهبوا، وماذا حدث؟ طنين النحل يأتي مرة أخرى؛ فقلت فيما معناه أنني سأمتُ من الذهاب لذلك العالم الآخر، قبل أن أغيب خلف غلالة داكنة من الصمت.

وعندها أدركتُ أنني قد عدتُ لعالمي بلا عودة؛ إذ أن عقلي لم يفعلها ككل مرة، ولم أنتقل من مكاني!

لكن السؤال هنا: هل هو عالمي بالفعل؟ الوحشة لا يمكن وصفها، ورغبتي في البكاء كانت عارمة، وكان أكثر من يشعرني بالرعب أنه لا يوجد من سيأتي ويقوم بالربت على كتفيَّ، ويخبرني بأن العالم سيغدو أفضل، وأن الأمل موجود. لقد رأيتُ الكثير، وناء عقلي بما يحمله، والآن أتعرض لما هو أصعب وأخطر: فقدان عائلتي! بحثتُ عن هاتفي المحمول؛ فوجدته ملقى على الأرض بجواري.

الحقيقة أنه لم يكن هاتفي بالضبط. كان طرازًا قديمًا أتذكر أنى اشتريته منذ ثلاث سنوات، لكنه انكسر بسبب عبث أخي أحمد به؛ مما استلزم شراء آخر جديدًا. كنتُ مشوشة وأنا أنظر في الأرقام باحثة عن أسماءهم! لا شيء. أرقام غريبة لا أعرف عنها شيئًا. حتى جيهان نفسها غير موجودة. ما الذي يحدث؟

للأسف لم أكن احفظ أيًا من أرقامهم غيبًا، وحتى لو حدث؛ فنظرًا لما واجهته مؤخرًا؛ فمن الصعب أن أتيقن من صحة إحداها بشكل مطلق.

ما واجهته مؤخرًا؟

هل ما واجهته كان حقًا، أم أنني أتخيل؟ ما أقسي أن يخونك أقرب الأشياء إليك: عقلك!

غادرتُ المنزل للخلاء الرحيب، الذي زاد من مساحات الوحشة بداخلي. جلستُ أمام الباب، متأملة الأفق، وحيث خيوط النور الأولى بدأت تشقّ السماء، معلنةً عن يوم جديد، بدونهم! عدت للداخل. أتجه لحجرتي، فأجدها مختلفة، تخلو من مقتنياتي التي أتيتُ بها من شقة الدقي. شقة الدقي؟ ارتديتُ ثيابي بسرعة، وأنا أعرف إلى أين أنا ذاهبة. كان قلبي يخفق بشدة، وسيارة التاكسي تقترب من المكان الذي عشتُ فيه لسنوات طوال. مجرد تأكدي أنه موجود على الخارطة يمنحني نوعًا من الثبات. رحتُ أخطو في الشارع كالمعتوهة، أقدّم رجلًا، وأؤخر أخرى.

هل هم هناك؟

أضغط الجرس الذي لم أتعود ضغطه طوال إقامتي هنا، وبعد هنيهة انفتح الباب، وأطلَّتْ من خلفه ليلى!

***

هل ظللتُ واقفة أحدِّق إلى وجه شقيقتي الكبرى للأبد؟ ربما!

"أفندم!"

ابتسامة رقيقة على شفتيها. أقول بصوت مبحوح مختنق، مضغوط الحروف من الانفعال:

"ليلى!"

"هل تعرفينني؟"

قالتها بدهشة حقيقية، ناظرةً لوجهي، وكأنها تريد التذكر أين قابلتني. شقيقتي العزيزة؛ هل لم أعد كذلك بالنسبة لكِ؟

"من يا ليلى؟"

صوت أمي المألوف يأتي من الداخل، كتموجات كهرومغناطيسية جعلتني أرتجف على الرغم منى.

لم أحتمل. وليتُ هاربة، وأنا أنزل الدرج بخطوات سريعة مجنونة. خطوات أهرب بها من كل شيء، لكن عندما تكون في موقف

مشابه مثلي؛ فلا تندفع لأسفل دون أن تبصر ما أمامك، إلا من وراء عينين غائمتين بالدموع؛ فسوف يحدث لك ما حدث لي!

انزلقتْ قدميَّ، ووجدت نفسي أندفع بالقصور الذاتي، ورقبتي ترتطم بالدرابزين بقوة.

***

عندما استيقظتُ كنت أجلس على مقعد مريح، بدا لي مألوفًا. أحدِّق إلى وجه ليلى التي تقوم بتضميد جروحي. قلتُ بصوت خافت:

"ليلى!"

ابتسامة مرتبكة على وجهها. قالت، وهي تضع شريطًا لاصقًا على جبهتي:

"هل تقابلنا من قبل؟"

كدتُ أندفع، وأخبرها بكل شيء، لولا أن أحمد دخل فجأة، وهو يقول بمرح جنوني لم أره عليه من قبل:

"لقد نجحت يا بشر! نجحت!"

هنا أطلقت أمي زغرودة من أعماقها، تنبئ عن أصلها الذي لم تنسه، برغم مرور سنوات على إقامتها في الدقي. كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمعها منها. كانت هناك فرحة حقيقية على وجهها، وهي تحتضنه، وكذلك فعلتْ ليلى.

قالت أمي، وهي تحتضنني:

"وجهك أتى بالخير يا بنيتي."

بكيتُ بحرقة بدون سابق إنذار. قالت بحيرة مرتبكة:

"هل فعلتُ ما أحزنك؟"

قلت بقنوط من بين دموعي:

"تذكريني بأمي فحسب."

قالت بإشفاق، وهي تربت على كتفي:

"وأين هي؟"

تشبعتُ من ملامحه وجهها، وقلت بخفوت:

"لقد رحلتْ. رحلتْ بلا عودة."

اندفعتْ من بين شفتيها كلمات مواساة، وهي تحتضنني مرة أخرى. وددتُ لو ظللتُ هكذا للأبد.

نهضتُ وأنا أترنح، والتفتُّ إلى أحمد، وصافحته بحرارة، وأنا أطبق بيديِّ على يده اليمنى، في حركة لا تصدر من فتاة محترمة، وقلت:

"مبارك يا أحمد. أخيرًا تجاوزت لعنة السقوط!"

"هل تعرفينني؟"

قالت ليلى فجأة:

"ستتناولين معنا طعام الغداء."

حاولتُ أنا أبتسم، وقد أدركتُ الحقيقة بوضوح، وقلت:

"ربما في يومٍ آخر."

أتركهم بخطوات بطيئة متجهة للباب. أدرك أنهم يحدّقون إلى ظهري الآن. ربما يشعرون أنهم يعرفونني. وربما أنا مجنونة أتخيل أشياء مستحيلة الحدوث.

أثناء خروجي من المنزل رأيتُ أبى يخرج من المصعد. وجهه نضر، ملابسه مهندمة، يسير بوقار، وهو يحمل حقيبته الجلدية الأنيقة. هزَّ رأسه فور أن رآني.

لابد أنه افترض أنني إحدى صديقات ليلى. كان يفعل هذا دومًا مع صديقاتي كلما رآهن. العادات لا يمكن قتلها، حتى لو تغيّر كل شيء.

كما حدث في حالتي.

أعود للمنزل الخاوي، لكن قلبي مليء بالصخب، وعقلي مشحون بالذكريات. أدرك أنها عائلة صغيرة لطيفة، لكن لا يوجد مكان لي بينها.

ولن أقوم بتعكير صفوها لمجرد أنني كنتُ واحدة منهم ذات يوم.

أجلس على مقعد مقابل للنافذة المفتوحة، وأنا أتأمل الأفق. ماذا سأفعل؟ ما الذي سيأتي به الغد؟

لا أعرف.

كل ما أعرفه أنني أبدأ حياة جديدة بدون أسرتي، حياة عليّ أن أبدأ رسم خطوطها بنفسي، ودون أن يرسمها لي أحد.

سأبحث عن عمل، ربما أنقّب قليلًا في المنزل بحثًا عن سرّ جديد أشغل به أوقات فراغي. الأفق الممتد أمامي يحتمل عشرات الاحتمالات.

برغم الألم، برغم عدم فهمي كيف حدث هذا؟ برغم الجنون الذي يعبق كل ذرة هواء حولي، برغم الظلمة القادمة، والتي أشعر بدنوّها بشكل ما، إلا إنني كنتُ سعيدة لأنهم سعداء.

أعرف الآن معنى كلام ليلى، عندما قالت من قبل: ***"الشاب الذي ارتحل ليتعلم معنى الخوف."*** القصة الشهيرة، والتي قرأتها فيما بعد

في قصص الأخوين جريم. ربما كنتُ ***"الفتاة التي ارتحلتْ لتتعلم معنى الفقد."***

أغمضتُ عينيِّ، ورحتُ أردد كلمات درويش، والتي كان يشدو بها التنين:

أثر الفراشة لا يُرى

أثر الفراشة لا يزول

هو جاذبيّة غامض

يستدرج المعنى

ويرحل حين يتّضح السبيل

هو خفّة الأبديّ في اليوميّ

أشواق إلى أعلى

وإشراق جميل

هو شامة في الضوء تومئ

حين يرشدنا إلى الكلمات

باطننا الدليل

هو مثل أغنية تحاول أن تقول

وتكتفي بالاقتباس من الظلال

ولا تقول!

أثر الفراشة لا يُرى

أثر الفراشة لا يزول!

****

قائمة روايات الكاتب

اضغط هنا

الموقع الرسمي للكاتب

www.areffikry.net

صفحة الرواية على الجودريدز

https://www.goodreads.com/book/show/17997171

انضم لمجموعة الكاتب علي الجودريدز؛ لمتابعة كل جديد

https://www.goodreads.com/group/show/160562

الصفحة الرسمية للكاتب على الفيسبوك

https://www.facebook.com/areffikry

تويتر

https://twitter.com/ArefFikry

انستجرام

https://instagram.com/areffikry